

سراة الهدى وقناديل الدجى

هؤلاء هم حواريو نبينا محمد ﷺ

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

دار مشكاة
للطبع والنشر والتوزيع



عنوان الكتاب: سراً الهدى وقناديل الدجى

المؤلف: محمد السيد حسن محمد

التصنيف: دراسة قرآنية

تنسيق: منى الغريب

مراجعة: بمعرفة المؤلف

تصميم غلاف: شركة دوام

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/١١٤١٣

ترقيم دولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٨٢٥-٠٨-٤

=====

٣٤ شارع يحيى إبراهيم - محمد مظهر - الزمالك - القاهرة
ت/ ٠١٠١١٤٣٩٨٩٩٤ - ٠١٠١٤٤٤٤٦٤٨ - ٠١٠٠٢٢٦٩٥٤٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

هذا العمل وقف لله تعالى

ومن أراد طباعته ونشره مجاناً فله ذلك بعد إذن خطي من المؤلف

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة

الحمد لله رب العالمين،،، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين،،، وبعد،،،
لما كان للعلوم الشرعية المنضبطة الأهمية الكبرى في حياة كل مسلم، وصار العلم الشرعي والحاجة إليه من أساسيات الحياة، وخاصة في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الفتن، والشبهات والمشككين في ثوابت الدين من هنا وهناك، وحيث انتشر الجهل والبعد عن طلب العلم والتفقه في دين الله تعالى، فكانت الحاجة للعلوم الشرعية ونشرها كالشمس للدنيا والصحة للأبدان.

ومن أجل هذا حملت على عاتقي تأسيس هذه المؤسسة العلمية وبمساعدة طيبة من بعض الإخوة المخلصين، والهدف منها نشر العلم الشرعي الصحيح المنضبط المعتدل على منهج أهل السنة والجماعة، حتى نقدم لأبناء الأمة الإسلامية مساهمة طيبة، ولو كانت بسيطة، عدة لهم وتحصينا أمام الشبهات والفتن بجميع أشكالها. ولقد تعمدا السهولة واليسر، حتى تكون متاحة لعموم المسلمين ولمحبي دراسة العلوم الشرعية، والتفقه في الدين.

و انطلاقا من حديث رسول الله ﷺ عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان ؓ، قال رسول الله: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ". (صحيح البخاري) وحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله! أيُّ الناس أحبُّ إلى الله؟ فقال: أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحبُّ إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة شهراً...". (رواه الطبراني في الأوسط والصغير)

ونسأله تعالى بجميل فضله وكرمه أن يجعله عملاً صالحاً ولوجهه خالصاً، وأن يكون زخراً لنا ولكل مسلم، ونورا علي الصراط، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولعموم المسلمين... اللهم آمين يارب العالمين،،،

المشرف العام :

ناصر بن صالح بن حسين السادة

التعريف بالمؤسسة

مؤسسة دعوية لا علاقة لها بالسياسة منهجها الدعوة إلى الإسلام بعقيدة ومنهج سلف الأمة.
جعلنا القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ طريقا وسبيلا ومنهجاً.
دعوتنا للناس بالحكمة والموعظة الحسنة واللين والرفق وعدم العنف بكل أشكاله واتباع أيسر الطرق للوصول إلى ذلك،
نبتغي من وراء ذلك وجه الله تعالى.
(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام)
شعارنا قول الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
متبعين قول رسولنا الأكرم (بلغوا عني ولو آية)
نريد العودة إلى الإسلام الصحيح والخير لجميع الدنيا فالمؤمن كالغيث أينما حل نفع.
اللهم اجعل بلادنا آمنة مطمئنة رخاءً وسائر بلاد المسلمين. تقبل الله منا ومنكم .

أهداف المؤسسة

- نشر العلم الشرعي بسهولة ويسر.
- طبع الأبحاث العلمية النافعة.
- ترجمة الكتب والأبحاث إلى لغات أجنبية.
- طباعة رسائل الماجستير والدكتوراة لغير القادرين علي طباعتها.
- نشر الإسلام الصحيح في بلاد غير عربية.
- الاهتمام بالجيل الصغير وتشجيعه علي الإنجاز وكتابة الأبحاث.
- الدعوة إلي الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.
- تربية جيل من الدعاة والمخلصين لنشر الإسلام الصحيح.
- التصدي لحملات المشككين وناكري السنة النبوية.
- إعداد ندوات علمية نافعة.
- إنشاء مدارس للقرآن والسنة النبوية المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد وتقديم

حمدا لله تعالى، وكما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وصلاة
وسلاما على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

هذا، ومما كان مخططا له أن يكون هذا العمل جزءا ومن أجزاء
تتضمنها موسوعة كتابنا الموسوم ب(السيرة النبوية أحداث ودلالات)، ولكننا
رأينا إخراجه في كتاب مستقل وحده؛ ولاعتبارات طول سفر السيرة النبوية،
ومن ثم أيضا؛ ولإبراز صفحات مستقلة، ومن أعمال هذا الجيل، الذي كان
مصاحبا لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف كان من توفيق رباني
لهذا النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، أن يخرج هكذا جيلا، ندَّ
وصفه، وعزَّ نعته، وإلا ومن كمثّل ما حكوا هم، وسوى ومن مثّل ما قالوا
هم، وإلا ومن غرار فعلهم هم، وسوى ومن إرث قصصهم هم، وإلا من تركة
عبرهم هم.

وهذا هو الذي سجله لهم التاريخ، سجلا، حافلا، هاديا، حاديا.

ويكأنك لتعجب! وإنه ليزداد عجبك مضاعفا، مركبا، وحين تعرف،
وتقف، وتدرك، أن هذا الجيل، الذي كان هو مدار بحثنا هذا، وإذ كان جلهم
خدما، ولما كان أكثرهم مواليا!

ولما يكن الأمر هكذا، ويكأنك لتذهل، ولما كان من هكذا جيل، كان يخدم هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنك لتحسبنهم فقهاء، علماء، جهابذة، فرسانا، رهبانا، طلائع خير، ونسمات إشراق، لهكذا هدى، كان يدعو إليه، هو هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنك لتحسبنهم ملائكة، حافين، من حول الأرض، نورا، وسراجا، منيرا، للعالمين.

وإنه لتأخذك هكذا دهشة، وكيف استطاع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومن حسن توفيق ربه تعالى له، أن يكون هكذا إرثه، وهم أولاء قوم بالله مؤمنون، لا كإيمان من سواهم، فرسان، لا كفروسية من عداهم، رهبان ليل، لا كرهبنة من خلاهم!

وإذ ليس يكون ذلك، ومن خلدنا، وإلا من شرعة أنزلها الرحمن، وعليها عضوا بالنواجذ، وإلا من قيادة ربانية حكيمة، تستلهم رشدنا من هكذا وحي السماء، النور المبين، والصراط المستقيم، لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت أسوة، وخير أسوة، وإلا من ريادة، حميدة لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت قدوة. الخير، ومنار السبيل، وهدى وضياء، وذكرنا للعالمين.

وهذان العاملان، الحاسمان في تخريج أمة قائدة، ومن إلفهما تتكون بذور، وقواعد، وغراس، الفاتحين، وأول ما يفتح الله تعالى بهم، قلوبا غلفا، وآذانا صما، وأعينا عميا، وأفواها بكما!

ولأنك رأيت ثم رأيت، وكيف كان منهم هذا الذي كانت راية غزوة تبوك بيديه، ولما كان من صنيع قائد هو هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان من جيد فكرتنا، ومن حسن طريقتنا، أن وقع هذا الاختيار،
ويكأنه أسوة للعاملين، ولأنه هدى، ونبراس، للجادين، الساعين، نحو تحقيق
مجد أمتهم، هو هذا المجد العريق، وهو هذا الإرث العميق، وحين قد كان في
التاريخ ضاربا، حافلا، معيناً، غدقا.

ولما كانوا أولاء سادة، وكانوا قد تبوؤا هكذا مكانة، لها صدارتها،
وأبهرتها، دعاة إلى الخير، والعدل، والحق، وبه يعدلون.

وإذ لست مبتغيا، إلا إيناسا بهم، وإذ لست مريدا، وسوى استئناس
بقصصهم، واعتبار بخبرهم، سراجا للمهتدين، ونورا للسالكين.

ومنه كانت تسميتنا لهذا السفر، ومنه كان له وسمنا هذا، الذي من
دلالة الوصف، وصدق النعت، وشميلة الانتهاض، وفضيلة العض بالنواجذ،
وجليلة الحث على السنة، وحسن الوقوف على غلق باب بدعة، وإيصاد ولو
لمة منها.

وقد سلكت في إعدادة سلم المقالات؛ وكيفا تسهل متابعته، وتيسر
قراءته، ولما كان وعلى هكذا هيئة مائعة للقارئ. وزينة للمطالعين، وبهاء
للباحثين.

ولكنني، ولم أغفل كونه قصصا؛ ولأنه أيضا عبر، ومن سوقه، ومن
طبيعته. ومن هكذا قول ربنا الرحمن سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ
عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ولما كان حافلا بهكذا اثنتين؛ وبه كان عملنا هذا جيدا، جديدا ولما كان
سفرنا هذا؛ ومن موجهه ثوبا قشيبا.

ولكنك سوف تقف على أن عملنا هذا، وبهذا الطلة كان بهيا، ولما لم
يسبق إليه عمل، لا من رسمه، ولا من رسمه!

ويكأنك، وأيضا، ولسوف يروح بك بحثنا هذا في لآلى الأخلاق، وإلى
درر الرقائق، وأبهة الفقه، وسحر البيان، وجواهر البلاغة، وحسن العبارة،
وبديع الإشارة، وحين كان قلمنا هذا، للاقتداء سخرناه، ومنهجنا للاستئناس
سلكناه.

وحين ذلك، وقد رأيت ثم رأيت، وكما أن سفرنا كان هذا حافلا، ومن
هدي أولاء صحب كرام، كانوا قد تحلقوا على مائدة نبيهم محمد صلى الله
عليه وسلم، ولما كانوا قد تخرجوا من جامعة رسولهم محمد صلى الله عليه
وسلم أيضا، مصابيح تقى، وقناديل دجى، وسراة هدى.

هذا، وقد تم إعداد عملنا هذا وقفا لله تعالى. ومن أراد طباعته ونشره
وتوزيعه تبرعا فإن له ذلك، ومن بعد الرجوع إلى المؤلف.

وعليه فإنه لا يجوز نشره كعمل تجاري بأية حال من الأحوال.

المؤلف: محمد السيد حسن محمد

البريد الإلكتروني:

haledsayed398@gmail.com

خادمة النبي صلى الله عليه وسلم : أم أيمن

أم أيمن تنتقل وصية نبينا

ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات

عن أم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بعض أهل بيته: لا تشرك بالله وإن عذبت وإن حرقت، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء فأخرج، ولا تترك الصلاة متعمدا فإنه من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، إياك والخمر فإنها مفتاح كل شر، وإياك والمعصية فإنها لسخط الله لا تنازعن الأمر أهله وإن رأيت أن لك، ولا تفر من الزحف وأن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فأثبت، أنفق على أهل بيتك من طولك ولا ترفع عصاك عنهم وأخفهم في الله عز وجل^(١).

وهذا الحديث وإن كان فيه كلام لدى بعض أهل العلم وإلا أنه يشهد له عدة احاديث أخر جاءت صحيحة ومما يشفع له أيضا.

فعن أبي الدرداء: لا تشرك بالله شيئا، وإن قطعت، وحرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا، فمن تركها متعمدا فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر^(٢).

(١) السنن الكبرى البيهقي، ج ٧ / ٣٠٥ . قال الشيخ: في هذا ارسال بين مكحول وأم أيمن، قال أبو عبيد في هذا الحديث، قال الكسائي وغيره: يقال إنه لم يرد العصا التي يضرب بها، ولا أمر أحدا قط بذلك، ولكنه أراد الأدب، قال أبو عبيد وأصل العصا الاجتماع والائتلاف.

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٧٣٣٩

وعن أبي الدرداء قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسع: "لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت أو حرقت، ولا تترك الصلاة المكتوبة متعمداً؛ ومن تركها متعمداً برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر؛ فإنها مفتاح كل شر، وأطع والديك، وإن أمارك أن تخرج من دنياك؛ فاخرج لهما، ولا تنازعن ولاية الأمر، وإن رأيت أنك أنت، ولا تفرر من الزحف؛ وإن هلكت وفر أصحابك، وأنفق من طولك على أهلك، ولا ترفع عصاك عن أهلك، وأخفهم في الله عز وجل" ^(١).

حرص الصحابة على معرفة دينهم

وهذا حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانت توضحه أمته أميمة، وفي برهان هام أنه صلى الله عليه وسلم كان قد اتخذ إماماً، ويوم أن دخل عليه أحدهما، وسأله الوصية، ومن أمر الهام، وفي برهان هام أيضاً، على حرص هذه الأمة، وعلى ما ينفعها في دينها ودنياها، وكما أن فيه علو همة أولاء صحب كرام، كانوا هكذا، ومن دين ربهم، ومن حيث كان في قلوبهم، وإنما كانت ألسنتهم هكذا ناطقة، وعما أكنته صدورهم.

وهذا الحديث لعمومه، وخصوصه، وحين تحمل سبعا من عظام الأمور، وأفردتها ببيان:

(١) الأدب المفرد للبخاري، باب يبر والديه ما لم يكن معصية: ١٨

أولاً: خطورة الشرك

وهذا بيان هام آخر على خطورة الشرك، وحين ليس يجعل العبد بينه وبينه حائط صد ومنع، ولأنه يمكن أن يلج إليه، ومن باب ليس يحسبه، ويكأنني أستحضر أبواب الشياطين، وحين كانت عديدة، ومن حيث الربا والزنا وغيرهما، وإنما كانت أبواب كل منهما كثيرة، ومن حرص هكذا إبليس على أن يضل بني آدم، وحين قال الله تعالى ﴿وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئْنَ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرْنَ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. وعن عبدالله بن مسعود: الربا ثلاثة وسبعون باباً، وأيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم^(١).

النجاة بالتوحيد والهلاك من الشرك: وعلى أن هذا الشرك، وإنما بلغت خطورته، وألا يلج فيه العبد، وحتى وإن حرق! ويكأنه ولو حرق في دنياه، لكانت الجنة مأواه، ومثواه، وأخراه. ولما كان خير السعى، وأفضل العمل ومن قوله تعالى أيضاً ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

موجب الإكراه: وعلى أن الإكراه ههنا، وإذ كان باباً، ويكأنه باب رخصة، لا عزيمة، وإنما كانت العزيمة ألا يأتي شركاً، ومهما كان ظرفه، وإنما كانت الرخصة أن يأتيه؛ ومن إكراه، وحين قال الله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٣٥٣٩

بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ
شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
[النحل: ١٠٦]. وحين قال أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ومن واقعة عمار
وبلال، وحين أخذ بلال بالعزيمة، ولم ينطق قولا كفرا مخالفا، وهذه هي
العزيمة، وهذا عمار بن ياسر، وحين قال قولا، وقلبه مطمئن بالإيمان. وهذه
هي الرخصة.

الرخصة والعزيمة: عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه: تفرقوا عني فمن
كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل، ومن لم تكن به قوة فليذهب في
أول الليل، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض، فالحقوا بي،
فأصبح بلال المؤذن، وخباب، وعمار، وجارية من قریش، كانت
أسلمت، فأخذهم المشركون وأبو جهل، فعرضوا على بلال أن يكفر
فأبى، فجعلوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه،
فإذا ألبسوها إياه قال: أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجرونه في
الشوك، وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، وأما الجارية فوجدت
لها أبو جهل أربعة أوتاد، ثم مدها فأدخل الحربة في قبلها حتى قتلها،
ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم فأخبروه بالذي كان من أمرهم، واشتد على عمار الذي
كان تكلم به، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف كان

قلبك حين قلت الذي قلت، أكان منشرحا بالذي قلت أم لا؟ قال لا،
فأنزل الله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)^(١).

فعن معاذ بن جبل: لا تشرك بالله شيئا وإن عذبت وحرقت، أطلع
والديك وإن أخرجاك من مالك، ومن كل شيء هو لك، ولا تترك الصلاة
متعمدا، فإن من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله^(٢).

ثانيا: زين البر وشين العقوق

ولكن هذا الحديث، وقد أشار إشارة، وإلى بر الوالدين، وإن هذا البر
مفتاح خير للعبيد، وإنه لطريق العبد إلى الجنة، وإنه لسبيله إلى رضا الله
تعالى، وإنه لموجب أن يبره ذراريه، وحين كان سببا لطول عمر صاحبه، ولما
كان موجبا لزيادة رزق بار، ولما كان دينا على العبيد، فمن برَّ برًّا! ومن عَقَّ
عُقًّا! وهذه وحدها موجب رعدة، وخوف، ووجل! وهذه ست كافيات كفيلات،
ومن حديث: من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل
رحمه^(٣).

ثالثا: حرمة المسكرات

وإذ كان هذا الحديث جامعا، وحين نهى النبي محمد صلى الله عليه
وسلم نهيا قاطعا عن الخمر، وعن كل مسكر أيضا، ولأنها أم الخبائث،
ولأنها سبب كل خطيئة، ولأنها أساس عموم الرزايا، وخصوص الموبقات!

(١) فتح القدير، الشوكاني: ج ٣ / ١٩٨

(٢) صحيح الترغيب، الألباني: ٥٦٩

(٣) صحيح البخاري: ٢٠٦٧

ولما جاء نهى القرآن الحكيم عنها، ومن بركة سيدنا وإمامنا عمر بن الخطاب، وحين دعا ربه أن ينزل قولاً قاطعاً في الخمر، وحين تنزل الذكر من السماء، ومن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

رابعاً: الصلاة الصلاة!

وإنما كان الأمر بإقامة الصلاة. ولأنها عمود ديننا، ولأنها ركنه الثاني، ولأنها نور، ولأنها فرضت من فوق السماوات، ويوم واقعة فريدة مجيدة، من وقائع هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، يوم الإسراء والمعراج. ولأنه تعالى قال ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

خامساً: شؤم المعصية

ولما كان ذا وصفها وإذ أضحى ذاك نعتها وقد مفى ولما كانت على القلوب ريماً ولما صارت على الالباب جاثمة فتدك حصن الاعة الغيمانية وينهار معها هكذا راحة البال وصلاح الحال ولما كانت موجبة لهكذا غضب الجبار المتعال ولما كان موجب حران علم وسبب جهالة وسبيل ضلالة وإذ وقد كان يكفي أثر واحد ومن أثارها وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو

نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون^(١).

ولما كان من سببها هكذا وحشة يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين الله تعالى، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً. ووحشة تحصل بينه وبين الناس، ولاسيما أهل الخير منهم. ومن تعسير أموره: فلا يتوجه لأمر؛ إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه. وهذه ظلمة يجدها في قلبه حقيقة، يحس بها كما يحس بظلمة الليل؛ فتوهن قلبه وبدنه، وتحرمه الطاعة. ولما كانت سبباً موجبا لقصر عمر المقترف، ومحقق بركة عمره أيضاً. وإنها تجر المعاصي، وكما أن الطاعات تجر الطاعات. وتصد عبداً عن توبته، ولما أضحى ومن سببها أسير شيطان مريد. وتكرارها ودأبها يورث القلب إلفها ومحبتها؛ حتى يفتخر صاحبه بالمعصية فلا يعافى؛ لأن المعصية تهون أختها وتصغرها. وتورث صاحبه الهوان عند ربه، وسقوط منزلته. شؤم المعاصي ويعم شؤمها الإنسان والحيوان والنبات. تورث الذل. تفسد العقل وتذهب بنوره. تورث الطبع على القلوب، وتوقع الوحشة فيه؛ فيكون صاحبه من الغافلين. تورث العبد لعنة الله تعالى ولعنة رسوله صلى الله عليه وسلم. الذنوب تورث حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والملائكة. المعاصي سبب الخسف والزلازل وفساد البلاد والعباد. وتميت غيرة القلب، وتذهب بحيائه، وتطمس نوره، وتعمي بصيرته. والذنوب تزيل النعم وتحل

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٣٣٤

النقم. مواريث الأمم الهالكة. مفاد من كتاب الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.

سادسا: الفرار يوم الزحف

ولما كان ذا منصوصا عليه ههنا، ومن حديث بابنا، ومنصافا إليه، هو ذلكم نور النبوة، وذكر الرسالة، وحين كان من أكبر الكبائر ومن قوله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(١).

النفقة على الأهل

وهذه موجبات القوامة، وأسباب الرعاية، وفطرة أودعها رب العالمين قلوب عبده؛ رحمة، ولينا، وشفقة، ومحبة.

وإذ إنك لتراك، سعيدا، مسرورا؛ ولما كان منك، هو هذا الإنفاق، رضا، وطوعية، واختيارا، ومحبة، وسرورا أيضا.

ولما كانت من خير النفقات، وجيدها، ومن قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أيضا: دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار

(١) صحيح البخاري: ٢٧٦٦

تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك؛ أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك^(١).

قالت أم أيمن: ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء

هذا قول امرأة كانت جارية عند النبي محمد صلى الله عليه وسلم! وهذه هي أم أيمن، وهذه هي أم أسامة بن زيد، حبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه هي زوجة زيد بن حارثة، ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]. وهذا قول الوفاء، وهذا قول الوشيحة في الله تعالى، وهو قول الولاء فيه تعالى، وهو حديث قلب، تتقاطر من حواليه معاني الشجى؛ وإنما لشيء واحد، وهو ذلكم انقطاع وحي السماء عن الأرض! ومن دلالة أهمية هذا الوحي؛ وحين كان للناس هاديا وحاديا، ومن برهان تعلق الناس يومهم هذا بهذا الوحي، من سمائه تعالى؛ علاجا لأدوائهم، وترياقهم لحاجياتهم. وها هي امرأة، كانت تعمل في هذا البيت النبوي الكريم الحاني، وإذ ألقت نبيها، توضحته، وإذ ألقت وحي السماء يتنزل، ولا شك أنها عاشت هذه المعاني، وحيها ملك عليها قلبها هذا، وحين راحت تزور الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله تعالى- أو يزورانها- ومن بعد وفاة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كانت تعلم ذلكم الثلاثي، الإلف، الحنون، المتآلف، المتألق، المنسجم، والذي ضرب أروع المثل وأبهاه، في الولاء، والمحبة، والإلف، والارتباط، والمحبة، وما ذاك كله كان؛ وإلا لله تعالى العلي الأعلى.

(١) صحيح مسلم: ٩٩٥

يقين الموت

ويكأنه هذه المرأة، ولما كانت، ومن يقينها بالموت، وأن من يقينها كذلك، هو ما طمأنه بها الشيخان، وأن ما عند الله تعالى خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. وحين قال الله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]. ولا سيما هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي جاهد في الله تعالى حق جهاده، وهو الذي أنعم عليه ربه تعالى، ومن قوله سبحانه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢]. ويكأنهما وحين ذكرها، وأساكنها، فعلمت وأيقنت، وإنما الذي بكت من أجله؛ هو ذلكم انقطاع وحي السماء عن الأرض أيضا!

قيمة العمل بالوحي في حياة العبد

ويكأنك وقفت، وعلى كم هي قيمة هذا الوحي، أو هكذا يجب أن يكون في عقد كل مسلم ومسلمة؛ ولأنه الحادي، ولأنه الهادي، ولأنه سبب النجاة، ولأنه موجب الفلاح، والصلاح، والخير، والسرور، والحبور، والنجاة، والفكاك من أسر الهوى، ومن ضنك المعاش، وحين يكون الناس حول مائدة هذا الوحي، ومنه ينهلون، وعليه يسرون!

ويكأنه هذه المرأة، وإذ كانت هي أم أسامة بن زيد، ويكأنها أم حب نبي الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنها كانت زوج والده

زيد بن حارثة، هذا الذي أخبرنا يوما، وعن خلق هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين لم ير منه إلا كل خير، وإن لم يعنفه يوما، وإن لم يوبخه يوما، وإن لم ير منه إلا ما تألفه هذه النفوس الحانية، الرقيقة، الرقراقة، وحين كان من شأن أبيه هذا، أنه حب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين قالت عائشة أم المؤمنين: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية، إلا أمره عليهم، ولو بقي لستخلفه! وهذا الذي كان شأنه، ويوم غزوة مؤتة، وعلى ما عالجناه حينها، في كتابنا: (السيرة النبوية أحداث ودلالات)، ومن أداء قد انقطع نظيره! وإلا من مثل زيد بن حارثة هذا، وعبد الله بن رواحة، وعلي بن أبي طالب، ومن أمثالهم، صحبا كراما بررة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

خير خلف لخير سلف

وهذا الذي كان من زيد هذا، وحين كان يبعثه النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعثا، وإنما يجعله عليه أميرا! وفي رسالة إلى العالمين، أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما كان يبعث البعوث، ويؤمر عليهم مواليه! وفي رسالة أخرى أن العبرة في هذا الدين، وإنما هي التقوى والعمل الصالح، وليس شيء بعد أو من قبل أيضا!

فعن أنس بن مالك: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم

أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها^(١).

البر لا يبلى!

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما كان باراً، وإذا كان من بره هذا إعتاقه لهذه جاريته أم أيمن رضي الله تعالى، وحين زوجها من زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه؛ وبرا بزيد، وبرا بأم أيمن؛ وإنما كان ذلك من سبب، أنها حاضنته صلى الله عليه وسلم، وفي رسالة للعالمين أن البر لا يبلى، وعند هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما الإكرام عنده، وإنما الجود حواليه، وإنما الوفاء يحوطه، ويسيجه، وكذا الود، والمعروف، والجميل، والبر، والوفاء، والنبل، ومكارم الأخلاق، وجيد الصفات، وسمو النعوت.

فعن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون، من مكة، المدينة، قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم، كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك، وهي تدعى أم سليم، وكانت أم عبد الله بن أبي طلحة، كان أخا لأنس لأمه، وكانت أعطت أم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقا لها، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن، مولاته، أم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر، وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى

(١) صحيح مسلم: ٢٤٥٤

الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، قال: فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مكانهن من حائطه. قال ابن شهاب: وكان من شأن أم أيمن أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعد ما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر^(١).

وإذ كان منه صلى الله عليه وسلم، وأن منحها فضلا، ويوم خير؛ جزاء، وإكراما، وعطاء، وفضلا، وجودا، ورزقا حسنا، وغنما ينضاف هذا، وأول ما ينضاف إلى بحر جوده ووفائه صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

وإنما كانت هذه أم أيمن بركة الحبشية! ومن برهان ألا فضل لأحد على أحد في هذا الدين وإلا بالتقوى والعمل الصالح وكما أنف بيانه أيضا. ولأنه الله تعالى قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) صحيح مسلم: ١٧٧١

وحين قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض:- إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب^(١).

فعن أنس بن مالك: ما قدم المهاجرون المدينة من مكة، وليس بأيديهم -يعني شيئا- وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام، ويكفوهم العمل والمؤونة، وكانت أمه أم أنس أم سليم كانت أم عبد الله بن أبي طلحة، فكانت أعطت أم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقا، فأعطاها النبي صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتل أهل خيبر، فانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه عذاقها، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مكانهن من حائطه. وفي رواية: مكانهن من خالصه^(٢).

هذه بقية أهل بيتي!

وهذا بره صلى الله عليه وسلم، وبحاضنته أم أيمن، وحين كان قد عدها من أهل بيته، ولما كان يناديها، ومن قوله: يا أمه! ولأنها كانت حاضنته، ومن يوم ولدته أمه آمنة بنت وهب، وهذا بر تراه منقطعا نظيره! وإلا من هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وأنت تقف حائرا؛ ومن بين

(١) شرح الطحاوية، الألباني: ٣٦١. خلاصة حكم المحدث: صحيح

(٢) صحيح البخاري: ٢٦٣٠

نكران لمعروف! أو جحود لفضل! وذلك عليه أحداث الزمان، ووقائع الإنسان!

روي بإسناد واه مرسل: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لام أيمن: " يا أمه " ويقول: " هذه بقية أهل بيتي " ^(١).

ما أصابني بعد ذلك عطش

ولكن هذه هي بركة أم أيمن، وحين كانت صائمة، ولما لم تجد ماءً، ويوم أصابها من ظمأ الهواجر، وإذ يتنزل عليها من السماء دلول ماء، عذبا فراتا! ولما قد شربت منه فارتوت، وروت، أنه ما أصابها، ومن بعده ظمأ يوما!

فعن عن جرير بن حازم قال: سمعت عثمان بن القاسم يحدث قال لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة فجهدتها العطش فدلي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت فكانت تقول ما أصابني بعد ذلك عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة وإن كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش ^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ٢ / ٢٢٤

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٨ / ٢٢٤

من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة!

ولكن هذا عنصر الإثارة والشويق! وإذا كان منه جدير هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان الحال مقتضيا هذا التشويق، ولما ألفيناه موجبا هذه الإثارة! ولما كانت هذه أم أيمن هذا شأنها، حاضنة، تقية، نقية، ورعة، ذات كرامة، وحين أنف ذكره، من دلو ماء، يتنزل عليها صائمة ظامئة! ومنه كان ولمثل هذه الجارية أن تكون سبب خير، ولمن سوف يقدم على زواجها، وببركة هذا التحفيز النبوي الكريم. ومن موجب هذا الثناء المحمدي الحليم، ولما كانت هذه بشارتها، وأنها من أهل الجنة، وإذا ولعلها تشفع لصاحبها، ويوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولعل هذا أيضا، ومن حرص هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وعلى التزويج؛ ولأهميته في التكاثر، والمباهاة، ولموجبه من حصن للأمة شبابها ورجالها، ومن حفظ لشاباتنا ونسائها.

ولعل هذا عنصر التشويق، وإذا كان بلاغة، من بلاغة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد كان ذلكم، ومما سقناه ههنا، أو هناك، أو هنالك، وكل من مواضعه ومظانه. ومن ثم يتأتى بعد عنصر التشويق والإثارة، وإذا كان منه هذا الخبر الذي أنف: من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن!

وهذا أسلوب شرط تركيب جزائي ترتيبي! ومنه كانت البلاغة مركبة، ولما كان هذا الشرط، ومن موجباته هو ذلكم الحرص على التلقي، ومن جزائه وهو ذلكم الوقوف والنظر إلى موجب، ونتيجته، وثمرته!

وبه كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم بلاغيا متضلعا!

ومن بلاغته هذا التركيب الذي تضمن: عنصر التشويق والإثارة، وعنصر أسلوب الشرط، وكما أنف!

فعن سفيان بن عقبة قال كانت أم أيمن تلتطف النبي صلى الله عليه وسلم وتقوم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن فتزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد^(١).

حجاب المرأة المسلمة

غطي قناعك يا أم أيمن

ولكن هذا أمره صلى الله عليه وسلم، وحين كانت أم أيمن قد أخرجها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كونها كانت جارية حاضنة، وإلى كونها قد صارت حرة؛ ومن إعتاقه لها.

ويكأن هذا الأمر الإعتاق موجب حجاب، ويكأنه سبب ستر، ولمحاسن المرأة، ولما كان من أول محاسنها هو ذلكم الوجه؛ ولأنه عنوان جمالها وحسنها.

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٨ / ٢٢٤

ولكن من ذهب إلى أن القناع هو مجرد غطاء للرأس، ومستدلاً بكلام أهل اللغة، وقد فاتته كلام آخر لأهل اللغة أيضاً، ومن موجب الجمع بينهما، يبدو قولنا هذا ممهوراً بتواقيع بالصحة والبيان والحق.

والمقنع والمقنعة: الأولى عن اللحياني: ما تغطي به المرأة، رأسها، وفي الصحاح: ما تقنع به المرأة رأسها، وكذلك كل ما يستعمل به مكسور الأول يأتي على مفعول ومفعلة، وفي حديث عمر، رضي الله عنه: أنه رأى جارية عليها قناع فضربها بالدرة وقال: أتشبهين بالحرائر؟ وقد كان يومئذ من لبسهن^(١).

والقناع والمقنعة: ما تتقنع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها^(٢).

جهاد أم أيمن: وهذا جهاد المرأة المسلمة، وحين كانت تداوي جرحى الحروب، وتسقي الناس، وبما يتلاءم مع أنوثتها، فلا ندخلها فيما بين مياعم السيوف! وبما لا يتلاءم مع الخشونة والشدة، والتي لا يحسن أن تتميز بها المرأة؛ وكما لا يخرج بها عن رقتها، وحين وصفها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالقارورة. وقد حضرت أم أيمن أحدًا، وكانت تسقي الماء، وتداوي الجرحى، وشهدت خير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٨ / ٣٠٠

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٨ / ٣٠٠

(٣) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٨ / ٢٢٥

خولة خادم النبي صلى الله عليه وسلم

هل تأخر الوحي بسبب كلب؟!

وهذه خولة خادم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن روي أنها أخبرت خبر تأخر جبريل عليه السلام بنزوله بالوحي؛ ولوجود جرو كلب تحت سرير النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وحتى نزل جبريل عليه السلام بسورة الضحى.

وذكر في سبب نزولها حديث جندب، وأن ذلك سبب شكواه صلى الله عليه وسلم، وقد تقدمت في صلاة الليل، أن الشكوى المذكورة لم ترد بعينها، وأن من فسرها بأصبعه التي دमित لم يصب، ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها، وجود جرو كلب تحت سريره صلى الله عليه وسلم، لم يشعر به، فأبطأ عنه جبريل لذلك، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح والله أعلم^(١).

لكن الصحيح وعلى ما أخرج في الصحيح أن أنه قد تأخر الوحي عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ونقف عند هذا، بل نسميه، وبما لم يعهد النبي صلى الله عليه وسلم، وحين كان قد ألفه، ولما كان أصبح لديه عادة وسبيلا، ولما يمكن تأخره، ومن هكذا جانب، ولما كان النبي محمد صلى الله

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ٨ / ٥٤٥

عليه وسلم، وإن ما زال حديث عهد بهذا الوحي، وإنما كان شيئاً طبيعياً أن يهمله تأخره.

والتوقف في مثل هذه الأمور أولى.

وانظر إلى توقفهم عند حدود النص، ودون ذكر لسبب، وإن ليس من ورائه طائل، ولما كان من خلفه لا حكمة، فمرة قال جندب بن عبد الله: احتبس، ومرة قال: أبطأ، وكفى!

وحين قال جندب بن عبد الله: احتبس جبريل صلى الله عليه وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه، فنزلت: {والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى} [الضحى: ٢] ^(١).

وعن جندب بن عبد الله أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: قد ودع محمد، فأنزل الله عز وجل: {والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى} [الضحى: ١-٣] ^(٢).

(١) صحيح البخاري: ١١٢٥

(٢) صحيح مسلم: ١٧٩٧

صفية بنت حيي بن أخطب

شبهة وجوابها

وكان ذراعها في يده فأعتقها

وهذا خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا دينه، وهذا نظامه، وحين جاز إمساك بيد جارية، ومن موجب أنها كانت له سبيا، ومن مقتضى كونها كذلك، وكما كان عهدا لدى الناس يومهم هذا، ولكنه وهذا أيضا خلقه صلى الله عليه وسلم، وحين كان قد أرسلها، ومن يده صلى الله عليه وسلم؛ ولقاء أنها أصبحت حرة، ومن ثم فلا تحل له، وإلا من موجب شرعي، وسوى من سبب ودليل حكمي. ومنه فلا يمسس يده يد امرأة عنه أجنبية!

فعن عيلة بنت الكميت قالت: سمعت أُمِّي أُمينة قالت حدثتني أمة الله بنت رزينة عن أمها رزينة مولاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال ابن حمدان أنه سبى صفية يوم قريظة والنضير حين فتح الله عليه فجاء بها يقودها سبية فلما رأت النبي (صلى الله عليه وسلم) قالت أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله وأسلمت وكان ذراعها في يده فأعتقها ثم خطبها وتزوجها وأمهرها^(١).

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر: ج ٤ / ٣٠٥

وعن عائشة أم المؤمنين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية؛ بقول الله: {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك} إلى قوله: {غفور رحيم} [الممتحنة: ١٢]. قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد بايعتك، كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبایعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك^(١).

ولهذا السبب ونحن إذ بصدد بيان هذا الدين، وعن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وحين لم يجز مس النساء، ودون موجب حل لذلك، من نسب كأم وأخت وخالة وعمة وماشا كل ذلك! أو عقد زوجية.

وعلى أنه قد أثير، ومما لا طائل تحته كلام، ولما كان من مقتضاه أن هذه صفية بنت حيي بن أخطب كان قد اختصها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، ومن أخيه الصحابي دحية الكلبي، ولكن الذي حدث وحين أشار أخوهما، وهو هذا الرجل والذي لم يسم، وإذ كان ذلكم غير ضروري، على النبي صلى الله عليه وسلم أن يختصها هو لنفسه؛ ومن موجب المصالح المرسلة، وحتى لا تثار أغبرة الناس يومهم هذا، وإذ كيف يعطون صفية بنت حيي بن أخطب زعيم قومه يومه ذلك، وإذ كانت سيدة القوم، ومن بني قريظة، ومن بين النضير أيضا، ورجلا كهذا؟! وإذ سوف ينسيهم الشيطان ما كانوا يعملون! وإن من سهم، وإن من اقتراع، عهدا كان جاريا!

(١) صحيح البخاري: ٤٨٩١

ولهذا السبب؛ ولعله ومنه قد أشار هذا الرجل؛ ولهذا الموجب، ولعله ومنه استمع هذا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مشورته، فأخذ واعتد بها، وإلا فقد كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا يقف أمامه من إحداهن يريدان لنفسه. وحين كان شرفا وقامة وحسن بها سبيلا، ولا علينا ومن مثل الجونية، ولا علينا ومن مثل غيرها أيضا، وإن كان ذلك استثناء، وخروجا عما هو من موجبات الفطر السليمة، ومن مقومات الأخلاق الحسنة الفضيلة النبيلة الشميلة، وحين تتأبى امرأة وعلى خير وسيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وثمة جانب آخر، وحين طعنوا في أنها وقد نسبوها إلى بني قريظة وبني الضير، وإذ كانت يوم خيبر!

ولست واجدا في ذلكم من شيء!

١- وإنما كان قصد الناس، أنها من يهود، ومن أعظمهم مقاما ونسبا؛ ولما كانت ابنة زعيمهم حيي بن أخطب، وليس القصد نسبها إلى أي من قبائلهم يومهم هذا! وهذا الذي يجري كثيرا على الألسن، وهذا الذي يحدث ومن عهد الناس، ومن نسبهم إلى قومهم جملة أبدا.

٢- وإذ ليس يهمننا أي مقام حدث، وبقدر ما يهمننا ما أنف ذكره؛ كشفا لحقائق، وبيانا لدقائق.

وعلى كل حال فإن هذه هي روايات الناس، ومن هذا الشأن:

فعن أنس بن مالك: سبى النبي صلى الله عليه وسلم صفية

فأعتقها وتزوجها فقال ثابت لأنس ما أصدقها؟ قال: أصدقها نفسها فأعتقها^(١).

وعن أنس بن مالك أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر، وإن ركبتني لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم {فساء صباح المنذرين} [الصافات: ١٧٧] قالها ثلاثا، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد، قال عبد العزيز: وقال بعض أصحابنا: والخميس - يعني الجيش - قال: فأصبناها عنوة، فجمع السبي، فجاء دحية الكلبي رضي الله عنه، فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروسا، فقال: من كان عنده

(١) صحيح البخاري: ٤٢٠١

شيء فليجئ به وبسط نطعا، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيسا، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

يوم عاشوراء

نعم كان يعظمه

هذا خبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يعظم يوم عاشوراء. وإنما كان تعظيمه هو صيامه، وإنما كان تعظيمه هو خبر يهود أن الله تعالى قد أنجى قوم موسى من فرعون! وإنما كنا نحن المسلمين أولى بموسى منهم!

وهذا عالمية ديننا، وهذه لحمة ديننا، اللحمة الواحدة، وهذه نظرة ديننا إلى وقائع الزمان، وحين كانت مرتبطة بأحداث، هي من ذلكم الذي هو من أيام الله تعالى، وحين كان الربط بينها، وهو ذلكم الذي نفيده، ومن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وأيامه تعالى هي نعمه وآلاؤه وعظاته، ومنه ما قد كان من قدرته تعالى، بأياديهِ ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم

(١) صحيح البخاري: ٣٧١

بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تبارك وتعالى: {وذكرهم بأيام الله} [إبراهيم: ٥] قال: بنعم الله^(٢).

فعن عبيد الله بن عمر القواريري. حدثتنا عليلة بنت الكميت العتكية عن أمها أمينة قالت: قلت لأمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله: يا أمة الله أسمعت أمك تذكر أنها سمعت رسول الله يذكر صوم عاشوراء؟ قالت: نعم كان يعظمه^(٣).

غير أن فريقا راح بعيدا، سحيقا، وحين ادعى أن هذه الآية، برهان جواز الاحتفال، بيوم مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم! وأنت ترى كيف قد أبعد النجعة، ولما قد رأيت هكذا لها تأويلا، بعيدا، سحيقا أيضا، وعما راحوا إليه!

هل تختضب الحائض؟

وأن نعم؛ دلالة هذا الحديث الذي بين أيدينا، ولما كانت زينة المرأة أصلا من أصول جبلتها، وخلقا من أخلاق طبيعتها وفطرتها، بل ولربما كانت زينتها في وقت الحيض أولى، ولما يمكن أن يكون داعية ابتذال في هذا

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٢ / ٥٤٢

(٢) تخریج المسند لشعيب، شعيب الأرنؤوط: ٢١١٢٨. خلاصة حكم المحدث: صحيح

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٤٩

التوقيت، ومن بعضهن، ومن ثم فقد جاء الشارع الحكيم بجواز أن تختضب الحائض، وإمعانا من زينتها، وأمام زوجها، وبالطبع أو محارمها أيضا. والاختضاب: هو أن تضع المرأة الحناء على يديها أو رجليها وشعرها وهي حائض.

ومن حيث كان ذلك كذلك؛ ولأن الخضاب ليس مانعا من طهارة المرأة، ويوم طهرها من حيضها.

فعن معاذة بنت عبدالله العدوية: أن امرأة سألت عائشة قالت : تختضب الحائض فقالت قد كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نختضب فلم يكن ينهانا عنه^(١).

عن قتادة، عن رضوى بنت كعب قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحائض تختضب، فقال: ما بذلك بأس^(٢).

ولكن الناس وإن اتفقوا على جوازه للمرأة المتزوجة، وإنما اختلفوا حول ذلك لغير المتزوجة؛ وخشية الفتنة، ومنهم من أجاز له لدواعي الخطبة، وحين تراها امرأة فيقع اختيارها عليها لولدها أو أخيها وما شابه ذلك.

وجمهور الفقهاء على جواز اختضاب الحائض، لما ورد أن امرأة سألت عائشة رضي الله عنها قالت: تختضب الحائض؟ فقالت: قد كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نختضب فلم يكن ينهانا عنه. ولما ورد أن

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٥٤١

(٢) أسد الغابة: ابن الأثير: ٣/٣٢٤

نساء ابن عمر كن يختضبن وهن حيض. وقد قال ابن رشد: لا إشكال في جواز اختضاب الحائض والجنب، لأن صبغ الخضاب الذي يحصل في يديها لا يمنع من رفع حدث الجنابة والحيض عنها بالغسل إذا اغتسلت. ولا وجه للقول بالكراهة^(١).

إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه

وإنما كان كذلك؛ ولأنه الله تعالى يجتبي من عبده من يشاء؛ وكما يكون لدينه قائمة؛ ومن سبب أولاء الأخيار، وحين كان منهم مثل عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، ومن مثله خالد بن الوليد، وحين كان سيفاً سله الله تعالى على الكافرين.

وقد مر بنا في كتاب السير النبوية طرف من ذلك وأطراف آخر تالية وإن تليق بمقامه رضي الله تعالى عنه.

ولأن الحزم والعزم وجهان مشرقان، ومن وجوه الشخصية المسلمة الأبوية، وحين ليست ترضى من دينها دنية.

فعن سديسة مولاة حفصة: إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية

(١) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٨٣

(٢) ضعيف الجامع، الألباني: ١٤٧٨. خلاصة حكم المحدث: ضعيف

أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط، إلا سلك فجا غير فجك^(١).

فأعتقنا رسول الله ﷺ كلنا !

ويكأنك تتلمح الرضا، وإذ تراك مغمورا بهكذا فيض منة، وجود، وكرم، وفضل، وجيد، وسماحة، وإغداق، وقد تحلى بها كلها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ تراك مندهشا! وحين يعتق إماءه، وهكذا ودون نظير، أو مقابل، أو عوض!

وقولنا هذا، ومما يتبدى صدقه، ولما يتبين حدسه، وحين أصبح معهودا، كيف كان وأن جل الناس يتحاسبون على كل درهم، وينزلون على كل فلس!

(١) صحيح البخاري: ٣٦٨٣

وهكذا، وعلى كل حال كانت أخلاق هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نقدمه بين يدي الناس، وحين كان من شأنه ما جاء، ومن نعته في هذا القرآن المجيد، ومن قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فعن عبد الله بن علي بن أبي رافع عن جدته سلمى قالت كان خدام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهن^(١).

الحجامة للرأس والغضاب للرجلين!

وهذا من باب الطب النبوي، وهذا من مسائل الاستشفاء الحمدي، وهذا من أصول الدواء النافع، والعلاج الناجع، وهو من وحين ألفينا هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وهكذا يدلي بدلوه في مسائل الاستطباب، ويكأنه كان فيه مرجعا عظيما، وحين قد دلنا، وعلى مسألتين هما:

المسألة الأولى: الحجامة للرأس

ويكأن وجع الرؤوس، وإنما كان علاجه الحجامة. ويكأنك تسمع كل حين من أمر الناس، وكيف هم يشكون رؤوسهم من ألم، وكيف أنهم يتوعدون أدمغتهم من وجع، وإنما كانت الحجامة لهم ترياقا، ولما أضحت لهم علاجا شفاء، وبنص قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ١ / ٤٩٧

المسألة الثانية: الخضاب للأرجل

وحين كان ذلك كذلك، وإنما؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى وإن هو إلا وحي يوحى وحين أثبت الطب الحديث أيضاً صدق الكلام ويقين البرهان.

عن سلمى قالت : ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا في رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعا في رجله، إلا قال أخضبهما

فقد ثبت علمياً في الطب الحديث: أنَّ معالجة أوجاع الرأس (الصداع: Headache) بواسطة الحمامة له تأثير حسنٌ في نوعين من الصداع، وهما:

1 - الصداع الناجم عن ارتفاع التوتر الشرياني، وهو صداع غالباً ما يكون صباحاً باكراً في مؤخرة الرأس، ويتحسن بالسيطرة على التوتر الشرياني.

2 - الصداع في مرض الشقيقة، وهي عبارة عن نوبات متكررة من الصداع الذي يكون وحيد الجانب في بدايته غالب الأمر.

وتترافق بحسّ غثيان وقيء، وتترافق باضطرابات حسية وحركية، أو اضطرابات في المزاج.

وأثبتت الدراسات: أنَّ الشقيقة تحدث بنسبة أكبر عند مرضى فرط التوتر الشرياني، كما أنَّ مرض فرط التوتر الشرياني يحدث هو الآخر بنسبة أكبر عند مرضى الشقيقة.

وكلا الصداعين: صداع وعائي المنشأ^(١).

ومجهول الصداع المزمن، المسمى بيضة، وبكل صداع مزمن عجيب،
يخلق الرأس، ثم يحل كف ملح في رطل ماء، وأعجن به حناء، وأخضب به
الرأس، ودعه الليل كله، فإنه يذهب به^(٢).

فعن سلمى مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: ما كان أحد
يشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا في رأسه إلا قال:
احتجم، ولا وجعا في رجله، إلا قال أخضبهما^(٣).

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: (٩٨/٣)، (والطب والشرعية، محمد خالد، والمعجم السريري
لارتفاع التوتر الشرياني: (١٦٣) وعنهما: الطب النبوي في ضوء العلم الحديث، للدكتور غياث
حسن: (١٥٣-١٥٢/٢).

(٢) كتاب الحاوي في الطب، الرازي، أبو بكر: ١٧٨/١

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٨٥٨

فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها

يا أمه إني مقبوضة الآن، وقد تطهرت فلا يكشفني أحد !

هذا قول منسوب إلى فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها يوم موتها، والخبر فيه كلام حول صحته، والراجح أنه خبر ضعيف في أقل أحواله، أو موضوع وفي أكثر أحواله.

على أنه ولئن كان فيه من صحيح، وإنما ولأنه يعتمد على ما جرت سنن ذوي المروءات، ومن تطبيب المرضى، وهذا من حقوقهم على أهلهم، وهذا من موجبات الأوجب، وعلى الأهل وذوي القربى من العبد، وهو من واجبات الخدم والموالي والجواري أيضا، ولاسيما أنهم يتقاضون أجرا، ويستحصلون جعلا.

وعلى أن سائر ما ذكر ليس يخرجنا عما هو أصل من ديننا، وحين يقوم العبد، ومن موجب الأمانة التي حملها، وبما يجب، وبما يحسن به قيامه عليه. وهذا مما يحسب لهذا الدين وذويه، وهذا مما يقف عليه العبيد أسوة حسنة، وقدوة مثلى أيضا.

فعن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن علي بن أبي رافع عن أبيه عن أم سلمى قال اشتكت فاطمة شكواها التي قبضت فيه فكنت أمرضها فأصبحت يوما كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك قالت وخرج على لبعض حاجته فقالت يا أمه اسكبي لي غسلا فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل ثم قالت يا أمه أعطيني ثيابي الجدد فأعطيتها فلبستها ثم

قالت يا أمه قدمي لي فراشي وسط البيت ففعلت واضطجعت واستقبلت القبله وجعلت يدها تحت خدها ثم قالت يا أمه إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد فقبضت مكانها قالت فجاء على فأخبرته ^(١)!

إنّا آل محمد لا نأكل الصدقة

وإنما كان ذلك كذلك، ولأنها من أوساخ الناس، وكان للمسلم أن يتعفف عنها، وما وجد لذلك من طريق؛ عزة وأنفة؛ ولأن اليد العليا خير وأحب إلى الله تعالى من اليد السفلى. وكما قال هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم: اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ^(٢).

وليس يقال عن ذلك: إنه خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنه ومع التسليم بذلك، وإلا أننا نشتم منه رائحة العزة، وطيب الكرامة أيضا. ولعل هذا سر من أسرار قوله صلى الله عليه وسلم قوله هذا.

وإن قيل: ولم حلت المسألة؟

وأقول: وأن نعم، وإنما حلت لذويها، وإنما أجازت لمستحقيها، وحين توافرت شروطها، وكما هو سنن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قال قبيصة بن مخارق: تحملت حمالة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها، قال: ثم

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٦ / ٤٦١ و ٤٦٢

(٢) صحيح البخاري: ١٤٢٧

قال: يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش -أو قال: سدادا من عيش- ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش -أو قال: سدادا من عيش- فما سواهن من المسألة -يا قبيصة- سحتا، يأكلها صاحبها سحتا^(١).

وأنت خير بحالات وردت في الحديث الصحيح، والتي من أجلها شرعت المسألة، وحين كان جامعها المشترك هو الضرورة الملجئة! وإيجازا هي:

الحالة الأولى: من تحمل دينا على نفسه للإصلاح بين الناس: ولأن ذلك من مصارف الزكاة، ولقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

الحالة الثانية: الجائحة: وهي: الآفة التي تهلك الثمار والأموال، وتستأصلها.

الحالة الثالثة: الفقر الشديد: وحين يشهد ثلاثة من قومه من ذوي الفهم والعقل، وأنه قد أصابته فاقته، وحلت به جائحته، وإنما قيدت بذوي

العقول؛ ولأنه يشترط في الشهادة اليقظة والفتنة، فلا تقبل من غافل، ولما كانوا من قومه؛ ولأنهم هم الأعلم بحاله.

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إنا آل محمد لا نأكل الصدقة حديثه عند أهل الكوفة راشد بن حفص السلمي أبو أثيلة من أهل الحجاز، وكان اسمه في الجاهلية ظالما، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم راشدا^(١).

ولكن السؤال ولما كان مفرغا ومن موجبات سبقت وغنما كان خراجا إلف الخلق النبيل ولما كان شاردا عن حميد الشيم الفضيلة.

فعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكفل له بالجنة فقال ثوبان أنا فكان لا يسأل أحدا شيئا^(٢).

وعلى أنه، وهذا هديه صلى الله عليه وسلم في الاختيار من الأسماء، وما كان أحسنها، وحين كان قد حَوَّلَ اسم هذا الرجل من ظالم إلى راشد!

وعلى أن كثيرا من هذا الهدى، وحين تناولنا جانبنا منه في كتابنا (السيرة النبوية. أحداث ودلالات) وإنما كان منه أيضا ما أسمى به مولاة عائشة، ومن عتبة إلى عنقودة، وفي اسم محلى بظلال الهدى وترانيمه، ومن دلال الاسم وتقاسيمه.

(١) الثقات، ابن حبان: ج ٣ / ١٢٧

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ١٦٤٣

فعن صبيح بن سعيد النجاشي المدني سنة ثمانين ومائة وزعم أنه بلغ ثنتين وخمسين ومائة سنة قال سمعت أُمِّي أنها كانت اسمها عنبه فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقودة^(١).

وعلى أن هذه هي عائشة أم المؤمنين، وحين سارت سير زوجها النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ اقتداءً، وسننا حسنا وحين كانت تنادي عنبه هذه بالعنقودة، وعلى تسمية هذا النبي صلى الله عليه وسلم لها، وهذا من الهدى، وهذا من إلف الزوجة الحانية أيضا.

فعن علي بن أبي طالب قال لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم ان يبعث معاذًا إلى اليمن صلى صلاة الغداة ثم أقبل علينا بوجهه فقال يا معشر المهاجرين والأنصار من ينتدب إلى اليمن فقال أبو بكر أنا يا رسول الله فسكت عنه رسول الله ثم قال من ينتدب لي اليمن فقال معاذ أنا يا رسول الله فقال أنت لها وهي لك وتجهز وشيعه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون وأفناء الناس ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصيك يا معاذ وصية الأخ الشفيق أوصيك بتقوى الله عز وجل وحسن العمل ولين الكلام وصدق الحديث وأداء الأمانة يا معاذ يسر ولا تعسر وذكر حديثًا طويلا في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وعود معاذ من اليمن ودخوله المدينة واتيانه منزل عائشة ليلا وانه طرق الباب فقالت من هذا الذي يطرق بابنا ليلا فقال أنا معاذ فقالت يا عنقودة افتحي الباب^(٢).

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٥ / ٥١٣

(٢) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٥ / ٥١٣

فروة: ظئر النبي ﷺ

«إذا أويت إلى فراشك فأقرئي: «قل يا أيها الكافرون» فإنها براءة من

الشرك».

هذه رواية فروة: ظئر النبي ﷺ، أي: مرضعه صلى الله عليه وسلم، وهذا قول الوحي، وهذا قول الصدق، وحين القرآن الحكيم سبب حفظ للعباد، ويكأنه ولما يتلو العبد سورة (الكافرون)؛ وإنما ليشهد معالم التوحيد، وكما ليشهد معالم الشر، فيقوم عليها قومة واحدة، ومن ثم يكون العبد عالما لدلولات بين نقيضين في آن واحد، هذان النقيضان هما الشرك، والذي يجب على العبيد أن يتركوه، وأن يزيلوه، وأن يبرأوا منه، وهذا التوحيد، وهو حق الله تعالى على العبيد، وبالتالي فليس يكون العبد مستجمعا أصول التوحيد، وإلا حين يعرف الشرك، فيجتنبه كله، وإلا وحين يعرف التوحيد، فيأتيه كله أيضا.

إن الفصل بين هذين الأمرين، وإن هو إلا ومن كمثال الفصل بين الرأس والجسد؛ ولأن العبد ليس يتسنى له أن يقوم بحق هذا التوحيد، وإلا حين يعرف التوحيد فيقيمه، وإلا حين يعرف الشرك فيزيله ويزيله.

على أن هذا، وإنما يعد حرصا من أولياء الصحب الكرام، وعلى معرفة ما يقوم به دينهم، وحتى وهم ذاهبون إلى فراش نومهم، وحين كان وقت الخلود إلى الراحة، ولما كان وقت السكون، والنوم، والهدوء، والخروج من

حالة العمل، والكد، والاجتهاد، وإنما لم يفارقهم؛ محبة ما يدركون به سعادة الدنيا والآخرة.

وهذا الذي جعل هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم يأمرهم بتلاوة سورة (الكافرون)، وحين كانت براءة من الشرك، ولما يعيشها العبد ليله ونهاره فتوت أكلها، وهذه حيثية جديدة، وحين كان من قولها حين إخلاذه إلى الراحة، ليعيشها ليله، وإنما كان هذا؛ وليتضمنها عيشه من نهاره أيضا! وهذا مصداقا لقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فعن فروة بن نوفل: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علمني شيئا أقوله إذا أويت إلى فراشي، فقال: اقرأ: قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك قال شعبة: أحيانا يقول مرة وأحيانا لا يقولها^(١).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

هذا شأن المسلم، وحين يعمل عملا أو يقول قولاً، وإنما يكون ذلك الفعل، أو هذا القول؛ وإنما يكون لله تعالى، وهذا الذي يفرق المسلم عن غيره أولاً، وهذا الذي يجعله مهتدياً إلى أقوم السبل، ولما كان منه هذا الإطعام لابن السبيل، والمسكين والأسير واليتيم، أو ما شابهه من محتاجي هذه الأمة، والناس أجمعين، ولأن البر لا يبلى، وسواء كان هنا أو هناك، وإنما يقدم في ذلوا القربى؛ دينا وفقها وخلقاً حسناً.

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٤٠٣

ولكن هذا الآية قد ورد في شأنها حديث يعتبره أهل صناعة الحديث منكرا أو موضوعا. وهو على ذلك، وإنما ننظر إليه وحسب، ومن باب ما دلت عليه الآية، ومن جيد الإطعام ولما له من أثره في جبر الخواطر الكواسر.

وإنما جاء الشرع، بحث الناس على إطعام الطعام، وحين كان ذلك من علامات صدق الإيمان، ومن آيات ودلائل وبراهين الإحسان.

وإنما كان هذا الإطعام، ولهذا الفئات، ومن منطوق الآية؛ ولأنهم هم الذين قد يكونون منكسري الخواطر والوجدان، ولهذا جاء هذا الدين؛ وليجبر خواطرهم.

وأولاء هم المساكين واليتامى والأسارى. وكما قال الله تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وعن عبدالله بن سلام: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس قبله، وقيل: قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله ثلاثا، فجئت في الناس، لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به، أن قال: يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام^(١).

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٦٤٨

أنس بن مالك

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا

عن أنس قال خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو عيسى: وفي الباب عن عائشة والبراء، وهذا حديث حسن صحيح^(١).

هذا إجمال بين تفصيلين!

وحين كان التفصيل الأول: ومن كونه صلى الله عليه وسلم لم يؤاخذ أنسا يوما، وحين خدمه عشر سنين! وهذا العشر سنين، وإنما لتبدو منها علامات العبد، وعمومها، وخصوصها، وإجمالها، وتفصيلها، ومهما تكن عند امرئ من خليقة، وإنما لابد وأن تظهر عليه علاماتها، وإنما بدت كل علامات الخير على سمت هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين لم يؤاخذ، وإنما لم تبد عليه أمانة واحدة، ليحسبها الناس، ومن حسابات السلب لا الإيجاب!

(١) صحيح مختصر الشمائل المحمدية، الألباني: ٢٩٦

وهذه هي الشخصية المسلمة المؤثرة في محيطها، ولما كانت وهكذا هي الأبية؛ ومن سمقها وعلوها، ومن حسن خلقها، ومن جيدها، ونبلها، ومن شمائلها.

وحين كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ووصفا له من أنس، أنه لم يؤاخذه لا على شيء فعله، ولم فعله، أوى على شيء تركه، ولماذا تركه! وهذا في الواقع مثال خلق دمث، ولربما كان في الخيال! وإلا عند هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين كان التفصيل الثاني: وكذا، وقد كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ألين الناس كفا، وهذا من باب الكنايات، ومن رحمة، ومن لين، ومن رفيق، ومن حسن خلق، ومن رأفة، وبمن يتعامل معه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أيضا.

وإنما كان طيب الرائحة عبيرها، ومسكها، وإنما كان هذا، ومثل الطيب في النفوس، تزكية وللأرواح مطيبا، وللأبدان مستروحا.

وأما لين الجانب، فهذا خلق شمил، ودأب رفيع نبيل، وحين كان سببا في للمة الأوراق المبعثرة، ولما كان موجبا لالتئام الجروح المدمية!

علم نبوة ضاف!

وهذا عرق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين مسكا، لارائحة المسك، وحسب! وهذا علم ضاف آخر ومن أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن الملفت ان كثيرا من هذه الشهادات وغنما جاءتنا عن معاينة لا عن مخابرة حين كان رواتها هم أصحابها ومن اولاء الموالي والجواري. وهذا جانب.

ومن جانب آخر ولعله من الدلالة أقوى وحين جرت عادات الناس علوا وعلى هكذا صنف من الجواري، وكذا فريق من الموالي، ولما كانت شهادتهما معا، ومن حق عدالة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن موجب رحمته ولينه ورقته وسماحته وعفوه، وإنما تأكد لدينا أن هذه شهادات حق لا مجروحة وأنها لفائف مناقب لا مندوحة بل ممدوحة!

فإنه من أهدى له كان كمن صلى فيه

هذا حديث عظيم الشأن، وفيه يبين أن بيت المقدس له قيمة قصوى في هذا الدين.

١- ولما كان من مبتناه وأيام نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، وكما جاء عن ابن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلا لا ثلاثا سأل الله تعالى حكما يصادف حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لاحد من بعده فأوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا

ينهزه الا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه) رواه النسائي بإسناد صحيح^(١).

٢- ولما كان، ومن مشروعية شد الرحال إليه، وكما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: سمعت أبا سعيد - وقد غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثنتي عشرة غزوة- قال: أربع سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم -أو قال: يحدثهن عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأعجبني وأنقني-: ألا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم، ولا صوم يومين: الفطر والأضحى، ولا صلاة بعد صلاتين: بعد العصر حتى تغرب الشمس، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد الأقصى^(٢).

وزيارة بيت المقدس فضيلة، وسنة لا شك فيها، لكنها غير متعلقة بالحج^(٣). و(أجمع العلماء على استحباب زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه وعلى فضله، قال الله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) وثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري ومن رواية أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تشد

(١) المجموع، محي الدين النووي: ج ٨ / ٢٧٧

(٢) صحيح البخاري: ١٨٦٤

(٣) المجموع، محي الدين النووي: ج ٨ / ٢٧٧

الرحال الا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى
ومسجدي هذا^(١).

٣- ولما كانت الصلاة فيه بألف صلاة؛ ولحديث الباب تاليا.

٤- ولما كان من أرض المحشر، فيحشر الله تعالى الناس، ومن
اليمن أو الجزيرة، وإلى أرض الشام، وإذ كان منها هذا المسجد
الأقصى المبارك. ولحديث الباب.

قال السمعاني: (قوله: لأول الحشر قال الحسن: معنى أول
الحشر: هو أن الشام أرض الحشر والمنشر، وكان رسول الله أجلاهم
إلى الشام، فإجلاؤه إياهم كان هو الحشر الأول، والحشر الثاني يوم
القيامة، وهو قول عكرمة أيضا)^(٢).

وقوله تعالى " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب "
يعني يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير
واحد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادنهم
وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد
الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له وأنزل
عليهم قضاءه الذي لا يصد فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم
وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون
وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئا

(١) المجموع، محي الدين النووي: ج ٨ / ٢٧٨

(٢) تفسير السمعاني: ٣٩٥ / ٥

وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم وسيرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلهم من المدينة فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام وهي أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر^(١).

وعن حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم إني حلفت هكذا ونشر أصابع يديه حتى تخبرني ما الذي بعثك الله تبارك وتعالى به قال بعثني الله تبارك وتعالى بالإسلام قال وما الإسلام قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة اخوان نصيران لا يقبل الله عز وجل من أحد توبة أشرك بعد إسلامه قال قلت يا رسول الله ما حق زوج أحدنا عليه قال تطعمها إذا أكلت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت ثم قال ههنا تحشرون ههنا تحشرون ههنا تحشرون ثلاثا ركبانا ومشاة وعلى وجوهكم توفون يوم القيامة سبعون أمة أنتم آخر الأمم وأكرمها على الله تبارك وتعالى تأتون يوم القيامة وعلى أفواهكم الفدام أول ما يعرب عن أحدكم فخذة قال ابن أبي بكر فأشار بيده إلى الشام فقال إلى ههنا تحشرون^(٢).

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٤ / ٣٥٣

(٢) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٤ / ٤٤٦

وفي تفسير ابن عيينة عن ابن عباس: من شك أن المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ أول سورة الحشر قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ اخرجوا قالوا إلى أين قال إلى أرض المحشر وحديث ستخرج نار من حضرموت تحشر الناس قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال عليكم بالشام ثم حكى خلافا هل المراد بالنار نار على الحقيقة أو هو كناية عن الفتنة الشديدة كما يقال نار الحرب لشدة ما يقع في الحرب قال تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله وعلى كل حال فليس المراد بالنار في هذه الأحاديث نار الآخرة ولو أريد المعنى الذي زعمه المعارض لقليل تحشر بقيتهم إلى النار وقد أضاف الحشر إلى النار لكونها هي التي تحشرهم وتختطف من تخلف منهم كما ورد في حديث أبي هريرة من رواية علي بن زيد عند أحمد وغيره وعلى تقدير أن تكون النار كناية عن الفتنة فنسبة الحشر إليها سببية كأنها تفسو في كل جهة وتكون في جهة الشام أخف منها في غيرها فكل من عرف ازديادها في الجهة التي هو فيها أحب التحول منها إلى المكان الذي ليست فيه شديدة فتتوفر الدواعي على الرحيل إلى الشام ولا يمتنع اجتماع الأمرين^(١).

٥- ولما جاء ذكره في القرآن المجيد مباركا، ومباركا ما حوله، وهذه من لفتات الكتاب الحكيم، وإذ لما كان ما حوله قد باركه الله تعالى، وما بالك به إكراما زائدا! وحين قال الله تعالى ﴿سُبْحَانَ

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ١١ / ٣٢٨

الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿[الإسراء: ١]﴾.

٦- ولما كان هذا المسجد، وكما أنف، ومما تشد إليه الرحال،
وإلا أنه أخذ زيادة ميزة، وحين لم يستطع العبد ذلك، وإنما يهدي
إليه زيتا، وميما يسرج منه فيه! وهذا برهان السنة، ولما كان منها
إسراج المساجد، وبهذا المعنى الذي أنف. ولحديث الباب.

فعن ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين قالت: يا رسول الله
أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَالَ أَرْضُ الْمُحْشَرِ وَأَرْضُ الْمُنْشَرِ انْتَوَهُ
فَصَلُّوا فِيهِ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ
لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ قَالَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَأْتِيَهُ فَلْيُهْدِ
إِلَيْهِ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ فَإِنَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيْهِ زَيْتًا كَانَ كَمَنْ أَتَاهُ^(١).

الأوان الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام

وأرض الشام هي أرض المحشر، ولأنها أرض الأمن والإيمان: وحين
تقع الفتن في آخر الزمان، وقد جاءت أحاديث صحيحة في فضلها والترغيب
في سكنها.

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٩-٤. خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات.

المقصود بالبحر ومعنى المنشر

وأما المقصود بكونها أرض المنشر فإنه البعث. ولقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

قال: وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى يقال نشر الميت ينشر نشورا إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياه، ومنه قولهم يوم البعث والنشور. وأما الحشر فهو في اللغة الجمع، تقول حشرت الناس إذا جمعتهم، والمراد به جمع أعضاء الإنسان بعد التفرقة، ثم إحياء الأبدان بعد موتها^(١).

ولد الزنا شر الثلاثة

هذا حديث صحيح رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، وهو من استدراكات عائشة على أبي هريرة، وحين راح مذهباً يلوح منه في الأفق المؤاخذة للثلاثة، وحين سمى الناس بالوالدين، وما بال ولدهما من الزنا؟! وقد كان غير مقرف شيئاً! ولاصفة له في فعل كان بمثابة هذه الواقعة، ولا سيما ونحن أمام قول الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فطر: ١٨].

ولهذا السبب، جاءت عبارة عائشة رضي الله تعالى واستدراكا على مذهب أبي هريرة هذا، وتصحيحاً لما قد راح إليه.

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية،
السفاري: ١٦٦

ولكن الحديث كله، وعلى ما يبدو من قول أبي هريرة رضي الله تعالى عنه. وهو قول ذو قيمة، ولاسيما أنه كان صحابيا، لا ككل صحابي، بل رجل منهم كان يعيش في بيت النبوة، ولهذا السبب، فإنه وإن أُوخذ، ومن قول عائشة رضي الله تعالى عنها، وإلا أنه أيضا يبقى أن تأويله ولربما كان صحيحا، وهذا الذي راح به رواحا آخر وحين قال قوله هذا: لأن أمتع بسوط في سبيل الله عز وجل أحب إلي من أن أعتق ولد زنية.

ولكن قول أبي هريرة هذا، ولربما كان داخلا في شأن علوم النفس، وما يمكن أن ينطوي عليه خلق ولد الزنا، ومن خروج على مألوف الحسن من الأخلاق، أو لربما ولأنه سوف لا يحتضن من أبويه، وبالتالي يكون عرضة لإصابته بالخلق السيئ الذميم أيضا.

وهذه مسألة جديرة بالعناية، وأن تعمل الأمم على هكذا محاصرة لهذا الوباء، وألا يستشري في الأمة، ومن خلال تسهيل الزواج الشرعي؛ وإخراج أسر ذات حضانة، وتربية على موائد الحنان، والشفقة، والرحمة، والدلال، ومن ثم تتخرج أجيال نافعة صالحة للأمة.

فعن أبي هريرة: ولد الزنا شر الثلاثة. وقال أبو هريرة لأن أمتع بسوط في سبيل الله عز وجل أحب إلي من أن أعتق ولد زنية^(١).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٩٦٣

مثل الرافلة في الزينة في غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة ، لا نور لها .

هذا حديث ضعيف، ولكنه موافق لعموم الآيات التي وردت، شأن الحشمة والستر، وألا تبدي المرأة زينتها، وإلا لذوي أرحامها، ومن أب، أو ولد، أو زوج، وكل له حده في هذا الشأن أيضا، وعلى تفصيل ليس محله ههنا.

وكما أن هذا الحديث موافق لمطلق معاني الأحاديث الصحيحة التي رويت، وإن كان من معناها أيضا، وما سلفت إليه الإشارة.

وقال الله تعالى ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية، وقال تعالى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٣].

وعن أبي موسى الأشعري: أيما امرأة استعطرت ، فمرت على قوم ليجدوا ريحها ، فهي زانية ، وكل عين زانية^(١).

وقوله (كل عين زانية) أي كل عين نظرت إلى أجنبية عن شهوة فهي زانية (إذا استعطرت) أي استعملت العطر (فمرت بالمجلس) أي مجلس الرجال (يعني زانية) لأنها هيئت شهوة الرجال بعطرها وحملتهم على

(١) صحيح ابن خزيمة، الألباني: ١٦٨١

النظر إليها ومن نظر إليها فقد زنى بعينيه فهي سبب زنى العين فهي آثمة قوله (وفي الباب عن أبي هريرة) أخرجه أبو داود وابن ماجه وفي إسناده عاصم بن عبيد الله العمري ولا يحتج بحديثه قوله (هذا حديث حسن صحيح) وأخرجه أبو داود والنسائي وسكت عنه أبو داود ونقل المنذري تصحيح الترمذي وأقره^(١).

وعن أبي هريرة: صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا^(٢).

والرافلة أي: المتبرجة بالزينة لغير زوجها، وهي المتبرجة في الزينة لمن يحرم نظره إليها^(٣).

قوله (مثل الرافلة) قال في النهاية الرافلة هي التي ترفل في ثوبها أي تتبختر والرفل الذيل ورفل إزاره إذا أسبله وتبختر فيه انتهى.

وقوله: (في الزينة) أي في ثياب الزينة (في غير أهلها) أي بين من يحرم نظره إليها (كمثل ظلمة يوم القيامة) أي تكون يوم القيامة كأنها ظلمة (لا نور لها) الضمير للمرأة.

قال الديلمي يريد المتبرجة بالزينة لغير زوجها^(١).

(١) تحفة الأحوذى، المباركفوري: ج ٨ / ٥٨

(٢) صحيح مسلم: ٢١٢٨

(٣) فيض القدير: الشوكاني: ٥ / ٥٠٧

عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم مثل الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة، لا نور لها^(٢).

الأمْن النفسي والدعاء!

عن عائشة أم المؤمنين: أن امرأة من جرش أتت النبي صلى الله عليه وسلم على بعير، فنادت: يا عائشة، أعينيني بدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسكنيني، أو تطيبيني بها، وإنه قال لها: ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه، وقولي: بسم الله، اللهم داوني بدوائك، واشفني بشفائك، وأغنني بغناك وبفضلك عن سواك، وأحدر عني أذاك قالت ربعة: فدعوت به فوجدته جيدا. قال المنتجع بن مصعب: وأظن ربعة، قالت في هذا الحديث: إن المرأة كانت غيري^(٣).

هذا هو شأن الدعاء، وهذا هو صدق الالتجاء، وهذا هو قيمة الرجاء، وتعلق القلب بخالق الأرض ورافع السماء، وحين كان العبد متصلا بمولاه، وموقنا بقدرته، ورحمته، وهداه، وسناه، ولما كان الله تعالى هو الشافي على الحقيقة، ومن اعتقاد ذلك جازم، ومن توكل عليه تعالى في ذلك، وتفويض، واعتماد عليه أيضا.

وهذه من فرائد ديننا، وحين كان هذا الدعاء سلاحا مضاء؛ ولعلاج، واستشفاء تامين تامين، ومن الأدوية البدنية منها، والنفسية أيضا.

(١) تحفة الأحوذى، المباركفوري: ٢٧٦/٤

(٢) ضعيف الجامع، الألباني: ٥٢٣٦

(٣) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري: ٧٤ / ٤. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

قبضة من تمر أو قبضة من زبيب

وهذا شرع ديننا، الإسلام الحنيف الخالد، وحين جاز وشرع وحل انتباز التمر وحده، أو الزبيب وحده، ولمدة ثلاثة أيام. وخشية أن يتحول إلى مسكر.

وهذا نظام ديننا، في مسائل النظافة الاهتمام بها. وحين كن يغسلن الإناء، ومن بعد كل شربة.

وهذا عمل الزوجة في بيتها، وحين أخبرت عائشة أم المؤمنين أنهم كن يغسلن الإناء كل مرة، ومن بعد شربه صلى الله عليه وسلم.

وهذا طعام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا تواضعه أيضا. وهذا معلم اقتصادي نبوي هام، وحين كان هذا الاقتصاد وبلا سرف، وحين كان التناول وبلا تقتير أيضا.

وهذا هو استقلال الانتباز، وبمعنى أن التمر ينتبذ وحده، ودون زبيب معه، وكذا انتباز الزبيب وحده، ودون تمر معه؛ وخشية أن يكون انتبازهما معا سببا لسرعة تخمرهما، ومن ثم يكون غير مشروع ولا جائز؛ ولضرر محقق، وإنما جاءت هذه الشريعة؛ ولرفع الضرر أو تقليله.

وعلى أنه كان إذا تبقى، ومن هذا النبيذ شيء، ومن بعد الثلاثة الأيام، فكن يهرقنه؛ وخشية تخمره، وكما أنف.

عن عبدالله بن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتبذ له أول الليل، فيشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء، والغد

والليلة الأخرى، والغد إلى العصر، فإن بقي شيء سقاه الخادم، أو أمر به فصب^(١).

وهذا حديث صحيح، أوضح إشارة، وبياناً، وبلاغاً. حيث: كان ينبذ للنبي صلى الله عليه وسلم الزبيب، فيشربه اليوم والغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة، ثم يأمر به فيسقى الخدم، أو يهراق^(٢).

وعن عائشة أم المؤمنين كنا ننبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سقاء فنأخذ قبضة من تمر أو قبضة من زبيب فنطرحها فيه ثم نصب عليه الماء فننبد غدوة فيشربه عشية وننبده عشية فيشربه غدوة وقال أبو معاوية نهارة فيشربه ليلاً أو ليلاً فيشربه نهارة^(٣).

ولكن الناس ذهبوا مذهباً، وحين أجازوا الانتباز وفوق الثلاثة الأيام؛ ولحديث: إني كنت نهيتكم عن ثلاث: زيارة القبور فزوروها ولتزدكم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا منها ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكراً^(٤).

ويتبدى من هذا الحديث النسخ لما قبله؛ ولأن الشريعة جاءت لمصالح العباد، وحين أمكن ألا يتحول النبيذ إلى مسكر، ولا سيما في أزمنة استحدثت

(١) صحيح مسلم: ٢٠٠٤

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٧١٣

(٣) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٧٥٩

(٤) صحيح النسائي، الألباني: ٥٦٦٩

فيها وسائل التبريد، وما كان منه ألا يمكن تحول النبيذ إلى مسكر، ولئن زاد على الثلاثة الأيام.

ولكن هذا الحديث فيه مسائل عظام:

المسألة الأولى: مشروعية زيارة القبور؛ ولأنها تذكر الآخرة.

المسألة الثانية: جواز أكل لحوم الأضاحي، ومن بعد الثلاثة الأيام.

المسألة الثالثة: جواز الانتباز، ولأكثر من ثلاث؛ وللمصلحة، وجنبا إلى جنب؛ ضمان ألا يتحول النبيذ مسكرا.

ثم إن مذهبنا ومذهب الجمهور جواز شربه ما لم يصر مسكرا، وإن جاوز ثلاثة أيام، وقال أحمد رحمه الله لا يجوز بعد ثلاثة أيام، واحتج له بحديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبذ له من أول الليل فيشربه إذا أصبح يومه ذاك واللييلة التي تجئ والغد واللييلة الأخرى والغد إلى العصر، فإن بقي شئ سقى الخادم أو أمر به فصب) رواه مسلم. وفي رواية لمسلم وغيره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينقع له الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة ثم يأمر به فيسقى أو يهراق) وفي رواية لمسلم (ينبذ له الزبيب في السقاء فيشربه يومه والغد وبعد الغد، فإذا كان مساء الثالثة شربه وسقاه، فإن فضل شئ أهراقه). ودليلنا حديث بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كنت نهيتكم عن الانتباز إلا في سقاء فانتبذوا في كل وعاء ولا تشربوا مسكرا) رواه مسلم، فهذا عام يتناول ما فوق ثلاثة أيام، ولم يثبت نهى في الزيادة، فوجب القول بإباحة ما لم يصر

مسكرا، وإن زاد على الثلاثة، والجواب عن الروايات التي احتج بها لأحمد، أنه ليس فيها دليل على تحريم بعد الثلاثة، بل فيها دليل على أنه ليس بحرام بعد الثلاثة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم (كان يسقيه الخادم)، ولو كان حراما لم يسقه، وإنما معنى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يشربه ما لم يصر مسكرا، فإذا مضت ثلاثة أيام، أو نحوها، امتنع من شربه، ثم إن كان بعد ذلك قد صار مسكرا أمر بإراقته؛ لأنه صار نجسا محرما، ولا يسقيه الخادم؛ لأنه حرام على الخادم، كما هو حرام على غيره، وإن كان لم يصر مسكرا سقاه الخادم، ولا يريقه؛ لأنه حلال، ومال من الأموال المحترمة، ولا يجوز إضاعتها، وإنما ترك صلى الله عليه وسلم شربه، والحالة هذه؛ تنزهها واحتياطاً، كما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الضب وأكلوه بحضرته، وقيل له (أحرام هو) قال (لا ولكن لم يكن بأرض قومي فاجدني أعافه)، وقد حصل مما ذكرناه أن لفظة أو في قوله سقاه الخادم أو أمر به فصب، ليست للشك، ولا للتخيير، بل للتقسيم واختلاف الحال^(١).

بستان السالك في مناقب أنس بن مالك

هذا أنس بن مالك رضي الله تعالى، تلميذ مدرسة نبينا محمد صلى الله وسلم، وخادمه، وحين آلت أمه، وإلا أن يكون للنبي خادماً؛ ولينال شرف الصحبة، والخدمة معاً، ويكأنه، وحين كان ذلك كذلك، وإنما قد تنشأ تنشئة صحابي كريم، ولما كان مضرب المثل في القدوة الحسنة، وحين ألفيناه

(١) المجموع، محي الدين النووي: ج ٢ / ٥٦٥

حاسمًا، ومن معاركه وجهاده، وكما كان إلفًا، ومن خدمته، تاريخًا أبيض،
ناصعًا، شفافًا، رقرقًا، مجيدًا.

وأعالجه في أربع عشرة مسألة.

المسألة الأولى: اللهم أكثر ماله وولده، وأطّل عمره، وأدخله الجنة

هذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وحين كان قد خدمه عشر سنين، وحين لم يعنفه يومًا، ولما لم يوبخه يومًا، وحين قد أكرمه يومه وغده، ولما أن كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم ألين الناس، وأرأف الناس، وأحلم الناس، وأعف الناس، وأرحم الناس، ولا سيما على أولاء مكسوري الخواطر، من الإمام والجواري والرقيق والخدم أيضًا.

وقد مرّ في غير مناسبة ومن هذه السيرة النبوية المباركة، ذكر أنس بن مالك هذا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه قال: ((خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال لي: أفًا قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟ زاد أبو الربيع: ليس مما يصنعه الخادم، ولم يذكر قوله: والله))^(١).

(١) صحيح مسلم: ٢٣٠٩.

المسألة الثانية: إن أنسا غلام كَيْسٍ

وهذه شهادة أبي طلحة، ولأخيه أنس بن مالك، وإنه كيس، فطن، ألمعي، عبقري، وإذ ليس يفري فريه، وإلا مَنْ كان من شاكلة عمر الفاروق رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا شأن الأمة الوسط، وحين كان من وسطيتها، وكذا كان شأنها شهداء على الناس، شهادة الحق، والعدل، والقسط، والنصفة؛ وكما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا حق الإخاء، وهذا موجب الولاء، وهذا معين الوفاء، وهذا مورد النقاء، وحين يتجشم أُمَّةٌ مدحة أخيه؛ شهادة الحق الذي كانوا به يعدلون، أمة كان هذا شأنها، ترقى بأخوتها عنان السماء، وتعلو بوحدتها الآفاق والأنحاء، وتسمق بألفتها كافة الأرجاء، يزكون بعضهم بعضاً، وإلا عن صدق، ويستروحون بعضهم بعضاً، وإلا من نصفة، وإخلاص، ومحبة، وولاء، وإذ كان يصدق فيهم قرآن تنزل؛ ولما كان من قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فعن أنس بن مالك: ((قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن أنسًا غلام كيّس، فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر، ما قال لي شيء صنعت: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا شيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟))^(١)..

وهذه دعوات ثلاث، وحين كان مدار سعادة العبد عليها، من دنياه، ومن أخراه معًا، ولما كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم مستجاب الدعاء؛ ولأنه نبي، ولأنه مطعمه حلال، ولأنه مشربه حلال، ومنه فلا ثمة مانع من إجابته، ولا ثمة حائل من قبول دعوته، ومن لدن ربّ رحيم، رؤوف، كريم، تواب، حلیم، سبحانه أيضًا.

وهذه الثلاث، وحين نقول: إن عليها مدار السعادة الأبدية، وكما أن فيها السعادة الدنيوية؛ ولأنه تعالى قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وهذه سعادة الدنيا، وحين كانت زينة العبيد، ولما تحلوا بمرضاة ربهم الحق المجيد، ولما كان منه إغداقه عليهم من نعمائه، ولما كان منه إهلاله عليهم من عطاياه، ومنحه، ومنّهِ، وأفضاله.

(١) صحيح البخاري: ٢٧٦٨.

المسألة الثالثة: علم نبوة ضافٍ:

وهاتان هما اللتان رآهما أنس، ومن دنياه، ومن حين رُزق من الذرية مائة وستًا، أو مائة وعشرين، وعلى قولين في هذا، وحين كان كَرْمُهُ - أي: حديقة عنبه - تحمل ثمرها، وفي العام مرتين، وهذا علم ضافٍ آخر، ومن أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه ليس ومن كمثل كَرْمٍ يثمر في العام مرتين اثنتين!

وحين كان أنس ينتظر الثالثة؛ وهي دخول الجنة، ونعيمها، وغراسها، وترابها، ومسكها، وعودها، وطيبها، ورحيقها، ونسيمها، وهورها، وأغابها، ولا كعنب حديقته، ولا غير حديقته، وإن ليس يجمعهما، وإلا جامع الأسماء وحسبنا؛ وكما قال عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنه يومًا: "ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء"^(١).

المسألة الرابعة: أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟

وهذه عاطفة أمّ نحو ولدها، وما أعظم عواطف الأمهات نحو أولاء الفلذات! وإن ليس من وصفها بقادر واصف، وإن ليس من نعتها بمطيق ناعت، وحين تضمه، وترعاه، وتلفه، وبخمارها لَفًّا، ومن برد أو طقس غير ملائم، رسالة إلى الأولاد والبنين، وأن برًّا بأبائكم، وهم أولاء الذين ليسوا يقلون، وعن أم أنس شيئًا، ومن رعاية، ومن محبة، ومن حنان، ومن شفقة،

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٣٧٦٩.

ومن رحمة، ألا فارعوا حقوقهم، وألا فأتوهم نصيبهم، ومن برهم غير منقوص!

وقال أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: ((جاءت بي أُمِّي أم أنس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أزرّني بنصف خمارها، وردّني بنصفه، فقالت: يا رسول الله، هذا أنيس ابني، أتيتك به يخدمك فادعُ الله له، فقال: اللهم أَكْثِرْ ماله وولده، قال أنس: فوالله إن مائي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّون على نحو المائة اليوم))^(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ((قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبيٌّ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها))^(٢).

وهذا مثال تقريبي، وهذا بلاغ نبوي، وحين كان من ضرب المثل التقريب، والتفهم، والتدريب، وربط العلائق، وتبيين الحقائق، وضبط الوشائج، وهذا سَنَنٌ دعوي كريم، قَمِنُ بأصحاب الدعوات أن يعملوه، وبأهل الصلاح والهدى أن يفعلوه.

(١) صحيح مسلم: ٢٤٨١.

(٢) صحيح البخاري: ٥٩٩٩.

المسألة الخامسة: يا رسول الله، إن لي خويصة؛

وانظر كيف كانت الأم، وانظر كيف رحمتها، وبولدها، ولربما كان ومن أكثر من نفسها، وحين طلبت الأم ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يخصصه بدعائه، ودون أمه وها هي قد شملها وولدها الدعاء، ومن قبل وفي رسالة ضافية إلينا - معاشر الناس - أن للوالدين حقوقهما، ومن بيان إلينا - معاشر الناس - أن نقف؛ ومن إجلال أمامهما، مطأطئي هامات، وإذ ليس عندهما ومن هامات، ومنحني قامات، وإذ ليس أمامهما ومن قامات.

فعن أنس رضي الله عنه: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم، على أم سليم، فأنته بتمر وسمن، قال: أعيديا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه، فإني صائم ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خويصة، قال: ما هي؟ قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، قال: اللهم ارزقه مالا وولداً، وبارك له فيه، فإني لمن أكثر الأنصار مالا، وحدثني ابنتي أمينة: أنه دفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة))^(١).

(١) صحيح البخاري: ١٩٠٢.

وقوله: ((فإني لَمِنَ أكثر الأنصار مَالاً))؛ الفاء فيها معنى التفسير فإنها تفسر معنى البركة في ماله، واللام في: لمن، للتأكيد ومالاً، نُصب على التمييز، فإن قلت: وقع عند أحمد من رواية ابن أبي عدي أنه لا يملك ذهباً ولا فضة غير خاتمه، وفي رواية ثابت عند أحمد: ((قال أنس: وما أصبح رجل من الأنصار أكثر مني مالاً، قال: يا ثابت وما أملك صفرًا ولا بيضًا إلا خاتمي؟))، قلت: مراده أن ماله كان من غير النقدين، وفي جامع الترمذي، قال أبو العالية: "كان لأنس بستان يحمل في السنة مرتين، وكان فيه ريحان يجيء منه رائحة المسك"، وفي الحلية لأبي نعيم من طريق حفصة بنت سيرين عن أنس، قال: "وإن أرضي لتثمر في السنة مرتين، وما في البلد شيء يثمر مرتين غيرها"^(١).

المسألة السادسة: مسألة دخوله صلى الله عليه وسلم على أم سليم:

ويكأن هذا النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولما كان معصومًا، ولما كان نبيًا رسولًا، ولما كان ليس يمنعه من الزواج مانع، ولما كان هذا الحدث، وفي السنة الرابعة من هجرته صلى الله عليه وسلم، وإذ كان في كنفه وبيوتاته نساؤه ومن أزواجه وجواريه، ومن بعد غزوات شتى وإذ ليس فيه ومن بعد قول لقائل، أو افتراء لمفتري، أو مخادعة لمخادع، أو وثبة لواشب، أو صولة لصائل.

(١) عمدة القاري، العيني: ج ١١ / ٩٩.

وإذ كيف ينظر الناس، ومن منظارهم هذا الضيق، وقد كان الأفق واسعاً جد سعة وحين كان من موجب دخوله صلى الله عليه وسلم عليها رحمتها، وهذا الذي كان يُنتظر أن يُوقف عنده، ويُمدح به، ويُثنى عليه، وفي عالم هكذا رأيته هائجاً، ماجناً، ولينقّب عن ثغرة، وما هو بواجد منها شيئاً وها هو يلوك، ويروغ، ويلغ، وفيما حرم الله تعالى ليلَ نهار، وقد كان من تجرده أن يبحث عن هكذا الأسوة، وأن ينقب عن هكذا القدوة، وإذ ليس بواجد أفضل من هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ ليس من مثال عفة ضافية، وإلا عفة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ ليس من معين رحمة عالية، سامقة، رفيعة، راقية، وإلا عند هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولنخلص، وإلى ما مفاده أن الصيد في ماء عكر، وإنما يصيب عكره صاحبه، وإنما يلزم كدره كادره.

وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم: ((كان لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه إلا على أم سليم، فقليل له في ذلك، قال: أرحمها؛ قُتل أخوها حرام معي))، فبيّن تخصيصها بذلك، فلو كان ثمة علة أخرى لذكرها؛ لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، وهذه العلة مشتركة بينها وبين أختها أم حرام، قال: وليس في الحديث ما يدل على الخلوة بها، فلعله كان ذلك مع ولد أو خادم أو زوج أو تابع، وأيضاً فإن قتل حرام كان يوم بُرّ معونة في صفر سنة أربع، ونزول الحجاب سنة خمس، فلعل دخوله

عليها كان قبل ذلك، وقال القرطبي: "يمكن أن يقال: إنه صلى الله عليه وسلم كان لا تستتر منه النساء؛ لأنه كان معصومًا، بخلاف غيره^(١).

المسألة السابعة: التملح والتلطف من بلاغة التصغير:

وهذه أم سليم، وهذا شأنها مع ولدها، وحين قدّمته إلى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم خويصًا، وخويدمًا وهكذا بتصغير المفردة (خاصة)، وكذا المفردة (خادم)؛ وهكذا تملحًا، وتلطفًا، لا تحقيرًا ولا ذمًا، وحين كان ذلك، ومن بعد، بل وإحالة على عواطف أم شجيرة، حنية، ندية، وعلى ولدها وحين كان ومن أدبها، ويكأنها تقول ذلك؛ تملحًا، وتلطفًا، وأمام هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ لو كانت الأخرى، وإن مقام النبوة ليتأبّاه، وإذ إن عواطف الأمومة لتنكره، وتأنفه، وتبغضه، وتكرهه، وتمقته، وتتحاشاه.

وهذا إلف نبينا صلى الله عليه وسلم ومع خادمه وإذ أخذه صافًا، عن يمينه، إلفًا، وقربًا، وقربة، وحنانًا، ومودة، ورحمة، وهذا الذي ليس يُنتظر منه صلى الله عليه وسلم سواه، وحين كان من خُلّقه، هي تلكم المودة، ولما كان من نعته، هو هذه الرأفة، ولما كان من سمته، هي تلكم الرحمة، وحين أنزل الله تعالى فيه قرآنًا يُتلى، وبهكذا كان وصفه ونعته؛ وحين قال الله

(١) عمدة القاري، العيني: ج ١١ / ٩٩.

تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذا فضل أنس بن مالك، وحين يصفه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن يمينه؛ قربة، وتقريبًا، وهذا من حسن عشرته، وطيب صحبته.

المسألة الثامنة: هذه قيمة الموالى في ديننا؛

وهذا شأن الموالى في هذا الدين، وحين الفضل، وإن وُجد، وإنما وحسبه أن فرقًا واحدًا بين المؤمنين، وهو ذلكم الذي قال عنه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم يومًا، وفي إعلان عام للعالمين، وأن ليس من ديننا فوارق، ولا أنه ليس من ديننا طبقية، وإنما لفارق واحد؛ وهو ذلكم التقوى والعمل الصالح؛ وحين قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وحين قال هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ((يا أيها الناس، إن ربكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم))^(١).

فعن أنس بن مالك: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا، وما هو إلا أنا، وأمي، وأم حرام خالتي، فقال: قوموا فلاصلي بكم، في غير وقت صلاة، فصلى بنا، فقال رجل لثابت: أين جعل أنسًا منه؟ قال:

(١) غاية المرام، الألباني: ٣١٣، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

جعله على يمينه، ثم دعا لنا - أهل البيت - بكل خير من خير الدنيا والآخرة، فقالت أمي: يا رسول الله، خويدمك، ادعُ الله له، قال: فدعا لي بكل خير، وكان في آخر ما دعا لي به أن قال: اللهم أَكْثِرْ ماله وولده، وبارك له فيه))^(١).

وعن أنس، قال: ((دعا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم أَكْثِرْ ماله وولده، وَأَطِلْ حياته، فإله أَكْثَرَ مالي حتى إن كَرَمًا لي لَتَحْمِلَ في السنة مرتين، ووُلدَ لصلبي مائة وستة))^(٢).

المسألة التاسعة: هذه بلاغة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

وقف البلغاء عند قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذُهل الفصحاء عن حديثه صلى الله عليه وسلم، وحين دعا لأنس بن مالك، ومن تنكير خير الدنيا، ومن تنكير خير الآخرة أيضًا، وحين كان ذلكم لكل خير شاملًا، عامًّا، سحًّا، غدقًا، مجللًا؛ ولأنه من جوامع كلم هذا النبي، الأمي، العربي، القرشي، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أُوتِيَ جوامع الكلم، ومن حيث كان، ومن جوامعه اشتماله على التلخيص، وعلى البيان، وبلاغته، ومن مقتضى الحال وإفادته، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ((بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وبيننا أنا نائم رأيتني أُتيت بمفاتيح

(١) صحيح مسلم: ٦٦٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ٣ / ٣٩٩، وأخرجه ابن عساكر ٣ / ٨٠ ب، وأخرجه بخوه البخاري في الأدب المفرد (٦٥٣)، وابن سعد ٧ / ١٩ من طريقين عن سنان بن ربيعة، عن أنس، وسنده حسن.

خزائن الأرض فُوُضعت في يدي، قال أبو هريرة: فقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تلغثونها، أو ترغثونها، أو كلمة تشبهها))^(١).

فعن أنس بن مالك: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم على أم سليم، فأنته بتمر وسمن، قال: أعيديا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه؛ فإني صائم، ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خويصة، قال: ما هي؟ قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به؛ قال: اللهم ارزقه مالا وولداً، وبارك له فيه؛ فإني لمن أكثر الأنصار مالا، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دُفن لصلبي مقدم حجاج البصرة بضع وعشرون ومائة))^(٢).

قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]: "فإن قلت: لم وحد ساجر ولم يجمع؟ قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جُمع لُخيل أن المقصود هو العدد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه: ٦٩]؛ أي هذا الجنس، فإن قلت: فلم نكر أولاً وعرف ثانياً؟ قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيهه في نفسه؛ كقول العجاج: في سعي دنا طالما قد مدت، وفي حديث عمر رضي الله عنه: ((لا في أمر دنيا ولا

(١) صحيح البخاري: ٧٢٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ١٩٨٢.

في أمر آخرة))؛ المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إنما صنعوا كيد سحري، وفي سعي دنيوي، وأمر دنيوي وآخرى" (١).

وقال الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى: "لم نكر أولاً ثم عرّف ثانياً، الجواب: كأنه قال: هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه، ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ" (٢).

المسألة العاشرة: طرفه وملاحه:

وحيث كان من أنس بن مالك هذا، وقد كان صغيراً، وحيث كان بدء خدمته لنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي العاشرة من عمره رضي الله تعالى عنه، وإلا أنه كان نحريراً، عبقرياً، ألعياً، ولما كان من أمره أن تبعد، وحيث كان من خلقه أن تنكت، ومن ابتكاره موقفاً مضحكاً، وحيث أضحك منه النبي صلى الله عليه وسلم، وأضحك سنيه وفاه معه أيضاً، ولندعه يروي لنا روايته، ونقف بأنفسنا عن طرفته، ونكتته، وملاحته، وفكاهته.

وهذا درس في التربية العملية، وحيث يتابع الولي مولاه، وحيث يراف به، ويمنحه من عطفه، ومودته، ولطفه، وحنانه، ما يجعله وساماً على صدور العارفين، وما يستكنه ذلك، ومن قاموس المحبين، والسالكين.

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري: ج ٢ / ٥٤٥.

(٢) تفسير الرازي، الرازي: ج ٢٢ / ٨٥.

فعن أنس بن مالك: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خُلُقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمرَ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟ قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله))^(١).

وعلى أن هذا خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين لم ينادِ أنسًا لا بالخادم صفة ولا بالخوادم نعتًا وتصغيرًا، وإنما وبتصغير اسمه، وحسب أدب نبي، وحلم رسول، وخُلُق أمين الله تعالى في أرضه.

المسألة الحادية عشرة: لماذا بكى أنس بن مالك؟

وهذا قول أنس بن مالك وهو صحابي كريم، ولئن كان شأن الصلاة عظيمًا، وحيث كانت ركن ديننا الثاني، وعموده، ولما كان الحفاظ عليها دينًا، يدين به العبد أولًا، ولما كان من موجبها أنها مكفرات، ماحيات للذنوب، والآثام، ومميطات لأذى المعاصي، والخطايا، والرزايا، وبه كان العبيد، وحين يتلمسون بها رضا ربهم سبحانه، وإنما كان عود ذلك إليهم، وخيره عامًا عليهم.

(١) صحيح مسلم: ٢٣١٠.

وإلا أن ترك هذه الصلاة، أو حتى تأخيرها عن وقتها، وهو الذي آلم أنسًا، وحين لم يجد منها ما كان عليه الأولون، ومن إقامتها، وعلى وجهها، ركوعًا، وسجودًا، وقيامًا، وقعودًا، وقراءة، وتلاوة، واستفتاحًا، وفي رسالة وإلى أمثالنا الضعفاء، أن نرعاها، حق رعايتها، وأن نوليها صدق ولايتها، ومن وقتها، ومن إحسانها، ومن إتقانها؛ وحين كانت هي صلة العبد بربه، وأنسه، وأمنه، ورخاؤه، وسعاده، وفوزه، وسماحته، وطمأنينته، وسلمه، وراحته، وإلفه وانسجامه، وهداه، وسناه، وضياه، ووقاره، وهيبته، وفلاحه، وسماحته.

عن الزهري: "دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئًا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيّعت" (١).

المسألة الثانية عشرة: شهوده الوقائع:

وعلى أن أنس بن مالك رضي الله تعالى؛ ولاعتبار صغر سنه، ومنه لم يكن ليتمكن من شهود كل من غزوتي بدر وأحد، وإن كان قد شارك في غزوات آخر، ولما بلغ من العمر ما يسمح له بذلك، ومن شاكلة عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وحين رده النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ولما كان قد قبله وأجازه يوم الخندق، وحين بلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وعلى ما أنف ذكره، ومن هذه السيرة النبوية المباركة في حينه.

(١) صحيح البخاري: ٥٣٠.

ويكأن أنسًا شارك في حروب الردة أيضًا، وإذ كان سيفًا من سيوف الله تعالى، مصلتًا، ومشرعًا عليهم، في وقت حاجة الصف، وإلى أمثال تربية مائدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

والمشهور: أنه لم يشهد بدرًا لصغره، ولم يشهد أحدًا أيضًا لذلك، وشهد الحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، والفتح، وحنينًا، والطائف، وما بعد ذلك^(١).

المسألة الثالثة عشرة: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه

وسلم من ابن أم سليم:

وعلى أن هذا هو التتبع، وعلى أن هذا هو الاستئان والافتداء، وحين كانت الصلاة دينًا، ونظامًا، وعهدًا، وعقدًا لهذا الصحابي الكريم، أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه، وحين يلتقي قوله ومع عمله، ولما كانت هذه هي شهادات الناس عنه، وعن صلاته، وكيف أنها كانت أشبه بصلاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن حضره، ومن سفره أيضًا.

وعلى أن هذا أنس بن مالك نفسه، وحين شهد شهادة الحق، وفي حق عمر بن عبدالعزيز، رضي الله تعالى عنه، وحين كان أشبه صلاة بصلاة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وها هو عمر بن عبدالعزيز لم يَرَهُ، ويكأن هذا السنن قد تواتر، ولا سيما ونحن أمام مثل أنس بن مالك، وحين قد كبر

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٥٣.

سنه، ليشيع الخير، والسنن، والهدي، والافتداء بين الناس، وليكونوا على مثله هدي نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكن هذا، ومن جانب آخر، وإنما ينظر إليه، وكيف كان الناس، وهكذا كانت قلوبهم، أخوة في الله تعالى، سامية، عالية، سامقة، وحين يكون العبد، وهكذا من الإلف، والسماحة.

وأولاء قوم قد نزع الله تعالى ما في قلوبهم من غلٍّ، وأولاء أناس كانوا على طراز آخر، ويكأن الأمل معقود على معاشر الأتباع، أن يحذوا حذوهم، وأن يسارعوا خطوهم.

وأنت خير، وكيف كان مسلك الأنصار، الأطهار، الأخيار، الأبرار، وحين قد تنزل القرآن الحكيم، ومن قولهم، وعلى أثرهم، ومن عقدهم، وعلى نص دعائهم؛ وحين قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فعن أنس بن مالك: "ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر بن عبدالعزيز" (١).

وأما عن هذا الشبه، فلم يتركوه، بل بينوه، وفصلوه، وأيضاً سنناً حسناً، واقتداءً، واهتداءً.

(١) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري: ٧ / ٢٩٧، خلاصة حكم المحدث: رواه ثقات.

فعن أبي هريرة: "ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله من فلان، فصلينا وراء ذلك الإنسان وكان يطيل الأوليين من الظهر، ويخفف في الآخرين، ويخفف في العصر، ويقرأ في المغرب بقصار المفصل، ويقرأ في العشاء بالشمس وضحاها وأشباهها، ويقرأ في الصباح، بسورتين طويلتين"^(١).

وعن أنس بن مالك: "ما رأيت أحدًا أشبه صلاة بصلاة رسول الله من هذا الفتى - يعني: عمر بن عبدالعزيز - فحزرنّا في ركوعه عشر تسبيحات، وفي سجوده عشر تسبيحات"^(٢).

وعن أبي الدرداء قال: "ما رأيت أحدًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من أميركم هذا - يعني معاوية"^(٣).

المسألة الرابعة عشرة: مرويّات أنس بن مالك؛

وهذا باب واسع ويكفيّا فيه أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قد بَوَّبَ في مسنده مسندًا آخر لأنس رضي الله تعالى، وحين بلغت تسعة وسبعين حديثًا، رواها هذا الكريم، الخوידم، والخويص أنس هذا، وفيه من الأحاديث ما يعد مسندًا وحده وبحق، وهو جدير بالعناية، والدراسة، والتحقيق، والشرح، والبيان، والتخريج، عملًا مستقلًا خالصًا.

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٩٨٢.

(٢) ضعيف النسائي، الألباني: ١١٣٤.

(٣) جمع المفقود الكثير من معجم الطبراني الكبير، البيروني: حديث رقم: ١٣٢.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "مسند أنس بن مالك (الحديث ١٣١٢١ - ١٣٢٠٠)"^(١).

فمن وجدته منهم قد أكل في أول يومه فليصم آخره

هذا حكم من أحكام صيام يوم عاشوراء، ولعله ومن خصوصيات هذا اليوم، وحين جاءت السنة بصيامه، ومن وجهين:

الوجه الأول: وهو ذلكم الأمر بصيامه. وهذا أمر مختلف عن صيام التطوع، وحين لم يكن مأمورا به، وإن جاء الشرع الكريم المطهر، حاثا عليه، وندبا إليه.

الوجه الثاني: وهو ذلكم، وحين كان اليوم يوم عاشوراء، وقد أكل أحدهم أول يومه، وإنما جاز له أن يتم صومه، والحال أنه ولربما لم يكن يعلم أن ذلك اليوم هو يوم عاشوراء. أو أنه لم لينتوي صيامه ابتداء.

الوجه الثالث: وهاتان الخصيستان، وإنما يعلم منهما فضل يوم عاشوراء. وكونه جاء سببا ومنحة من الله تعالى لتكفير السنة التي قبله. وحين روى أبو قتادة الحارث بن ربعي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صومه، قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديننا، وبمحمد رسولا، وببيعتنا بيعة. قال: فسئل عن صيام الدهر، فقال: لا صام ولا أفطر، أو ما صام وما أفطر. قال: فسئل عن صوم يومين وإفطار

(١) مسند أحمد بن حنبل: المجلد الثالث.

يوم، قال: ومن يطيق ذلك؟! قال: وسئل عن صوم يوم وإفطار يومين، قال: ليت أن الله قوانا لذلك. قال: وسئل عن صوم يوم وإفطار يوم، قال: ذاك صوم أخي داود عليه السلام. قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين، قال: ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت، أو أنزل علي فيه. قال: فقال: صوم ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان؛ صوم الدهر. قال: وسئل عن صوم يوم عرفة، فقال: يكفر السنة الماضية والباقية. قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء، فقال: يكفر السنة الماضية^(١).

(١) صحيح مسلم: ١١٦٢

هند بن أسماء بن حارثة بن هند الأسلمي

وعن هند بن أسماء قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومي من أسلم فقال مر قومك فليصوموا هذا اليوم يوم عاشوراء فمن وجدته منهم قد أكل في أول يومه فليصم آخره^(١).

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٣ / ٤٨٤

بكير بن شداخ الليثي

اللهم صدق قوله ، ولقه الظفر

هذا علم آخر من أعلام نبوة هذا النبي العربي الأمي القرشي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين كان قد دعا لهذا الصحابي الكريم بكير بن شداخ الليثي، وحين كان خادما له.

وعلى أن بكيرا هذا كان صادقا، وإنما كان صدقه، وفي بيت النبوة، وأيما صدق، بل صدق شأنه كله، وإنما جاءت هذه الواقعة على صدقه برهانا، وعلى إخلاصه دليلا وبيانا. وحين كان يدخل على أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومن صغره. ويكأنه وحين أحتمل أبلغ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وليصير إلى حكم آخر، وهو عدم الدخول على النساء؛ ومن أجل بلوغه ذلك.

وهذا بيان عظيم، ويفاد منه عدم دخول الرجال البالغين على النساء؛ ولأنه ذلك يحرك فيهم رغبتهم فيهن، وهذه فطرة وجبلة، والقول بغيره خروج عن هذه الفطرة، وهو ما لا يتسنى لعاقل متجرد تجاوزه.

وهذا الذي جعل النبي محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو له؛ ولصدقه، ولأمانته، وإخلاصه أيضا، أمة كان هذا سبيلها، تخاف ربها، وتخشى بارئها.

ولما كان بكير هذا أمينا، جد أمين؛ ومن إخباره الصدق، ومن عمله الغيرة على محارم الله تعالى، ويوم استخلفه أحد الغزاة المسلمين على أهله،

ولما كان من أمر اليهودي خيانة بيت مسلم، الأمر الذي جعل بكيرا هذا يقتله؛ ولأنه قد انتهك حرمة الله تعالى، ولأنه كان قد اقترف جريمة الزنا، ومن اعترافه هو. وهذا حكم ضاف أيضا، وحين ساءله عمر الفاروق على فعله هذا، ومنه بان حجة، وظهرت حكمته، واتضحت براءته. عملا صحيحا جائزا.

ومرة أخرى، فإن هذا الذي حدث، وإنما كان من بركات دعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم لبكير بن شداخ هذا، وحين قال صلى الله عليه وسلم قوله هذا: اللهم صدق قوله، ولقه الظفر.

فعن عبد الملك بن يعلى الليثي أن بكير بن شداخ الليثي كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، فاحتلم فأعلم بذلك رسول الله وقال: إني كنت أدخل على أهلك وقد احتلمت الآن يا رسول الله، فقال " اللهم صدق قوله، ولقه الظفر " فلما كان في زمان عمر قتل رجل من اليهود، فقام عمر خطيبا فقال: أنشد الله رجلا عنده من ذلك علم؟ فقام بكير فقال: أنا قتلته يا أمير المؤمنين. فقال عمر بوأ بدمه فأين المخرج؟ فقال يا أمير المؤمنين إن رجلا من الغزاة استخلفني على أهله، فجئت فإذا هذا اليهودي عند امرأته، وهو يقول:

وأشعث غره الاسلام مني	خلوت بعمره ليل التمام
أبيت على ترائبها ويمسي	على جرد الأعنة والحزام
كأن مجامع الربلات منها	فئام ينهضون إلى فئام

قال فصدق عمر قوله وأبطل دم اليهودي بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. لبكير بما تقدم^(١).

والربلة: بالفتح، ويحرك، قال الأصمعي: التحريك أفصح، والجمع الربلات: كل لحمه غليظة، أو هي باطن الفخذ. وقال ثعلب: الربلات: أصول الأفخاذ، وأنشد:

كأن مجامع الربلات منها * فئام ينهضون إلى فئام. أو هي: ما حول الضرع والحياء من باطن الفخذ^(٢).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٥٥

(٢) تاج العروس، الزبيدي: ج ١٤ / ٢٦٠

بلال بن أبي رباح

وكان لا يغير شيبه رضي الله عنه

هذا وصف لبلال بن أبي رباح، وابن أمه حمامة، وحين كان يدعي لأمه حيناً، أو لأبيه يوماً، وجوازا لذلك قد علم.

وهذا الوصف، وإنما وقع اختياره، وبياناً لجواز الأمرين معاً، وإما أن يغير المسلم من شيبته؛ ولحديث جابر بن عبد الله: أتى بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غيروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد^(١). وإنما اختلفوا في السواد منه.

وإما ألا يغير من شيبه ولحديث أبي عامر الأنصاري: رأيت أبا بكر رضي الله عنه يغير بالحناء والكتم، ورأيت عمر رضي الله عنه لا يغير شيبه بشيء، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من شاب شيبه في الإسلام، فهي له نور يوم القيامة، فلا أحب أن أغير شيبتي^(٢)

وإنما كان فعل الصحابييين أبي بكر وعمر، ومن قولنا بجواز كل من الأمرين معاً. ولأنهما صحابييان عايشا نبيهما محمداً صلى الله عليه وسلم، وبه دل على مشروعية تغيير الشيب، وكما دل على مشروعية عدم تغييره أيضاً.

(١) صحيح مسلم: ٢١٠٢

(٢) تخریج مشکل الآثار شعيب الأرنؤوط: ٣٦٩٢

وبه يحمل الأمر أو النهي وعلى أنهما ليسا للوجوب بل للجواز ومن حيث صح كل من الدليلين في المسألة، ولم يثبت نسخ لأحدهما فكان الجمع، وهذه طريقته.

قال مكحول: حدثني من رأى بلال قال: كان شديد الأدمة، نحيفا، أجناً، له شعر كثير، وكان لا يغير شيبه رضي الله عنه^(١).

وقال ثعلب: جنئ عليه: أكب عليه يكلمه. وجنئ الرجل جنأ، وهو أجناً بين الجنأ: أشرف كاهله على صدره، وفي الصحاح: رجل أجناً بين الجنأ، أي أحذب الظهر^(٢).

وجنئ كفرح: أشرف كاهله على صدره، فهو أجناً بين الجنأ، قاله الليث، وقيل: هو ميل في الظهر واحدياب، وهي جنواء، قال الأصمعي: إذا كان مستقيم الظهر ثم أصابه جنأ فهو أجناً، وأنكر الليث أن يكون الجنأ الاحدياب، وعن أبي عمرو رجل أجناً وأدناً، مهموزان بمعنى الأقعس، وهو الذي في صدره انكباب إلى ظهره^(٣).

ولكن تاريخ بلال هذا، لم يكن وإلا من السعة والفضفاض، وبما كان يليق به تاريخاً عطراً، نسيماً، زهراً، ورداً. وحين كان مؤذناً لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان هو هذا الذي جاهد في الله تعالى حق جهاده، حتى أتاه اليقين، وهو هذا الذي أخذ بالعزيمة، وإذ كانت معه رخصته،

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤ / ٦٥٧

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ١ / ٥٠

(٣) تاج العروس، الزبيدي: ج ١ / ١٣٠

ويوم أن جره صبيان الكفار على الحصى والقيظ ظله! وإن اخذوا يطوفون به؛ عبداً كان قد أسلم! وإن ما ضعف وما استكان، بل وحد، وصابر، وثابر، وجالد. وها نحن ويكأننا نسمعه، وهو إذ يقول: أحد أحد، وفي ترنيمة توحيد عزت، وفي مجاهدة فيه تعالى ندت.

وهو أول سبعة في الإسلام، سبقا له كان، وكما قال عبد الله بن مسعود: كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فممنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فممنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد^(١).

وهو هذا الذي صعد للأذان، يوم مات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن يجهش ويبكي، وحين وصل إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله! وفي ولاء لهذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومن عشرة لهذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومن صحبة لهذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الذي منه، وإن هو إلا طبع من طباع أولاء الأوفياء، الأتقياء، الأنقياء، الفضلاء، الأذكياء أيضاً.

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٢٢

وها هو بلال، وحين اشتراه هذا الشيخ أبو بكر، ومن أمية بن خلف؛
ولأنه وحين أسلم كان لديه مولى، ولم ينج، بل تعرض لأبشع تعذيب كان قد
عرفته البشرية، ومن يومه هذا، وحين تتلبس لباس الكبر، والصلف، والعنوة،
والجبروت، والسفه، والغفلة، والحيد، والكيد أيضا، ولثلة من المؤمنين، وأبوا
إلا أن يقولوا ربنا الله.

ويكأنه كان منفقاً، وإذ جرب العوز، وإذ خالج الفقر، وإذ عالج
الحاجة، وها هو إذ يبذل، ويكأن قد شاكل الفقر والحاجة والمسكنة، وحين
لم يجد منه بدا، وإلا أن ينفق، ومن سعته، وكما قال الله تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو
سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۗ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا
يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:
٧].

وها هو بلال هذا، وحين غادر المدينة النبوية، وإلا حيث قوافل الفتح
المبين، ويكأنني به لم يطب له بها مقام، وحين قد غادرها هذا النبي محمد
صلى الله عليه وسلم.

وهو هذا بلال وقد نزل فيه، وإخوانه الأبرار الكرام الحنفاء قرآن يتلى،
وحين صابروا، وحين أبي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أن يطرد أحدا
منهم، ومن طلب الكفار ذلك.

وعن سعد بن أبي وقاص: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة
نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرده هؤلاء؛ لا
يجترئون علينا. قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل،

وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} [الأنعام: ٥٢]^(١).

لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر لا قشر عليه ثم يرزقه الله

هذا حديث اليقين، وهذا حديث الرعاية الربانية، لأولاء العبيد، وهذا يقين نبي بربه تعالى، وهذا إكلاء رب رحيم بعبيده، وحين قد كفل لكل نفس رزقها. وكما جاء من حديث حذيفة بن اليمان: هلموا إلي. فأقبلوا إليه فجلسوا، فقال: هذا رسول رب العالمين؛ جبريل نفث في روعي: إنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله؛ وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته^(٢).

وهذه مدرسة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين قد قال يوما هذا الحديث، الذي بين أيدينا. وها هو قد أكد هذا المنهج، وأثبتته، ورسخه، ووضع قواعده، ومن كل مناسبة مواتية؛ وتعلima للناس، وربطاً لهم بربهم الحق المبين سبحانه وتعالى؛ ولأن النفوس يمكن أن يطرا عليها طارئ،

(١) صحيح مسلم: ٢٤١٣

(٢) صحيح الترغيب، الألباني: ١٧٠٢

فيصيبها لأواؤها، وحين وجب ردها وإلى حظيرة إيمانها بربها، ويقينها بخالقها وبارئها سبحانه وتعالى.

وكذا وحين قال يوما آخر، وكما روى عبدالله بن مسعود: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق المصدوق- قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة^(١).

وعلى أنه أنف سياق آخر، وحين أدلى لنا هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم دلوا آخر أيضا، وحين رأينا وكيف كان الدعاء، وكسبب شرعي، ومن موجبات زيادة الخيرات، ومنها هذه الأرزاق، التي يتعب الناس فيها أنفسهم، وها هم أولاء بين أيديهم رفع أكفهم إلى ربهم، وإنه سبحانه وقد وعد وأوجب ألا يردّها صفرا. وشرط العبودية واليقين، ومجانبة الرذائل والخطايا والآثام، وإن الله تعالى على رزق العبيد لقدير سبحانه.

وعلى أن أولاء العبيد أيضا، وحين جاء البر، ومن موجب زيادة رزقهم، أسبابا شرعا الله تعالى للعبيد، وأن يتعلقوا بحبل ربهم، آناء الليل وأطراف

(١) صحيح البخاري: ٣٢٠٨

النهار، وها هم يجيبهم ربهم سبحانه، ولو وقفوا جميعا في صعيد واحد! ولأعطى كل منهم مسأله؛ جودا منه تعالى، وكرما، وفضلا، ومنة.

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدعاء يرد القضاء، وإن البر يزيد في الرزق، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه^(١).

عن حبة بن خالد وسواء بن خالد الأسدي: لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر لا قشر عليه ثم يرزقه الله^(٢).

ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا

وعلى أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين قد أمر أمته أن يتعلموا الرمي؛ رياضة حسنة، وتقوية؛ واستعدادا لوقت النزال، وإن دعوا، فيكونون على أهبة استعدادهم.

وحين روى ذلك هند هذا، ولما كنا قد وقفنا على كم كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم قريبا من أصحابه متألفا إياهم سننا وهديا حسنا أيضا.

عن هند بن حارثة، قال: "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أسلم يتناضلون فقال: " ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا " فقال: " ارموا وأنا مع ابن الأدرع "، فطرحوا نبالهم، وقالوا:

(١) الجامع الصغير، السيوطي: ٤٢٤٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) الجامع الصغير، السيوطي: ٩٨٥٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

من كنت معه يا رسول الله غلب، فقال: " ارموا وأنا معكم كلكم "،
فانقلبوا على السواء" (١).

وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ومن وجه آخر.

عن سلمة بن الأكوع: مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من
أسلم ينتضلون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا بني
إسماعيل، فإن أباكم كان راميا ارموا، وأنا مع بني فلان قال: فأمسك
أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لكم
لا ترمون. فقالوا: يا رسول الله نرمي وأنت معهم، قال: ارموا وأنا
معكم كلكم (٢).

إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء

وهذا يسر هذا الدين، وهذا حلم هذا الرسول النبي العربي القرشي
الأمين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما يسر هذا الدين: وإنما؛ ولما رفع القلم عن ثلاث، وكان منهم النائم،
ولأنه؛ ومن سنن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكما روى أبو قتادة
الحارث بن ربعي أنه: ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم نومهم عن الصلاة

(١) معرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني.

(٢) صحيح البخاري: ٣٣٧٣

فقال إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة فصل الصلاة لوقتها فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها^(١).

وكذا، وحين قال رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق^(٢).

رفع القلم هذا كناية عن رفع التكليف:

وهذه من بلاغة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولأن الذي وضع هذا الحكم هو الله تعالى ابتداء، وإنما جاءنا منه تعالى، وبالتالي جاء الفعل مبنيًا للمجهول، وللعلم بالفاعل أولاً، وتنزيهاً له سبحانه، وهذه بلاغة ومن حق هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً.

قال السيوطي نقلاً عن السبكي وقوله رفع القلم هل هو حقيقة أو مجاز فيه احتمالان:

الأول: وهو المنقول المشهور أنه مجاز لم يرد فيه حقيقة القلم ولا الرفع وإنما هو كناية عن عدم التكليف، ووجه الكناية فيه أن التكليف يلزم منه الكتابة كقوله: * (كتب عليكم الصيام) * وغير ذلك، ويلزم من الكتابة القلم لأنه آلة الكتابة فالقلم لازم للتكليف، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء ملزومه، فلذلك كنى بنفي القلم عن نفي الكتابة وهي من أحسن الكنايات وأتى بلفظ الرفع إشعاراً بأن التكليف لازم لبني آدم إلا هؤلاء

(١) عارضة الأحوذى، ابن العربي: ٢٤٤/١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) صحيح سنن النسائي: ٣٤٣٢.

الثلاثة وأن صفة الوضع ثابت للقلم لا ينفك عنه عن غير الثلاثة موضوعا عليه.

والاحتمال الثاني: أن يراد حقيقة القلم الذي ورد فيه الحديث " أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ". فأفعال العباد كلها حسننها وسيئها يجري به ذلك القلم ويكتبه حقيقة، وثواب الطاعات وعقاب السيئات يكتبه حقيقة، وقد خلق الله ذلك وأمر بكتبه وصار موضوعا على اللوح المحفوظ ليكتب ذلك فيه جاريا إلى يوم القيامة. وقد كتب ذلك وفرغ منه وحفظ. وفعل الصبي والمجنون والنائم لا إثم فيه فلا يكتب القلم إثمهم ولا التكليف به، فحكم الله بأن القلم لا يكتب ذلك من بين سائر الأشياء رفع للقلم الموضوع للكتابة والرفع فعل الله تعالى فالرفع نفسه حقيقة والمجاز في شئ واحد وهو أن القلم لم يكن موضوعا على هؤلاء الثلاثة إلا بالقوة والنهي لأن يكتب ما صدر منهم، فسمى منعه من ذلك رفعا، فمن هذا الوجه يشارك هذا الاحتمال الأول وفيما قبله يفارقه^(١).

وعليه وعند رفع التكليف، وبه رفع الإثم والعقاب، ولكن الضمان فليس يلزم منه رفعه. ولأنه من عمل الولي.

وإنما كان رفع الإثم هنا مشمولا، ومن مذهب الناس في خطاب الوضع، لاختطاب التكليف.

وبه يكون رفع الإثم متضمنا جهة ترك واجب، أو جهة فعل محرم.

(١) عون المعبود، العظيم آبادي: ج ١٢ / ٤٨

إن العلة في رفع التكليف عن الصبي والنائم والمجنون هي: عدم القصد.

وفعل الصبي والمجنون والنائم لا إثم فيه فلا يكتب القلم إنمه ولا التكليف به، فحكم الله بأن القلم لا يكتب ذلك من بين سائر الأشياء^(١).

إن المجنون والمعتوه والغافل لا يقضون العبادات الفائتة مطلقا. وبه اختلف عن النائم، وبرروا ذلك أن النائم إذا نبه انتبه، وخلاف أولاء.

والفرق بينه وبين المغمى عليه: أنه ثابت العقل؛ لأنه إذا نبه انتبه بخلافه، وفي النوم وجه أنه يضر كالإغماء. وفي الإغماء وجه: أنه لا يضر كالنوم، ولا خلاف في الجنون، وأما غير المستغرق من الثلاثة، فالنوم لا يضر بالإجماع^(٢).

وعلى أنه يشرع للمسلم صلاة الوتر، وحين مر وقتها، أو نام عنها، أو نسيها أيضا، وبرهان قيمتها، وأهميتها، ومن ديننا؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم حث عليها، وكما حث على غيرها أيضا. ولعموم حديث جابر بن عبد الله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته، حيث توجهت فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة^(٣).

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود أبي الطيب محمد شمس الحق/العظيم آبادي، ج ٦/ ١١٩

(٢) كتاب الأشباه والنظائر، السيوطي: ٢١٣

(٣) صحيح البخاري: ٤٠٠

فعن أبي سعيد الخدري: من نام عن وتره، أو نسيه، فليصله إذا ذكره^(١).

وأيضا، وحين كانت هذه هيئة الصلاة، ولمن فاتته، وعلى وجهها المشروع أيضا، وأن تصلى سنته، ثم يقام لفريضته.

وأما عن حلم هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين لم يعنف، أو يؤسف، أو يؤفف بلالا رضي الله تعالى عنه، وحين كان هو حارسهم ليلتهم تلك، ولما أخذه نومه، وكما قد أخذ الناس أيضا.

وفيه أن النوم مودة صغرى؛ ومن قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]. ولأن الروح تعود من بعد نوم، فكان أشبه بالموت.

وفيه أهمية الصلاة، ودلالة حرص الجمع عليها.

وفيه مشروعية القيام على القوم حراسة.

وعلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل في الموضع الذي غفلوا فيه عن الصلاة، ومن حيث ركبوا، ثم ساروا قليلا، ثم نزلوا فأذن لهم بلال فصلوا النافلة ثم أقام فصلى بهم لنبي محمد صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح الفاتئة.

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٦٥٦٢

فعن أبي قتادة الحارث بن ربعي: سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة، فقال: بعض القوم: لو عرست بنا يا رسول الله، قال: أخاف أن تناموا عن الصلاة قال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم، وقد طلع حاجب الشمس، فقال: يا بلال، أين ما قلت؟ قال: ما ألقيت علي نومة مثلها قط، قال: إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء، يا بلال، قم فأذن بالناس بالصلاة فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابتضت، قام فصلى^(١).

خادم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ربيعة بن كعب

فأعني على نفسك بكثرة السجود

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لخادمه ربيعة بن كعب، رضي الله تعالى عنه، وحين سأله أن يرافقه في الجنة، وإذ كان هذا هو العوض، ولئن جاز التعبير، عملا صالحا، وإذ وكيف يمرغ العبد أنفه في التراب، وإلا يجد ربا، مجيبا سؤله، متقبلا دعاءه، مفرجا كربه، كاشفا غمه، مزيلا همه، ومبدله السيئات حسنات، وكان الله غفورا رحيمًا؟

ويبدو أن هذه هيئة السجود، وإنا كانت مختارة قدرا مقدورا، ولأن فيها من أوجه التواضع لله تعالى والانكسار، ما يشي أن يكون هذا العبد منطرحا بين يدي مولاه، مستسلما له، واقفا بين يديه، مستسلما خاضعا، خاشعا، متذللا، صلاته، وقيامه، وركوعه.

ويكأن هذا الصلاة، ولما كان السجود بعضها، وإلا أنه قد أفرد ببيان، لأهميته وقيمته، وكل صلاتنا ذات قيمة وأهمية. وإنما كانت كلها وقفات تعبدية، وهي بمثابة عقد العبودية، ومن جانب العبد، ومعتزفا من خلالها بربوبية هذا الرب، الكريم، الحليم، العفو الحنان، المنان، وألوهيته، وسلطانه، وأمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، وأسمائه، وصفاته، وإنما كانت كذلك، وإلا أنها أيضا، ومن أولى موجبات المغفرة، والقرب، ولولوج العبد

ساحة العبودية، والمحبة، والتذلل، لرب كريم، رحيم، هو رحمن الدنيا والآخرة، ورحيمهما.

بيد أن هذا هو حرص أولاء الصحابة الأخيار، وحين كان ذا هو حرصهم على الخير، وبذله، ولما كان ذا هو دأبهم في التتبع، بعيدا عن مظان الابتداء، وإلا كان النفر قد راح يمّنة، أو قد راح يسرة، وها هو يبتدع من الدين، ما لم يأذنه به الله تعالى، ومن زعم التقرب والعبودية! وإنما كانت هذه العبودية الحقّة، وإنما من دليل وبرهان، وإذ ليس يملك هذا الدليل، وإذ ليس أحد منوطا به هذا البرهان، وإلا رب السماوات والأرض، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهما النجاة والفكاك، من عوالم البدعة والإشراك.

وعلى أن هذا هو تواضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان ملبيا؛ ومن تواضع، لرغبة ربيعة بن كعب الأسلمي، في الدعاء له. ومن حيث، وقد كان هذا هو يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه تعالى، وأنه تعالى مجيب لمن دعاه، ومن مقتضى وعده سبحانه، وحين قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فعن ربيعة بن كعب الأسلمي كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل فقلت: أسألك

مرافقتك في الجنة. قال: أو غير ذلك قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود^(١).

«سبحان الله وبحمده»

وعلى أن هذا هو ربيعة بن كعب أيضاً، ولما كان للرسول صلى الله عليه وسلم خادماً، ونهاره تعبداً أيضاً، وإن مقابل أجر كان يتقاضاه، ولكنه ومع ذلك فإنه ليس مانعاً من اهتدائه، واستنائه، ومجازاته، على إحسانه أيضاً، ولما كان شرفاً أن يقوم العبد في خدمة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين كان من شأن ربيعة بن كعب هذا هو التتبع أيضاً، وحين دخل النبي محمد صلى الله عليه وسلم بيته، ومن بعد عمل النهار كله، طاعة لله تعالى، ودعوة إليه، وتنظيماً لحركة الدولة الإسلامية الناشئة يومه ذاك. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا رأينا ربيعة ينقل لنا ما رآه، وهو هذا التسبيح بحمد الله تعالى، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً، وإذا كان اختيار هذا التسبيح والتحميد، ولما لهما من أثر في التنزيه، ولما كان لهما ومن موجب التعظيم والتقديس والتأليه.

ولكن أولاً قوم كانوا أحرص الناس على الهدى؛ ولأن فيه النجاة، ولكن أولاء قوم كانوا أبعد الناس حرصاً، ومن أن تمسك الدنيا بتلابيبهم، فخرجهم عن مظان العقد الفريد، واليقين السديد الرشيد، بهذا الرب الحميد المجيد. ولما كان ومن شأنهم هو هذا الحرص على الجنة، وأما مسألة

(١) صحيح مسلم: ٤٨٩

الرزق فمحسومة، وأما مسألة المعاش فمضمونة، وهذا هو يقينهم بربهم الرحمن سبحانه، ويقينا درسا نتعلمه، وعقدا نافعا نتدارسه، وجيلا من بعد جيل آخر. ولنقف مشدوهين، ومن هكذا مشهد يتقاطر من حواليه التذلل، ويتهاجر من جنباته اليقين.

عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوم له في حوائجه نهاري، أجمع حتى يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء الآخرة فأجلس ببابه، إذا دخل بيته أقول: لعلها أن تحدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة فما أزال أسمعه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده "، حتى أمل فأرجع، أو تغلبني عيني فأرقد، قال: فقال لي يوما لما يرى من خفتي له، وخدمتي إياه: " سلني يا ربيعة أعطك "، قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمك ذلك، قال: ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة زائلة، وأن لي فيها رزقا سيكفيني ويأتيني، قال: فقلت: أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به، قال: فجئت فقال: " ما فعلت يا ربيعة؟ "، قال: فقلت: نعم يا رسول الله، أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار، قال: فقال: " من أمرك بهذا يا ربيعة؟ "، قال: فقلت: لا والله الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلت سلني أعطك وكنت من الله بالمنزل الذي أنت به نظرت في أمري، وعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة وأن لي فيها رزقا سيأتيني فقلت: أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم لآخرتي، قال: فصمت رسول الله

صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال لي: " إني فاعل فأعني على نفسك
بكثرة السجود " (١).

يا رسول الله ما أحب أن يشغلني عن خدمتك شيء ، وما عندي ما أعطي المرأة.

فقراء فتحو العالم:

هذا جواب ربيعة بن كعب خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا
بيان حال ثلة من هذا الجيل، والذي كان على أيديهم فتح العالم يوما، وإذ
كان الفقر والحاجة والعوز كساءهم، ولما لم يثنتهم ذلك عن خروجهم
لمواجهة الباطل، ولما كان من عقدهم أن الله تعالى معهم وناصرهم، وما كان
الله تعالى ليخذل خارجا في وجه الباطل مزجرا زمجرة الأسد!

محبة قائد وولاء مقود:

ولكن هذا، ومن جانب آخر، وإذ تقشعر منه أبدان، وحين نعلم، وكيف
كان نظر الناس، وإلى نبيهم وقائدهم محمد صلى الله عليه وسلم، وليس ومن
باب أنه نبي وحسب، وإنما ومن باب أنه كذلكم رجل كان ذا وصف من لين،
ونعت من حلم، وإذ بك لست واجدا ومن ذلكم من شيء يوما، وإلا في قاموس
هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) مسند أحمد، ط الرسالة: حديث رقم: ١٦٥٧٩، وانظر: إرواء الغليل، محمد ناصر الألباني: ج ٢ /

النكاح من سنن الفطرة:

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن مقتضى حلمه، ومن موجب علمه، وأن الزواج ومن سنن الفطرة، ومن موجبات الجبلة البشرية، وحين طبع الله تعالى عبده على هكذا ميل، وليستقر العنصر البشري، وعلى نظامه، الذي وضعه الله تعالى؛ وعمارة للكون، وإذ كان منه هذا الميل، والذي ولربما لولا وجوده ما كان إعمار لهذه البسيطة، ومن أساس.

تحسس الراعي لحاجات الرعية:

ولكن هذه وقفة ولي الأمر، وعلى حاجات الجماهير من أمته، فيتحسس رغائبهم، ويتلمس حاجاتهم، ومن ثم فيعمل؛ ومن وجاهته على قضائها، وهذا الذي حدث، ويوم عرض على ربيعة أن يتزوج، وليرسله إلى بيت فلان، ليزوجه، فتاتهم فلانة، ومن ثم أيضا، لينشر في الناس مهرها، ووليبتها، وليتبرع كل، وعلى حسبه، وإذ كان من مقدمتهم هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما يجود بما عنده يومه هذا، كبشا هنيئا مريئا، ولمن أكل.

التكافل الاجتماعي في الإسلام:

وهكذا تقوم أسرة جديدة في المجتمع الإسلامي، ترفل؛ ومن سعادتها، وتأنس؛ ومن سرورها، وبمعاونة هذا الجيل الفذ الرشيد، وحين كانوا على أتقى قلب رجل واحد.

يصلح للمهر كل ما يتقوم بمال:

ولكن وقفة، وعلى هكذا مهر امرأة مسلمة يوما كان، وإذ كان وكوزن نواة تمرّة ذهباً! وهذا الذي تنبغي إليه الإشارة، ديناً، ومنهجاً حسناً، وأن قلة المهور، ويكأنها تكون سبباً، ومن أسباب هذا الإلف المجتمعي، والإجماع الأممي، وعلى تقديم المصلحة الشرعية في الزواج، ومن فوق أية مصلحة أخرى هي منها، وحيث كانت أدنى.

قيمة الراعي التقى النقي في نظر الرعية:

ويكأن هذا هو نظر أولاء الرعية لقائدهم ونبیهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وحين علموه، وهكذا يتحسس مشاعرهم، ويتلمس حاجاتهم، ومن ثم فيقفون عند أمره فعلاً، وينتهون عند نهيه تركاً، أيضاً وهذه علاقة فيها من الأنس بين الراعي والرعية، ما يصلح أن يكون أساساً، وعليه يكون ابتناء كل علاقة أخرى، ومن مثل نوعها هذا.

وما سألوني بينة:

وعلى أنه، وهكذا كانت مشاعر هذه الأمة أفرادها، ونحو نبیها محمد صلى الله عليه وسلم، وحين زوجوا ربیة هذا، وحين أكرموه، وأهنأوه، ولم يكلفوه، وصدقوه، ولما لم يسألوه مؤونة، ولا بينة، ومن حيث اكتفي بتصديقه رسولا عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم!

وهذه قاعدة أخرى في العمل الدعوي، وحين يكون النصاب هو زكاء النفوس، والأرواح والنفوس، ولما تكون قلوب هذه الأمة، ويكأنها وعلى قلب

رجل واحد، فيصدق بعضهم بعضا، ويألف بعضهم بعضا، ويأنس بعضهم بعضا أيضا.

فعن ربيعة الأسلمي قال: كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: " يا ربيعة، ألا تزوج؟ "، قال: قلت: لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أحب أن يشغلني عنك شيء، فأعرض عني فخدمته ما خدمته ثم قال لي الثانية: " يا ربيعة، ألا تزوج؟ "، فقلت: ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أحب أن يشغلني عنك شيء، فأعرض عني، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما يصلحني في الدنيا والآخرة أعلم مني، والله لئن قال: تزوج لأقولن: نعم يا رسول الله، مرني بما شئت، قال: فقال: " يا ربيعة، ألا تزوج؟ "، فقلت: بلى مرني بما شئت، قال: " انطلق إلى آل فلان حي من الأنصار - وكان فيهم تراخ - عن النبي صلى الله عليه وسلم فقل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة لامرأة منهم "، فذهبت فقلت لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليكم، يأمركم أن تزوجوني فلانة فقالوا: مرحبا برسول الله، وبرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لا يرجع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بحاجته فزوجوني وألطفوني، وما سألوني البينة، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزيناً، فقال لي: " ما لك يا ربيعة؟ "، فقلت: يا رسول الله، أتيت قوما كراما فزوجوني، وأكرموني وألطفوني وما سألوني بينة، وليس عندي صداق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا بريدة الأسلمي، اجمعوا له وزن نواة من ذهب "، قال: فجمعوا لي وزن نواة من ذهب، فأخذت ما

جمعوا لي فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " اذهب بهذا إليهم فقل: هذا صداقها "، فأتيتهم فقلت: هذا صداقها فرضوه وقبلوه، وقالوا: كثير طيب، قال: ثم رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حزينا فقال: " يا ربیعة، ما لك حزين؟ "، فقلت: يا رسول الله، ما رأيت قوما أكرم منهم رضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا: كثيرا طيبا، وليس عندي ما أولم، قال: " يا بريدة، اجمعوا له شاة "، قال: فجمعوا لي كبشا عظيما سميئا، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اذهب إلى عائشة فقل لها: فلتبعث بالمكتل الذي فيه الطعام "، قال: فأتيتها فقلت لها ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: هذا المكتل فيه تسع أصع شعير لا والله إن أصبح لنا طعام غيره، خذه فأخذته، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته ما قالت عائشة، فقال: " اذهب بهذا إليهم فقل: ليصبح هذا عندكم خبزا "، فذهبت إليهم، وذهبت بالكبش، ومعني أناس من أسلم فقال: ليصبح هذا عندكم خبزا، وهذا طبيخا، فقالوا: أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه، وطبخناه، فأصبح عندنا خبز، ولحم فأولمت، ودعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني بعد ذلك أرضا، وأعطى أبا بكر أرضا، وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة فقلت: أنا هي في حدي، وقال أبو بكر: هي في حدي، فكان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي أبو بكر كلمة كرهها وندم، فقال لي: يا ربیعة رد علي مثلها حتى تكون قصاصا، قال: قلت: لا أفعل، فقال أبو بكر: لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما أنا بفاعل، قال: ورفض الأرض

وانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وانطلقت أتلوه، فجاء ناس من أسلم فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قال لك ما قال، فقلت: أتدرون ما هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه، فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة، قالوا: ما تأمرنا؟ قال: ارجعوا، قال: فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعته وحدي، حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان، فرفع إلي رأسه فقال: " يا ربيعة، ما لك وللصديق؟ "، قلت: يا رسول الله، كان كذا كان كذا، قال لي كلمة كرهها فقال لي: قل كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر "، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر" ^(١).

(١) مسند أحمد ابن حنبل، مسند المدنيين، حديث ربيعة بن كعب الأسلمي، حديث رقم: ١٦٣٣٠

الفصل العنصري وموقف الإسلام منه

يا أبا بكر لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ومن في الوجود ومن مثل هذا الجيل؟!

وحين يكون، ومن بين اثنين، ومن هذه الأمة، يومهم ذلك، وما يمكن أن يطرأ، وعلى حياة الناس، ومن شاكلة ما يسمونه، سوء التفاهم، وحين يكون من بين هذين الرجلين، وما منه تتقاطر عيون، وما به تتساقب جفون؛ ومن إلف ما كان من بينهما، ومن إلف ومحبة وولاء أيضا.

وحين يتبدى، ومن موقف شاكل نخلة، وفي أرض أيهما كانت تقع، أفي أرض ربيعة، أو في أرض أبي بكر رضي الله تعالى عنهما؟ ولما يحرش الشيطان، ويكأنه قال أبو بكر كلمة ألت ربيعة هذا، وإذ كان منه رجوعه إلى جادته، وأصل خلقه وفضيلته، ولما يطلب، ومن جد، ومن كذب أن يردها عليه ربيعة هذا؛ قصاصا! ولما لم يرد ربيعة هذا؛ عفوا قلت، وحلما رأيت، وزكاء سمعت، وكل ذلك كان عندهم جيلا فريدا.

ولكن أن يصل الأمر بأبي بكر؛ وخوفا منه تعالى، أن يهدد ربيعة بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليشكوه ولما لم يأخذ حقه قصاصا؟! فإن هذا هو الذي يقشعر من أمامه بدن، ولينتفض من موجهه جسد! وليصر هذا ربيعة على عفوه، وحلمه، وتجاوزته، وسماحته! ومن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليجلس مجلس الصلح، والحكم معا، وما أمكن أن يكون صلحا، دون تقاض، ولأن الصلح خير، وعلى أي

وجه كان؛ ولأنه يترك في النفوس محبة وولاء، وأكثر مما يمكن أن ينتجه تقاض! ومن حيث قاعدة التسامح بين الأخوين في الله تعالى، رابطة كانت أقوى، وولاء كان أدهى.

وليقف الأمر، وعند حد ألا يقتصر ربيعة، وأن يتسامح الصحابيان الأخوان، وفي مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليكتفى بالدعاء لأبي بكر بالمغفرة، وحين ينصرف باكيا، ومن هكذا مشهد المودة، والتسامح، الإغداق، ومن خلق جليل جميل، ومن نبل فضيل شميل.

وعلى أنه ومما يزيد الأمر إعجابا، هو هكذا موقف أبي بكر، وحين مما يمكن أن يكون من طائفة السادة، وحين كان ربيعة هذا، ومن جملة الخدم، ولكن نظرة أبي بكر، كانت أوسع أفقا، وأدهى سبيلا، وحين كان ومن بين يديه، ومن خلفه، أن قاعدة التفاضل عند الله تعالى، وإنما هي خارج نطاق هذا الفصل العنصري البغيض! ولأن ميزان الحق عنده تعالى، وبما أنف ذكره، ومن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

كان ربيعة من أهل الصفة:

وإن مما يزيد في الأمر اندهاشا، وهو أن كعب بن ربيعة هذا كان من أهل الصفة، طبقة فقيرة، وها هو قد نزل عند رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خادما. وها هو تعامل أبي بكر صاحب العطاء والنفقات ولى مثل مسطح بن أثاثة، برهانا، وقيمة، ودليلا، ونبلا، وهديا حسنا.

فمن ربيعة- بن كعب- الأسلمي كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني أرضا وأعطى أبا بكر أرضا وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة فقال أبو بكر هي في حد أرضي وقلت أنا هي في حدي وكان بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي أبو بكر كلمة كرهتها وندم فقال لي يا ربيعة رد علي مثلها حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل فقال أبو بكر لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت ما أنا بفاعل قال ورفض الأرض فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقت أتلوه فجاء أناس من أسلم فقالوا رحم الله أبا بكر في أي شيء يستعدي عليك رسول الله وهو الذي قال لك ما قال فقلت أتدرون من هذا؛ هذا أبو بكر الصديق وهو ثاني اثنين وهو ذو شيبة المسلمين فإياكم يلتفت فإياكم تنصروني فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة قالوا فما تأمرنا قال ارجعوا فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعته وحدي وجعلت أتلوه حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان فرفع إلي رأسه فقال يا ربيعة مالك وللصديق قلت يا رسول الله كان كذا وكان كذا فقال لي كلمة كرهتها فقال لي قل كما قلت لك حتى يكون قصاصا فقال رسول الله أجل فلا

ترد عليه ولكن قل غفر الله لك يا أبا بكر غفر الله لك يا أبا بكر قال
فولى أبو بكر رحمه الله وهو يبكي^(١).

حديث: سيد طعام أهل الدنيا والآخرة اللحم: " فيه سليمان ضعيف
وله شواهد منها عن علي رفعه " سيد طعام الدنيا اللحم ثم الأرز " وأدخله
ابن الجوزي في الموضوعات قال شيخنا لم يتبين لي الحكم بوضع هذا المتن
وقال الشافعي أن أكل اللحم يزيد في العقل، وفي الوجيز " سيد طعام أهل
الدنيا وأهل الجنة اللحم " عن أبي الدرداء وربيعه بن كعب بينهما راويا
الكذب قلت حديث أبي الدرداء عند ابن ماجه وورد عن أنس وبريدة. وفي
اللائل " سيد طعام أهل الجنة اللحم " لا يصح فيه سليمان يروي عن
مسلمة أشياء موضوعة قلت سليمان روى له ابن ماجه قال ابن حجر لم
يتبين لي الحكم بوضعه فإن مسلمة غير مجروح وسليمان ضعيف^(٢).

بيد أن وقفة أخرى، وحين كان من إلف هذا النبي محمد صلى الله عليه
وسلم تحسس أحوال رعيته، وتلمس حاجاتهم، هديا وسننا حسنا، ومن
إشارة إلى كون هذا، ومما يحسبه الراعي من واجباته، ولما كان يعده ذلك
ومن مسؤولياته.

وها نحن تمر بنا أحوال، ونعيش أحداثا، نستلهم منها هذا الرشد،
ونستدعي من خلالها هذا السنن.

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٧٧٥/٧

(٢) تذكرة الموضوعات، الفتني: الصفحة ١٤٥

فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى: أن أبا هريرة كان يقول: الله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، فتبسم حين رأي، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق، ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهده لك فلان -أو فلانة- قال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فسألتني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟! كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح،

فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: بقيت أنا وأنت، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت، فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول: اشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا، قال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة^(١).

وعن واثلة ابن الأسقع قال: كنت من أهل الصفة فدعا النبي صلى الله عليه وسلم يوما بقرص فكسره في صفحة ثم صنع فيها ماء سخنا وصنع فيها ودكا وصنع منه ثريدة ثم سغسغها ثم لبقها ثم صنعها.

قوله: لبقها - يعني جمعها بالمقدحة، وهي المغرفة. وسغسغها: أفرغ عليها زغلة من سمن فرواها بها وفرقها فيها. قال: وصنعها رفع رأسها^(٢).

وعن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق: أن أصحاب الصفة، كانوا أناسا فقراء وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس وأن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة، قال: فهو أنا وأبي وأمي - فلا أدري قال: وامراتي وخادم - بيننا وبين بيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي

(١) صحيح البخاري: ٦٤٥٢

(٢) غريب الحديث، ابن سلام: ج ٣ / ٢٠٦ و ٢٠٧

صلى الله عليه وسلم، ثم لبث حيث صليت العشاء، ثم رجع، فلبث حتى تعشى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: وما حبسك عن أضيافك - أو قالت: ضيفك - قال: أوما عشييتهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا فأبوا، قال: فذهبت أنا فاخبتأت، فقال يا غنثر فجدع وسب، وقال: كلوا لا هنيئا، فقال: والله لا أطعمه أبدا، وايم الله، ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها - قال: يعني حتى شبعوا - وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان - يعني يمينه - ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عقد، فمضى الأجل، ففرقنا اثنا عشر رجلا، مع كل رجل منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون، أو كما قال^(١).

أعتق سعدا

وهذا هو قرار النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أمره لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأن يعتق سعدا مولاه. ومن حيث كان ذلك، ومن وجاهة قرار إداري، وحزمه، ونوره، ومن وجوه منها:

الوجه الأول: وهذا الذي كان من الإسلام، وموقفا كان منه، تجاه الرقيق، ومحاولة البحث عن وجه للإعتاق، والتحرر من هذا الرق.

(١) صحيح البخاري: ٦٠٢

الوجه الثاني: وهو ذاك اختبار قوة أبي بكر، وقدرته على التفاعل، مع هذا القرار، وإن خالج نفسه ما خالج، وإذ كان من يقينه الخير، ومن قرار النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحزمه، واختباره لدى قدرة هذا الرجل أبي بكر، على التفاعل مع هذا القرار، والأمر النبوي.

عن سعد مولى أبي بكر الصديق أن رسول الله قال لأبي بكر - وكان سعد مملوكا لأبي بكر، وكان رسول الله يعجبه خدمته -: «أعتق سعدا». فقال: يا رسول الله ما لنا خادم هاهنا غيره. فقال: «أعتق سعدا أئتتك الرجال، أئتتك الرجال»^(١).

الوجه الثالث: وعلى أن هذا، وكما أنف، كان منهجا لهذا الدين، ومن إعتاق الأرقاء والموالي. وليس مقصورا على واقعة أبي بكر هذه وحدها. وإنما كان واجهة لإنفاذ هذا الأمر الحاسم، وهذه عبقرية نبوية، وهذه ألمعية هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يجعل أبا بكر أداة للإعلام عن هذا التوجه الهام، ومن رسالة للعالمين، أن هذا هو شأن الإسلام العظيم، ومن تحرير الناس - كل الناس - ومن رق، كان ثلثة في وجه هذه البشرية. وإذ كان هذا من تفردات ديننا.

فعن هلال بن يساف: عجل شيخ فلطم خادما له، فقال له سويد بن مقرن: عجز عليك إلا حر وجهها، لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرن ما

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر الدمشقي: ج ٦٧/٢

لنا خادم إلا واحدة، لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعتقها^(١).

وعن سويد بن مقرن: لطمت مولى لنا فهربت، ثم جئت قبيل الظهر، فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال: امتثل منه، فعفا، ثم قال: كنا بني مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا إلا خادم واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أعتقوها، قالوا: ليس لهم خادم غيرها، قال: فليستخدموها، فإذا استغنوا عنها، فليخلوا سبيلها^(٢).

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الإقران

النظرية الإسلامية في الاقتصاد وقت الأزمات

هذا مبدأ اقتصادي إسلامي هام وفي أوقات الازمات الاقتصادية وحين يتعاون الناس وألا يأكل أحدهم تمرتين ومن لقمة واحدة! والذي به يكون قد اكل ضعف ما أكل زميلا له وعلى نفس المائدة أو غير المائدة. وعلاوة على ما يحمله ومن دناءة نفس ودنو همة وحين يأكل احدهم خارج آداب لطعام ومن نهم.

فعن عبدالله بن عمر: كنا بالمدينة في بعض أهل العراق، فأصابنا سنة، فكان ابن الزبير يرزقنا التمر، فكان ابن عمر رضي الله عنهما يمر بنا فيقول:

(١) صحيح مسلم: ١٦٥٨

(٢) صحيح مسلم: ١٦٥٨

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الإقران، إلا أن يستأذن الرجل منكم أخاه^(١).

وعن سعد قال: قربت بين يدي رسول الله ﷺ تمرا، فجعلوا يقرنون فنهى رسول الله ﷺ عن القران^(٢).

وإلا أنه، وحين يأذن الصحب الكرام لصاحبهم، وعن رضا نفس، وعن طيب خاطر، وإنما جاز شرعا.

فعن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أكل مع قوم من تمر فلا يقرن، فإن أراد أن يفعل فليستأذنهم، فإن أذنوا له فليفعل»^(٣).

عبد الله بن مسعود كنيف ملئ علما

وهذا وصف عمر الفاروق لعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه. وهذا الذي نقتفيه، أثرا بهيا، ومن آثار هذا الدين العظيم، وحين كان منه هذا التصالح، وهذا التسامح، وهذا التألف، وهذا التأزر، وهذا الحس المرهف زكاء، ومن كل أخ تجاه أخيه المسلم، وحين يشهد كل لأخيه شهادة الحق حقا، وشهادة، واعترافا بالفضل، ونسبته لأهله، قلوبا كانت بعضها إلى بعض.

(١) صحيح البخاري: ٢٤٥٥

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٥٨

(٣) صحيح ابن حبان، حديث رقم: ٥٢٣٢

ولكن هذا عبد الله بن مسعود، وقد أنف شطر من بيانه، ومن حينه،
وحين كان مهاجرا هجرتين، وحين حضر المغازي، ومن محضر من أولاء
الصحب الكرام، رضي الله تعالى عنهم.

وهذا الذي يحدونا، أن نترسم خطوهم، وأن نحذو حذوهم، رهبان ليل،
فرسان نهار.

ولكنه، وهو أيضا ذو الساقين الدقيقتين، وحين كانت في الميزان عند الله
تعالى وأثقل من جبل أحد، ومن نص حديثه صلى الله عليه وسلم يوما. وحين
قال: كنت أجتني لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأراك قال فضحك
القوم من دقة ساقي فقال النبي صلى الله عليه وسلم مم تضحكون قالوا من
دقة ساقيه فقال والذي نفسي بيده لهي أثقل في الميزان من أحد^(١).

ولكن هذا عبد الله بن مسعود وحين كان حسن الخلق حسن الخلق
معا، وحين كان أشبه هديا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو عمل
الصحبة، وهذا هو فعل هذه الثلة الكريمة، ومن الأوابين.

ولكنه كان يستشعر العبودية، ومن خدمته للنبي محمد صلى الله عليه
وسلم. وحين كان يقدم له وضوءه، أو يعينه، فيركبه راحلته، وإذا كان يجد
من ذلك الشرف، والمحبة، والرضا، والتقرب إلى الله تعالى وبهكذا عمل كريم
أيضا.

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٢٧٥٠

لا تسألونا وهذا الخبر فيكم

هذا زكاء نفس التابعي الكريم أبي موسى الهلالي، وحين كان منه صدق ثنائه على هكذا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، حبرا، عالما، فذا.

ويكأنه، ومن هذا الحكم الكريم العظيم، وحين ليس يعد رضاعا من ديننا، وإلا حين يكون شادا عظما، أو أن يكون منبئا لحما، وعلى ذلك فليس يكون رضاعا ما خلا من ذلك، وهذه مسألة شغلت الناس في القديم، وفي الحديث منه بوجه أخص.

ومنه أيضا فليس يترتب على رضاع كانت مثابته أنه ليس شادا عظما ولا منبئا لحما أن يكون له من أصل في التحريم، أي ليس يعتد به أن ينطبق عليه حديث عبدالله بن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة^(١).

وعلى أن الرضاع المعتبر هنا، ولما كان خمس رضعات أو أكثر، وحال كونه في الحولين، وهذا الذي منه يكون شد العظم وإنبات اللحم. عن ابن مسعود، قال: لا رضاع إلا ما شد العظم وأنبت اللحم، فقال أبو موسى: لا تسألونا وهذا الخبر فيكم^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٢٦٤٥

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٠٥٩

قال: ومنه الحديث " لا رضاع إلا ما أنشر اللحم، وأنبت العظم " أي شده وقواه، من الإنشار: الإحياء، ويروى بالزاي. (١).

ابن مسعود يبشر الأمة

حديث البشارة

عن عبدالله بن مسعود: كنا مع النبي في قبة، فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر (٢).

وهذا حديث البشارة، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم للأمة، وحين كان من وصفها، أنهم يبلغون عداد النصف، ومن أهل الجنة، وهذا بيان نبوي هام، وحين نعلم الإعجاز منه، وأنه علم آخر ضاف، ومن أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وهذه واحدة.

وأما الثانية: فهي أنه ورغم ذلك، فإنه ليس يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وفي هذا بيان آخر ضاف، ودعوة إلى الناس أن يدخلوا في دين الله

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ٥ / ٥٤

(٢) صحيح البخاري: ٦٥٢٨

تعالى أفواجا، ويسبحون بحمد ربهم، ويستغفرونه، ولأنه كان حصر دخول الجنة وقصرا، وإلا لنفس مسلمة.

إن الرقى، والتمائم، والتولة شرك

هذا حكم الإسلام فيما سبق. ولأنه كل ذلك غالبا ما يكون شركا قوليا، ولربما أدى إلى شرك اعتقادي، والأمور بالظواهر على كل حال، وإلا من كان مسلما، أو حديث عهد به، فإنه يعذر، ومن بعد تعليمه يؤاخذ به. دلالة قول عبد الله بن مسعود ذلك لامرأته، وإن ليس قد حكم عليها بالشرك، ودلالة بقائها في عصمته. ومنه كان النصح والإرشاد واجبا، وممن هو بقادر على ذلك.

ولكن الإسلام وحين حرم الرقى والتمائم والتولة، وإنما قد أتى باليسير والسهل، ومن الرقية الشرعية البديلة، وحين قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى: إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أذهب الباس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما.

وكذا، وإن كان منه تعلق القلوب بخالقها تعالى، وهو أرأف بالعباد، وأرحم بهم، وإن يجيب مضطرا، وإن يغيث ملهوبا سبحانه.

فعن عبد الله بن مسعود: إن الرقى، والتمائم، والتولة شرك قالت: قلت: لم تقول هذا؟ والله لقد كانت عيني تقذف وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيني فإذا رقاني سكنت، فقال عبد الله: إنما ذاك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً^(١).

والرقية: هي مجموعة من الآيات القرآنية والتعويزات والأدعية عن النبي ﷺ يقرأها المسلم على نفسه أو غيره لعلاج ما أصابه من الأمراض النفسية أو العضوية.

وهي مشروعة: ويدل على مشروعيتها قوله ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»^(٢).

والتمايم: هي كل ما يعلق على المرضى أو الأطفال أو البهائم أو غيرها من تعاويذ لدفع البلاء أو رفعه^(٣).

وهي محرمة. ولأنها شرك؛ ولحديث الباب، ولقوله النبي محمد صلى الله عليه وسلم: من علق تميمة فقد أشرك^(٤).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٨٨٣

(٢) صحيح مسلم: ٢١٩٩

(٣) التمهيد: ١٦٢ / ١٧

(٤) صحيح الجامع، الألباني: ٦٣٩٤

والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يجب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته^(١).

والنشرة بالضم: ضرب من الرقية والعلاج، يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء: أي يكشف ويزال. وقال الحسن: النشرة من السحر. وقد نشرت عنه تنشيرا^(٢).
والذي في النهاية والمصباح: الا ما أنشر العظم وأنبت اللحم أي: شده وقواه من الانشار الإحياء، قال ابن الأثير: ويروى بالزاي^(٣).

وكل بدعة ضلالة

ويكأن هذا إعلان عبد الله بن مسعود، تمسكه بالسنة، واعتصامه بها. وفيما دق، أو فيما جل أيضا. ولا سيما في مسائل التعبد، وحين كانت توقيفية، ولا مجال لإعمال الرأي المخالف فيها من شيء. وإذ كان منها هذا الذي يكون منه، أذكار ما بعد الصلاة من تسبيح، وتحميد، وتكبير، وتهليل. وحيث كان منه العد على الأصابع خيرا وأقوم قليلا، ولكن هذا الذي فعله الناس ومن عد الحصى واجتماعهم على ذلك، وإنما هما بدعتان، ولما جاء الشرع المطهر بتحريمه، ووقوف من مثل عبد الله بن مسعود موقف المنكر، والناهي عن هذا المنكر أيضا.

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن: ١٢٨

(٢) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ٥ / ٥٤

(٣) لسان العرب، ابن منظور: ج ٥ / ٢٠٧

عن عمرو بن سلمة الهمداني قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد قلنا لا فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعا فقال له أبو موسى يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد أنفا أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا قال فما هو فقال إن عشت فستراه قال رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مئة فيكبرون مئة فيقول هللوا مئة فيهللون مئة ويقول سبحوا مئة فيسبحون مئة قال فماذا قلت لهم قال ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك قال أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال ما هذا الذي أراكم تصنعون قالوا يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح قال فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون وهذه ثيابه لم تبلى وأنبيته لم تكسر والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة قالوا والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصيبه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم فقال

عمرو بن سلمة فرأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج^(١).

وكم من مريد للخير لن يصيبه !

هذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وهذا قول الحق؛ ولأن أمر البدعة في الدين عظيم، ولما رأى الناس يجتمعون للذكر، وهذه مظنة البدعة، أو هي البدعة ههنا، ولو كان الجلوس والاجتماع عليه للذكر! ولأن الاجتماع للذكر لم يكن معهودا على هكذا عهد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وها هو لم تبل ثيابه، وها هو وآنيته لم تكسر، وكناية عن حداثة العهد وقربه، وإذ وما بال الناس، وحين يتباعد بهم الزمن عن عهد النبوة.

وعلى أن الناس، ومن جانب آخر هام، وإذ كانوا يعتنون بذكرهم ربهم سبحانه؛ ولأن الذكر جلاء للقلوب، ومن صدأ، ولأنه طمانينة لها، ومن فزع.

وعلى أنهم أيضا كانوا، وعلى نفس هدي نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولولا هذا الاجتماع، وحين أخذوا ثلاثة وثلاثين يسبحون، ومثلها يحمدون، ومثلها يكبرون، وتهليلة كانت تمام مائتهم.

ولعل ومن أخذ عبد الله بن مسعود عليهم فعلهم هذا أيضا، وحين كان هذا الاجتماع للذكر، ومن قبل الصلاة، وعلى هيئة الذكر، ومن بعدها، وهو ما عناه من قوله أيضا؛ ولأن هذا من بدعة في الدين، وحين كان أمرهم على غير هدي نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان على وجوه، منها:

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١١/٥

الوجه الأول: هو الاجتماع للذكر، وهذه بدعة الناس.

الوجه الثاني: هو العد على الحصى، دون الأصابع. وهذه بدعة أخرى.

الوجه الثالث: هو انعقاد هذا الذكر قبل الصلاة، ولما كان مخصوصا بها، أو مثلها، ومن نوم، وما شاكل ذلك.

وعلى أن هذا الذي حدا بعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وحين رأى ألا يغتر عبد بعمله، وبالغا ما بلغ هذا العبد، وإذ هو عبد! وبالغا ما بلغ عمله؛ ولأنه الله تعالى ذو نعم لا تحصى، ولأنه عبد تقاصر سلفا، وعلى أن يؤدي شكر، ولو نعمة واحدة! ولأن هكذا مظنة الرياء، ومن مفسدات العمل. ومنه كان حريا هو هذا الإخلاص، ومنه كان جديرا هو هذا الإخبات.

وعلى أن هذا الحزم، وحين رأيناه، ولما كان هذا العزم، ولما علمناه؛ ولأن أمور هذا الدين محسومة سلفا، وإن ترك باب ولو ثقبا منه لهذا الابتداع، لهو الجدير أن يفتتح بابه على مصراعيه يوما.

ومنه كان سد ذرائعه باكرا محمودا، وعليه فكان إغلاق منافذه أولا ميمونا.

وهذا عمل العلماء، وهذا شأن الفقهاء، وألا يسكتوا عن منكر رأوه، وألا يغفلوا عن باطل سمعوه، أو عرفوه.

وعلى أن هذه فراسة ومن هذا العبد الكريم الصحابي الأمين عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه وحين رأيناه وهكذا يقول: إن عشت فستراه! وفي

إشارة على عمل الابتداع في الدين وما قد حصل منه الشيء الكثيرة، وما عانت منه الأمة الكثير أيضا ومن عمل أبنائها ومن أسف.

عن عبدالله بن مسعود: إني رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللو مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء ثم أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم هؤلاء أصحابه متوافرون، وهذه ثيابه لم تبلى، وأنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة . قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير . قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه^(١).

وعن عمرو بن سلمة الهمداني قال كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد قلنا لا فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعا فقال له أبو موسى يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد أنفا أمرا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا قال فما هو فقال إن عشت فستراه قال رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة في

(١) إصلاح المساجد، الألباني: ١١٠ . خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مئة فيكبون مئة فيقول هللوا مئة فيهللون مئة ويقول سبخوا مئة فيسبحون مئة قال فماذا قلت لهم قال ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك قال أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال ما هذا الذي أراكم تصنعون قالوا يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح قال فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون وهذه ثيابه لم تبل وآنيته لم تكسر والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة قالوا والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصيبه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم فقال عمرو بن سلمة فرأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج^(١).

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١١/٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

نسخ التطبيق في الركوع

وعلى أن هذا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى، وعلى علمه، ومن متابعتة، ولكنه ولما لم يكن يعلم ما وقع به النسخ، ومن هيئة التطبيق في الركوع.

والتطبيق هو: الجمع بين الكفين، وجعلهما بين الركبتين، وهو جمع أصابع اليدين، وإدخالهما بين ركبتيه.

وإنما جاء الحكم الناسخ، وبهيئة الركوع، والإمساك على الركبتين، أي: أن يضع يديه على ركبتيه، مع القبض عليهما، مفرقتي الأصابع.

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى: أتينا عبد الله بن مسعود في داره، فقال: أصلى هؤلاء خلفكم؟ فقلنا: لا، قال: فقوموا فصلوا، فلم يأمرنا بأذان ولا إقامة، قال وذهبنا لنقوم خلفه، فأخذ بأيدينا فجعل أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، قال: فلما ركع وضعنا أيدينا على ركبتنا، قال: فضرب أيدينا وطبق بين كفيه، ثم أدخلهما بين فخذه، قال: فلما صلى، قال: إنه ستكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن ميقاتها، ويخنقونها إلى شرق الموتى، فإذا رأيتموهم قد فعلوا ذلك، فصلوا الصلاة لميقاتها، واجعلوا صلاتكم معهم سبحة، وإذا كنتم ثلاثة فصلوا جميعا، وإذا كنتم أكثر من ذلك، فليؤمكم أحدكم، وإذا ركع أحدكم فليفرش ذراعيه على فخذه، وليجنأ، وليطبق بين كفيه، فلكأنني أنظر إلى اختلاف أصابع رسول الله صلى الله عليه

وسلم فأراهم. وفي رواية: فلكأنني أنظر إلى اختلاف أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راکع^(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة فكبر ورفع يديه فلما ركع طبق يديه بين ركبتيه قال فبلغ ذلك سعدا فقال صدق أخي قد كنا نفعل هذا ثم أمرنا بهذا يعني الإمساك على الركبتين^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

هذا هو خلق هذا الدين، وحين أخذ على أيدي المؤمنين، وألا يبيعوا دينهم بعرض زائل من الدنيا، وبالغا ما بلغ هذا العرض، وذلك وحين يلقي الرجل أخاه فيحلف له، بالله كذبا، وعلى حق ليس له، أو اقتطاع ما ليس له أيضا.

والواقع أن فاعل ذلك، وإنما كان قد اشترى بعهده تعالى، ودينه، وميثاقه ثمنا قليلا، وإذ لما كان على سبيل المعاوضة الرخيصة، وهو ما أشار إليه القرآن المجيد إشارة لامحة، وعبارة واضحة، وألا يفعل العبد فعله هذا، ولأنه يكون من أولاء الذين لا خلاق لهم، ولا يكلمهم الله تعالى، يوم

(١) صحيح مسلم: ٥٣٤

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٧٤٧

القيامة، بما يسرهم، بل بما يسوؤهم. ولا ينظر إليهم نظر اعتبار وقيمة، بل خذلانا وانكفاء على ذنوبهم، ولما كانوا وبهكذا خلق رخيص ذميم أيضا، ولا يزكيهم؛ ومن سوء أعمالهم، ومن نقيصة أخلاقهم، ومن دنىء فعالهم، ولهم عذاب أليم؛ ومن ارتكاب المنهيات، ومن ترك المأمورات، وهذه أربعة ألوان من العقاب متباينة، تحكي صورة الفجيعة، ومن إثمهم هذا، وإن كان بعضها لكافيا، ولكنه هو هذا التركيب الموحى بشدة الإيلام، ومقابل عوض قليل، ومن كذب أيضا، ومن ثم فناسبه هذا الإيلام، ومن أوسع معانيه أيضا. ويكأنه ليس يعنينا كثيرا، أن قائل هذا هو عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، أو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولا سيما وأنه قد تنزل فيه قرآن مقرر، وخاصة أنه أوحى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بيان موافق.

وإنما سميت هكذا يمينا فاجرة، وبأقصى ما يمكن تصوره، من ذميم المنظر، ومن قبيح المشهد؛ ولأنه يكفي أنها كانت سببا لاقتطاع حق امريء مسلم، وحرمانه منه. ومن ثم حالته غصبا وكرها وإلى من لا يستحق ذلك. وهذا الذي منه وقفت الشريعة الناصفة العادلة منه موقفها الإنكاري هذا، وبأشد ما يمكن تصوره، ومن حزم، ومن حسم أيضا.

هذا وقد جمع الحديث بين فجر اليمين وفجر الحالف بها معا، وهذا مما يزيد الإيلام إيلاما، وهذا ما يجعل هذا العقاب مركبا مضاعفا، وكما يكون ومن حسبها يمينا فاجرة، وبهذا المعنى القح، من اقتطاع الحقوق، وممن يملك، وإلى من ليس يملك.

عن قتادة أن عمران بن حصين كان يقول: من حلف على يمين فاجرة يقتطع بها مال أخيه فليتبوأ مقعده من النار، فقال له قائل: شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال لهم: إنكم لتجدون ذلك، ثم قرأ هذه الآية: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)^(١).

وعلى أنهم أسموها يميناً صبراً أيضاً؛ ولأنه وإنما حبس نفسه صبراً على الكذب، وعلى أن يفجر فيها! وهذا ملمح آخر موجب وجلا، وإذ كيف يحبس عاقل نفسه على إيتاء ما منه يكون إيلاؤه وعذابه وعقابه؟! ويمين الصبر: هي التي يكون الرجل فيها معتمداً الكذب، قاصداً. لإذهاب مال مسلم، سميت به لصبر صاحبه على الإقدام عليها، مع وجود الزواجر من قبله^(٢).

عن قتادة، أن عبد الله بن مسعود، كان يقول: كنا نرى ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الذنب الذي لا يغفر يمين الصبر إذا فجر فيها صاحبها.

عن قتادة، أن عبد الله بن مسعود، كان يقول: كنا نرى ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الذنب الذي لا يغفر يمين الصبر إذا فجر فيها صاحبها^(٣).

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٣ / ٤٣٧، ٤٣٨

(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني: ج ١ / ٢٥٦

(٣) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٣ / ٤٣٨

وهو ثمن قليل، وهذا من كنايات الألفاظ، وكناية عن تحقير المذنب
ولذنبه معاً، وأمرة على دناءة تصرفه؛ ومن يمينه، ولما كانت فاجرة صبرا.

عن عبدالله بن مسعود: من حلف على يمين صبر، يقطع بها مال امرئ
مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك: { إِنَّ الَّذِينَ
يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا } [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية.
٦٦٧٧- فدخل الأشعث بن قيس، فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا:
كذا وكذا، قال: في أنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، فأتيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم، فقال: بينتك أو يمينه قلت: إذا يحلف عليها
يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على
يمين صبر، وهو فيها فاجر، يقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله
يوم القيامة وهو عليه غضبان^(١).

وعلى أن صفة الغضب لله تعالى، ولما كانت ثابتة، ونصوص الكتاب
العزیز وكذا هدي سيد المرسلين وخاتم النبيين، نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم، وإنما كان الخوف والوجل أعظم، ولما جاءت هكذا على وزن فعلان،
ومن صيغ منتهى الجموع، ومن كناية على كم هو عظم الذنب أيضاً.

قال عبد الله - ابن مسعود - رضي الله عنه: من حلف على يمين يستحق
بها مالا وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان، فأنزل الله تصديق ذلك:
{ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا }، فقرأ إلى {عذاب أليم}
[آل عمران: ٧٧]. ثم إن الأشعث بن قيس خرج إلينا، فقال: ما يحدثكم أبو

(١) صحيح البخاري: ٦٦٧٦

عبد الرحمن؟ قال: فحدثناه، قال: فقال: صدق، لفي والله أنزلت؛ كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: شاهدك أو يمينه، قلت: إنه إذا يحلف ولا يبالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين يستحق بها مالا وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان، فأنزل الله تصديق ذلك، ثم اقتراً هذه الآية: { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا } إلى { ولهم عذاب أليم } [آل عمران: ٧٧]^(١).

وإني رأيته يجر أمعاءه في النار

وعن عبدالله بن مسعود: إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، و إني رأيته يجر أمعاءه في النار^(٢).

عن سعيد بن المسيب، قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب. والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تتني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا

(١) صحيح البخاري: ٢٥١٥

(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١٦٧٧

قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي^(١).

هذا جزء الإعراض عن السنن، والهدي، والصرط المستقيم، وهذا هو عقاب المبتدع، وحين كان أول داع إلى بدعته، ولما كان دينه تعالى كاملا غير منقوص، وإذ كان من عمل الابتداع هذا أنه يؤول إلى التنقص ممن شرع، وأمر، ونهى، وزجر. وهو الله تعالى العليم الخبير.

ولما كان هذا الشرك هو الداء العضال، والذي أورد بالناس الموارد، وأوداهم الردى والمهلك، ولما كان من شأنه هو هذا الذي رأيناه، ومن كون هذا عمرو الخزاعي أول من ابتدع عبادة الأصنام في مكة، مهد دعوة نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام حنيفا، ولم يكن من المشركين، وبه كان ظهور هذا الدنس، وأول من يعاقب به هو هذا عمرو؛ ولأنه سبب الانحلال، ولأنه موجب الفكك، ومما شرعه الله تعالى، ومن توحيده تعالى وحده بلا شريك، لا في ملكه ولا من سلطانه. ولأن هذا هو الضامن الوحيد، وألا يعدو أحد على أحد، وألا يستعبد أحد أحدا، وإنما وحين يكون هذا التوحيد منارة للناس، ونبراسا لهم، وحاديا، وهاديا، ومنهج حياة لهم، فترى الناس أحرارا، غير مكبلين، عتقاء ليسوا عبيدا، وإنما وحين كانت عبوديتهم لله تعالى ربهم الحق المبين سبحانه وحده، وهذه حيثية قمنة درسا؛ وذلك لأن الناس وحين تتجاذبهم الآلهة المدعاة، وإنما تراهم يتجاذبون عبيدهم، ومن من صوب وحذب، وحين ذلك تسقط الكرمات، وتداس القامات، وحين إنك وإذ أيضا

(١) صحيح البخاري: ٤٦٢٣

تجد الناس أيضا، وقد تهافتت عليهم شياطينهم، وحينها لاتجد ربا يعبد، وهو الخالق! وإنما وجدت تجاذبات، ومعها لا يستقيم لهذا الكون نظامه، ولا يستقر له أمنه وسلامه.

وإنما كان موجبا أن يجر عمرو بن لحي هذا أمعاه في النار؛ ولعمله هذا ومن جانبين:

الجانب الأول: ولأنه أول من سيب السوائب، والأمر بهذا الحد يكون كافيا وافيا؛ ولأنه أول من ابتدع شيئا في هذا الدين، ولم يكن صائبا في دعواه، ولا سيما أن هذا الحق كان موروثا عظيما، ومن موروثات الحنيفية، التي كان عليها نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام، وبالتالي يكون إثم من حرك الفتنة، وأيقظ أوارها، هو هذا الذي حكى الحديث عنه، وحين يكون منه ويكأنك تراه يجر قصبه نفسه في النار، ومن صورة مستوحشة تثير الاضطراب، والهيجان، وعدم الاستقرار النفسي معها جزاء وفاقا.

الجانب الثاني: وهو ذلكم التسبب في إحياء بدعة عبادة الأصنام، وحين جاء بها من بلاد الشام، ولما كانت جزيرة العرب على الحق والهدى والصراط المستقيم، ومن توحيدهم لربهم سبحانه، ولذلك كان أمر الابتداع في هذا الدين عظيما؛ ولما كان من شأن صاحبه أن يجر قصبه وأمعاه، ومن ذات نفسه في النار! وبئس المصير. **ولييس يجروه!**

وعليه وجب الحرص بأخذ العبد على ذات يده، وألا يكون سببا في بدعة، ولئلا يكون مصيره، وكما كان مصير هذا عمرو بن لحي يجر قصبه وأمعاه في النار أيضا.

ويكأن العرب، وحين كان من شأن بدعتهم هذه، وإنما جاءت معها بدع أخرى، وهذا الذي يوجب الوجل؛ ولأنه وكما أن الطاعات تتوالد عنها طاعات، وكذا فإن البدع والمعاصي والآثام، وإنما تتكاثر عنها بدع وآثام عظيمة أيضاً، ومن تفصيل القرآن الحكيم؛ ولعظيم جنايتهم على دينه تعالى، ومن قوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۚ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ وَكَثَرُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وذلك ولما كان النحو أنهم جعلوا:

١- البحيرة: وهي التي يمنع درها، أي: لبنها، فيكون حلبها لأجل الطواغيت التي يعبدونها من دون الله، فلا يحلبها أحد من الناس؛ تعظيماً للطواغيت. وذلك أنهم كانوا إذا ولدت إبلهم سقبا بحروا أذنه أي شقوها وقالوا اللهم إن عاش ففتى وإن مات فذكى فإذا مات أكلوه وسموه البحيرة، وقيل البحيرة هي بنت السائبة كانوا إذا تابعت الناقة بين عشر إناث لم يركب ظهرها ولك يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو ضيف وتركوها مسيبة لسبيلها وسموها السائبة فما ولدت بعد ذلك من أنثى شقوا أذنها وخلوا سبيلها وحرّم منها ما حرّم من أمها وسموها البحيرة^(١). ويفسر الحديث وعن أبي صالح الحنقي عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أراه ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مثل بذى روح ثم لم يتب مثل الله به يوم القيامة. رواه أحمد ورجاله ثقات. وعن أبي الأحوص أن

عوف بن مالك يعنى أبا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه أطمار فقال يا عوف أليس تنتج إبلك وهي صحيحة أذانها فتعتمد إلى بعضها فتجدعها فتقول هذه بحيرة وتعتمد إلى بعضها فتقول هذه صرم فلا تفعل ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك كل ما آتاك الله حلالا ولا تحرم من مالك شيئا ثم قال له يا عوف بن مالك غلامك الذي يطيعك ويتبع أمرك أحب إليك أم غلامك الذي لا يطيعك ولا يتبع أمرك أحب إليك قال بل غلامي الذي يطيعني ويتبع أمري قال فكذلك أنتم عند ربكم^(١).

٢- **والسائبة:** فإنها المسيبة المخلاة، وكانت الجاهلية يفعل ذلك أحدهم ببعض مواشيه، فيحرم الانتفاع به على نفسه، كما كان بعض أهل الاسلام يعتقد عبده سائبة فلا ينتفع به ولا بولائه. وأخرجت المسيبة بلفظ السائبة، كما قيل: عيشة راضية، بمعنى: مرضية^(٢).

٣- **والوصيلة:** فإن الأنثى من نعمهم في الجاهلية كانت إذا أتأمت بطنا بذكر وأنثى، قيل: قد وصلت الأنثى أخاها، بدفعها عنه الذبح، فسموها وصيلة^(٣).

٤- **وأما الحامي:** فإنه الفحل من النعم يحمى ظهره من الركوب، والانتفاع بسبب تتابع أولاد تحدث من فحلته.

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٤ / ٣٢

(٢) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٧ / ١١٩

(٣) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٧ / ١١٩

وعلى أن يكون العبد هو أول من قدم بين يدي البدعة، وإذا كان فيها إماما، وإن هكذا لموصم له وبعبئته، وإن ذلك لموجب له سوء سمعته، وحين يكون أول رافع لواء البدعة، ولما كان ذلك، ومن سوء صنيعه، ومن بدع عمله، ومن سوء فعله.

وهذا الذي كان منه هذا عمرو بن لحي هذا، ولما كان من شين ذكره، ومن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكنه وأن يجر العبد أمعاه وقصبه، ومن ذات نفسه، فإن هذا هو الشين ذكرا، وإن هذا هو الشنيع صورة، ومشهدا كان مؤثرا.

علم نبوة ضاف

ويكأنه كان علما، وعلى نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان هذا حادثا، ومن طلاقة الإعجاز، ومن انبهار عقد النبوة أيضا.

أخروهن حيث جعلهن الله

وإنما جعل الله تعالى النساء متأخرات عن الرجال صفوفا، ولا سيما في الصلاة؛ ولأنهن فتنه، وهذا حال الجبلة، وهذا شأن الفطرة، وحين جاء هذا الشرع المطهر بمنع الذرائع وسدها؛ وكما يكون مجتمع الطهر والعفاف، والقيم النبيلة، والأخلاق الفضيلة.

ولعل عبد الله بن مسعود رض الله تعالى، ومن حيث كان كنيفا ملء علما، وإنما لم يدع النساء، وإلا من بيان، وحين جعل من تأخيرهن ديننا، ولما

كان هذا التأخير، ومن موجب ألا يكن سببا من فتنة، أو داعية لخروج الرجال عن مألوف التقوى، وصحيح الدين.

وهذا أمر يحسن الوقوف عنده، وأن يعطى قدره، وأن يمنح شأنه؛ ولأن النساء فتنة، ولأنهن ومن حيث كن فتنة، ومن حيث كانت فتنة بني إسرائيل فيهن، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمى؟ قال: الحمى الموت^(١).

وعلى أن خروج النساء، وإذ كان جائزا في هذه الشريعة المطهرة؛ ولقضاء حاجياتهن، وإنما كان ومن شرطه، وألا تكون سببا في الافتتان بها؛ ولأنهن ومن طبيعة جبلية ربانية، قد خلقهن الله تعالى، وفيهن من إثارة الغرائز، ما كان منه حكمة ربانية أيضا؛ وليل طبعي من كل من الرجل والمرأة، وكل إلى الآخر، ومنه أيضا كان منعهن من إبداء ما منه يكون الخطر والانزلاق إلى مهاوي الردى والهلكة، وبالتالي أمرن أن يخرجن حال خروجهن غير متبرجات بزينة. وكما قال تعالى ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

وهذا هو الذي جعل عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها تقول قولها هذا: لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء

(١) صحيح البخاري: ٥٢٣٢

لمنعهن كما منعت نساء بني إسرائيل قلت لعمره: أو منعن؟ قالت:
نعم^(١).

وهذا القول، وإذ يعتبر من عهد النبوة! أو هكذا يعتبر؛ ولأنه ومن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وحال حياتها، رضي الله تعالى عنها، وما أحدثت النساء، وحال خروجهن؛ وحتى كان منه أن تمنع؛ وسدا لذريعة الفتنة، وإغلاقا لباب الخطر.

فعن عبد الرحمن بن يزيد أن عبد الله بن مسعود كان إذا رأى النساء قال أخروهن حيث جعلهن الله، وقال إنهن مع بني إسرائيل يصففن مع الرجال، كانت المرأة تلبس القالب، فتطال له لخليلها، فسلطت عليهن الحيضة، وحرمت عليهن المساجد، وكان عبد الله إذا رآهن قال: أخروهن حيث جعلهن الله. قال أبو بكر: الخبر موقوف غير مسند^(٢).

ولكن موجب هذا التأخير؛ ولأنهن إذا فعلن هذا، أو ما نحا نحوه، من أنواع الافتتان، وإثارة الغريزة، وإنهن معه ليؤخرن، وهذا الذي نقف عنده، وحين كان قول عائشة أم المؤمنين هذا، ومن نفس معنى قول عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما، أمة قلوبها كانت إلى الحق مائلة، وبه قائلة.

ولكن الذي راح إليه كل منهما رضي الله تعالى عنهما، ومن فعل نساء بني إسرائيل، ولما كانت إحداهن تتشعب إلى الرجال، وعند المسجد! فتلبس رجلين من خشب؛ ليطول ساقها، ولما كانت قصيرة، فيراها! وعند المسجد!

(١) صحيح البخاري: ٨٦٩

(٢) صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة: ج ٣ / ٩٩

وهذا الذي جعل من بني إسرائيل فتننتهم بهن، وهذا الذي جعل منعهن من الصلاة في المساجد؛ ولفعلهن هذا!

بيد أن من فعلهن أنهم كن يتصنعن بالطيب، وحين تريد إحداهن فتنة، فتحت خاتما اتخذته مملوءا بالطيب، وليفوح طيبها! وهذا وغيره ولكا كان من شأنه من فتننتهن، ومن فعلهن الذي؛ ومنه كان منعهن من المساجد، ولو فعلن ذلك.

وأقول: وإذا كان من فعل النساء هذا، وهو كما ترى من استحياء، وعند المساجد، وما بال الناس يومهم هذا، وقد رأى الناس ما منه كان أكثر من الطيب! وما منه كان أشد إيلا ما من إطالة أرجلهن بالسوق من الخشب! وما أكثر أسباب منعهن من الخروج عموما! وإلى المساجد خصوصا، وحين فعلهن ذلك!

عن أبي سعيد الخدري: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدنيا فقال: إن الدنيا خضرة حلوة فاتقوها واتقوا النساء ثم ذكر نسوة ثلاثا من بني إسرائيل امرأتين طويلتين تعرفان وامرأة قصيرة لا تعرف فاتخذت رجلين من خشب وصاغت خاتما فحشته من أطيب الطيب المسك وجعلت له غلغا فإذا مرت المسجد أو بالملأ قالت به ففتحته ففاح ريحه قال المستمر بخنصره اليسرى فأشخصها دون أصابعه الثلاثة شيئا وقبض الثلاث^(١).

(١) صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة: ج ٣ / ٩٩

ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن أبي سعيد الخدري بلفظ: إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء. وفي رواية: لينظر كيف تعملون^(١).

وأقول أيضا: إن بين يدي الآن شريط أخبار جوجل، وإذ يكاد يخلو من خبر، وإلا من خبر النساء، وهن كاشفات كاسيات عاريات! وأقول: وهل هذا عمل غير مقصود؟!

فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ

هذا كلام العبد الكريم الصحابي الأمين الفضيل عبد الله بن مسعود، وهو كلام تتقاطر الحكمة من حواليه، وهو أدب تتدلى زهور البلاغة من بين يديه، وتتفجر ينابيع الهدى ومن تحت قدميه، وهذا إلف المسلم نحو أخيه المسلم، تزكية، وقولا حسنا، وهذا رأي النصفة، والعدل، والقسطاس، والسمو إلى هكذا آفاق المحبة، والرضا، والولاء، والوفاء، وتلك هي شجون العباد الميامين، وهذه هي مناقب الأفذاذ، المنيبين، المتقين، الأوابين، المهتدين، ومن أولاء قلوب أنتجت هكذا نتاجها، بررة، خيارا، وسطا. وحين كان موافقا لهكذا تنزيل حميد مجيد، وحين قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ

(١) صحيح مسلم: ٢٧٤٢

يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۖ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ١٤٣﴾.

ولما كانت هذه الأمة هي الأمة الوسط، وإذ إنه، وكانه، ويكونه، ومن وصفها، ومن شأنها، ومن نعتها، ويكأنها لا تروح يمنا فتجور، بل تعدل، ولا أن تذهب يسرة فتحيف، بل تنصف.

ويكأنك تراها، وإلى الحق مائلة، وإلى الهدى سائرة، وبخطى الواثق المهتدي، ومن ذا الذي كان على ربه قد توكل، واعتمد، وفوض، وأراح الفؤاد، وأسكن اللب، وبه اطمأنت سرائر أولي النهى، والسداد، والشكيمة، والعزة، والأنفة، والتواضع، والرحمة، والمسكنة، والذلة، والخضوع، والخشوع، والإخبات، والرضا، والسكينة، والإباء. شأنها: أن القرآن العظيم حاديها، وعملها: أن ستن نبها هاديها، تدور مع الوحيين حيث دارا، وإذ ليست تقول من لدنها إلا خيرا موافقا وإلا هدى متسقا، منسجما، مؤتلفا، وإذ ليس يعترى قولها يوما- ولو واحدا- إفك، ولو وشيئا! وهذا هو الذي قال الله تعالى عنه يوما، وإذ لا زال منهاجا، وسبيلا، وطريقا، وهديا، وسنا، وحجة، وبرهانا، ودينا، ونورا للعالمين، ولما فتى وأن يكون طريقا وسواء مستقيما، منه ينهل العارفون، وإليه يتحاكم المنصفون، العادلون، وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ويكأن هذا الإمام دقيق الساقين، نحيف المنكبين، ولما كانت هذه صورته، وإلا أنهما ولما كانتا عند الله تعالى، ويكأنهما، لا، بل هما أثقل في الميزان يوم لقائه تعالى، ومن جبل أحد!

والآن نعرف، والحين ندرك، ولم كان هذا علما على نبوة هذا النبي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ ولما يقول هذا الحبر، الكريم، الصحابي، الفضيل، عبد الله بن مسعود، ما وافق القرآن، وما جاء به التنزيل، وإن هذه الأمة ليست تجتمع على ضلالة، وكما أنف من آية النساء توا، وكذا من قول نبيها محمد صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين قال: **إن الله لا يجمع أمتي - أو قال : أمة محمد صلى الله عليه وسلم - على ضلالة ويد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ إلى النار^(١).**

وكذا ومن وقله صلى الله عليه وسلم:

وعلى أن هذا، ولئن كان تزكية لهذه الأمة، وهو قول النصفة والعدل؛ ولأنها كذلك، وإلا أنه يصب في مصب ومصاف مسؤولياتها العظام، وحين كان من شأنها المحسوم، ولما كان من قدرها المحتوم، أنها تأخذ الناس، ومن أيديهم، ومن رفق، وحنو، ورحمة، وإلف، وعفو، وصفح، وكرم، ونبل، ومن كل صوب وحذب، وبلسان الحجة والحكمة، وعمل الحلم والفتنة، ولما كان منهاج أولي البصائر المهرة الحذقة، وهذا ميزان اللطف، والرفافة، والرحمة، وإلى شواطئ الهدى، وعنان الرقي، وسمو الإلهام والتوفيق

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢١٦٧

والتسديد والرضا والقبول والانقياد والإذعان وعن رضا وتسليم تسليما.
وإلى هكذا سنا هذا الإسلام الحنيف الخالد.

ولكن هذه تزكية ومن أولاء الصحب الكرام لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنه أيضا، ومن حق، ومن عدل، ومن نصفه، وحين كان خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى خلق عظيم، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، وشاهدا، ومبشرا، ونذيرا، وأحن، وأعف، وما عرفت البشرية من خلق، وأرأف، وألطف، ما أدرك الناس من رجل، كان سَنًا، وسَنَاءً، وهديًا، ونورًا، وضياء، ومنارة للمسالكين، وإلى بر أمانهم، ونور صراطهم، وهدى طريقهم، ونبل أخلاقهم، وسمو مناقبهم، وعلو سماتهم، وصفاتهم، ونعوتهم.

وعلى أن هذا كان وصفا دقيقا، لأولاء الصحب الكرام، ولما كان موافقا، ولحديث: أتينا العرياض بن سارية، وهو ممن نزل فيه ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فسلمنا، وقلنا: أتيناك؛ زائرين، وعائدين، ومقتبسين. فقال العرياض: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين

تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة^(١).

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري: ذكر ثنتين أو ثلاثا بعد قرنه - ثم يجيء قوم، ينذرون ولا يفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن^(٢).

فعن عبدالله بن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوا سيئا فهو عند الله سيئ^(٣).

إذا كنتم ثلاثة فأمرُوا أحدكم

هذا سنن هام؛ ولأن يد الله تعالى مع الجماعة المسلمة، وحين كانت مؤتلفة منتظمة، ومن ائتلافها، هو هذا التنظيم، ومن حيث كان من موجباته هو ذلكم التأمير، وحين كان القوم ثلاثة، فما فوقها، وإنما يؤمرون عليهم أحدهم. ولأن الجماعة مظنة التباين والاختلاف، ومن وجهات نظر متعددة،

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٧

(٢) صحيح البخاري: ٦٦٩٥

(٣) تخریج المسند لشاكر: ٢١١/٥ . خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح وهو موقوف على ابن

مسعود.

وإنما كان الأمير صائنا وصماما لها، ومن وجوه ذلك، ولأن الناس مختلفة مشاربهم، وعاداتهم، وأعرافهم، وحتى وإن جمعهم هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وإنما تبقى لهذه العادات والموروثات عملها، وليس من شرط اختلافها وتباينها مع الدين، وإنما لكل وجه محتمل، ومن لغة، ومن إرث عرقي، ومن خلفه، ولأجل سد منافذ، ومما يمكن أن يتخلله الشيطان، ومن هنا أو من ههنا، ولذلك فقد كانت السنة أن يؤمر الناس عليهم أحدهم.

وعلى أن هذا التأمير، وإنما يكون من غير سفر؛ ولظاهر هذا الحديث، أو من سفر؛ ولحديث آخر ورد، ومن حيث كانوا في سفر، وليؤمروا عليهم أحدهم.

فعن أبي الأحوص عن عبد الله قال: إذا كنتم ثلاثة في سفر، فأمروا عليكم أحداكم، ولا يتناجى اثنان دون صاحبهما^(١).

وأنت خير بهذا الخلق الدمث، وقد وقفت على هكذا مروءة عالية راقية، ولما كان الناس أحرص، وعلى مشاعر بعضهم بعضا ألين، وأرحم، وأرأف، وحين منعوا أن يتناجى اثنان دون أخيهما الثالث؛ ولأن ذلك يحزنه؛ أمة رقاقة مشاعرها، رفرافة أحاسيسها، ولما كان ذا شأنها، تتحسب ألا تنطق، ومن بنت شفة، أو أن يبدر منها ما يكون لمشاعر الأخ مؤلما، أو أن يمسّه ببصيص من حرج.

(١) تخرّج مشكل الآثار، شعيب الأرنؤوط: ٤٣/٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وهذا خلق نقدمه للناس، أدبا عن ديننا، ومهارة اجتماعية، تخرج أمة، ومن خير أُمم التاريخ، كان قد عرفها بعضهم أولياء بعض، وحين كان من موجب ولايتهم هذه، وأن يحافظ أخ على مشاعر وأحاسيس أخيه. وبهذا النضج الخلقي، ومن هذا السمو المجتمعي أيضا.

وعلى أنه كان ظاهر الآثار الواردة في هذا الشأن، وأنها خلت من شروط هذا الإمام، وهو الأمر الذي يجعلنا نستوفي شروط الإمام للصلاة عليها أم لا، وهذا الذي نتوقف عنده، وإن حسن.

عن عبدالله قال: إذا كنتم ثلاثة فأمرُوا أحدكم^(١).

حديث موضوع

وعلى أن بين أيدينا الآن حديثا أورده، وحين كانت رائحة الوضع فيه فائحة! ومن متنه، ولما كانت زاكمة ومن فقهه! ولأن الناس ما فتئوا أن يضعوا أحاديث لإثبات ولاية على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، أو هكذا أوصى بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الذي يحدونا، وأن ندفع، وهو الذي يشي بنا أن نواجه، ولعلمنا في هذا أصيل، ومن أصالة الوضع، والكذب، والبهتان على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

والإمام علي ليس قد كان بعيدا؛ حتى يرد من شأنه هكذا حديث موضوع! وإنما كان قريبا ملازما لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولو

(١) تخریج الإحياء، العراقي: ٣١٤/٢. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن

كان حديثاً ممهوراً بصحته، لكان قد وجد ومن هكذا جانب، ولكن قد جاء حديث صحيح في المسألة، ولا سيما لأهميتها، ومن جانب آخر، وليس لأحد أن يقول بعكس قولنا هذا، وإلا كان مآل قوله هذا هو الطعن في هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه! ولما قد تركنا خياراً هكذا، وأمام مسألة، وإذا إنها من أهم المسائل العظام، والتي يقوم عليها عمارة الدين والدنيا وحراستهما معا.

فعن عبدالله بن مسعود: يا عبد الله! أتاني ملك فقال: يا محمد! {وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} على ما بعثوا؟ قال: قلت: على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب^(١).

أرى أن أجعل لها صداقاً كصداق نسائها لا وكس ولا شطط ولها الميراث وعليها

العدة أربعة أشهر وعشراً

هذا قضاء هذا الولي، وهذا حكم هذا التقي، الخفي، النقي، عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه. وهو فيما يخص امرأة كان قد عقد عليها زوجها، ولما كان قد توفاه الله تعالى، ومن قبل أن يدخل بها، وإذا كان حكمه، ومنطويها على لطائف الحكمة، ولما كان منضوياً تحته لفائف الحجة، وعلى ما يلي:

١- أن لها صداق مثلها من النساء بلا وكس ولا شطط. وهذا عدل الإسلام في الإماء، وفي أقضيته كلها، وأياً ما كان شأن، وجنس الخصوم،

(١) السلسلة الضعيفة، الألباني: ٤٨٨٤. خلاصة حكم المحدث: موضوع

وأيا ما كان شأن وجنس المدعين؛ ولأن الناس وأمام هذا الدين كأسنان المشط سواسية.

٢- وعلى أن هذا هو الذي أسماه الناس؛ ومن فقهم، اعتبار الكفاءة، في الزواج، وهذا الذي نستدعيه، ومن قوله رضي الله تعالى عنه: أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نساءها.

٣- وعلى أنه لا وكس، أي لا ظلم، ولا حيف، ولا انتقاص من حق المرأة، وحين كان توصيف الوضع، وتكييفه على النحو الذي أنف.

٤- وهذا شأن النساء في ديننا، يحطن بسياج الرحمة، ويلبسن كساء الرأفة، وانجبار الخواطر الكواسر؛ وكما يتنشأ مجتمع معطاء باذل، والخلف منه تعالى، ولا ريب.

٥- وكذا، وحين كان الشأن هو ذلكم، وألا شطط، وحين يطالب قوم بما ليسوا يستحقون، وإن كان حالهم هو اعتبار حال، كهذا مغرما، وهو الذي جعل هذا الإمام دقيق الساقين يحيط حكمه، وبمثل سياج النصفة العدل هذا.

٦- وهذه سلطة قاضي الموضوع في الأقضية، وحين يراعي ظروف وملابسات الوضع الاجتماعي الملابس، والموائم، والملائم؛ وكما يتحقق الوفاق، والاتفاق، وكما يتحدد الانسجام الاجتماعي، ولما تكون أحكام القضاء مراعية للواقع الإنساني، وآخذة في أقضيته هكذا البعد المجتمعي.

٧- وهذا الذي يبين منه، كم كانت أحكام ديننا، وأقضيته، متوافقة تماما مع هذا البعد، وهو الذي جعل لها القبول، والإيناس، والاستئناس، والرضا، والقبول.

٨- وحين فرض لها هذا الإمام، التقى، النقي، الخفي، ذو الساقين الدقيقتين، ميراثها، ومن زوجها، ولو لم يدخل بها، عطاء آخر، وفضلا آخر، بل هو حقها، ومما أوجبه الله تعالى. ولنا أن نتصور منظومة قضائية، كان هذا شأنها، ولما يعطها صداق مثلها، من النساء، ولما يمنحها ميراثها، وكزوجة، وهذا الإغداق من الشرع الحنيف على النساء، وإنما يصب في دائرة هذا الاهتمام، الذي أولاه هذا الدين لمعاشر النساء فيه، رحمة ورأفة.

٩- ويكأن هذا الحبر، كان قد فرض لها عدتها أربعة أشهر وعشرا، وحتى ولو لم تكن مدخولا بها؛ ولأن هذا هو حق الله تعالى ابتداءً، ولأن العقد كان مظنة الخلوة، وإن الخلوة لمظنة ما يكون بين الرجل وزوجه، وهذا احتياط هذا الشرع المطهر؛ ولاستبراء الأرحام، وهذا ولاء الشرع المنزل؛ ولمراعاة أوامر الإلف، وعلائق المودة، وحقوق الأزواج، وحين يتوفاهم ربهم سبحانه، وإن كان من خلفهم يعيرون لهذا العشرة حقها، ويعتبرون لهذا المودة جعلها، معنويا وروحيا، ومن ثم كان حقا من حقوق أهل المتوفى؛ وألا ينكسر خاطرهم، ومن بعد وفاة ولدهم، وإنها هي زوجه تحفظ عثرته، ولما لم تستعجل من أمرها، ولاسيما، ونحن أمام هكذا شرع، قد منحها صداقها، وأولاهها ميراثها، وما تبقى إلا أن

تقول قول الوفاء، وإلا أن تعمل عمل الولاء، ومن اعتداها هذه العدة،
ومن انتظارها هذا المدة.

١٠- وعلى أن هذا العبد التقي، النقي، الخفي، ذا الساقين
الدقيقتين، وحين وافق قضاؤه قضاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،
وفي واقعة مماثلة، وكما أخبر الأصحاب الكرام البررة الغر الميامين، يوم
بروع بنت واشق، وحين كان قولهم هذا: نشهد أنك قضيت بمثل الذي
قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة منا يقال لها بَرُوع بنت
واشق.

١١- وهذا الذي يجعل العبد مطمئنا غاية الاطمئنان، وإلى قضاء
أولاء تلاميذ مدرسة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

١٢- ونحن وإبان تناولنا لهذا السيرة النبوية المباركة، وإنما قد
مر بنا الشيء العظيم، ومن هذه الموافقات، بين قضاء هذا النبي، ومن
بين قضاء الولي.

١٣- وإذ ليس قضاء سعد بن معاذ، رضي الله تعالى تعالى، عنا
ببعيد، ويوم كان قضاؤه في بني قريظة، يوم واقعة بني قريظة، وإنما
قد حكم فيهم بحكم الله تعالى، ومن نص قول نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم: لقد قضيت فيهم بحكم الله. وكما روت عائشة أم المؤمنين رضي
الله تعالى عنها أنه: أصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش يقال
له: حبان بن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم
خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو

ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعت، اخرج إليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم: أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. وفي رواية: أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له؛ حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب، فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبتة، فلم يرعهم -وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه^(١).

١٤- وهذا الذي كان موجه ان يرح سعد وكما كان من سببه أن يسر عبد الله بن مسعود وحين وافق حكمهما حكم السماء ومن شهادة النبي ومن واقعة سعد ومن شهادة الاصحاب ومن حادثة أروع.

عن علقمة بن قيس: أن قوما أتوا عبد الله بن مسعود، فقالوا له: إن رجلا منا تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يجمعها إليه حتى مات، فقال لهم عبد الله رضي الله عنه: ما سئلت عن شيء منذ فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد علي من هذه، فأتوا غيري قال :

(١) صحيح البخاري: ٤١٢٢

فاختلفوا إليه فيها شهرا، ثم قالوا له في آخر ذلك : من نسأل إذا لم نسألك وأنت أخية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في هذا البلد ولا نجد غيرك، فقال : سأقول فيها بجهد رأيي، فإن كان صوابا فمن الله وحده لا شريك له وإن كان خطأ فمني والله ورسوله منه بريء أرى أن أجعل لها صداقا كصداق نساءها لا وكس ولا شطط ولها الميراث وعليها العدة أربعة أشهر وعشرا قال: وذلك بسمع ناس من أشجع فقاموا فقالوا: نشهد أنك قضيت بمثل الذي قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق، قال: فما رأيي عبد الله فرح بشيء ما فرح يومئذ إلا بإسلامه، ثم قال: اللهم إن كان صوابا فممنك وحدك لا شريك لك، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه بريء^(١).

كان عمر إذا سلك بنا طريقا وجدناه سهلا

هذا خلق هذا الجيل، الفريد، العتيد، التليد، راية دفء، وآية إلف، ولما كان هكذا وصف أحدهم لأحدهم، وإنما يتقاطر الإحسان ومن بين أفواههم، وحين يقولون قولاً، كهذا الذي نطق به ألسنتهم، وكان حقاً ما تنزل فيه من قرآن مبين عظيم أيضاً، وحين جاء ذكرهم، وثناؤهم، وإطراؤهم، ومدحهم، وذكر مناقبهم، أمة السجايا الحسنة الفضيلة، ورعيل الفضائل الشميلة النبيلة، وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه ﷺ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ

(١) السنن الكبرى للبيهقي، البيهقي: ٢٤٥/٧. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ
مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ
لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه شهادة هذا الحبر، النقي، التقى، الخفي، ذي الساقين الدقيقتين،
وفي أخيه عمر الفاروق، رضي الله تعالى عنهما، وحين قال ابن مسعود: كان
عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، وأعرفنا بالله، والله لهو أبين من
طريق الساعين . يعني أن هذا أمر بين يعرفه الناس^(١).

وقال ابن مسعود أيضا: إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر، كان إسلامه
نصرا، وإمارته فتحا^(٢).

وهذا حكم سيدنا الإمام، البر، الكريم، الحليم، الأواه، الأواب، عمر
الفاروق، رضي الله تعالى عنه، ومن ميراث امرأة كان قد توفي عنها زوجها،
والحال أنه ترك معها أبويه.

وإذ كان حكمه رضي الله تعالى، وأن توزع التركة أربعة أجزاء، وإنما
جعل للزوجة جزءا، وهو الربع، وعلى اعتبار أن الحال أنه لا ولد لها منه،
وإنما جعل للأُم ثلث الباقي، وهو سهم، وللأب الباقي، وهو سهمان.

(١) منهاج السنة، ابن تيمية: ٥٨/٦، خلاصة حكم المحدث: إسناده ثابت.

(٢) منهاج السنة، ابن تيمية: ٥٨/٦. خلاصة حكم المحدث: إسناده ثابت.

وهو قوله تعالى: (وورثه أبواه فلأمه الثلث). فلما وجد نصيب الام الثلث، وكان باقي المال هو الثلثان للأب، قاس النصف الفاضل من المال بعد نصيب الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين ابن أو ذو سهم، فقسمه بينهما على ثلاثة، للأُم سهم وللأب سهمان وهو الباقي. وكان هذا أعدل في القسمة من أن يعطي الام من النصف الباقي ثلث جميع المال، وللأب ما بقي وهو السدس، ففضلها عليه فيكون لها وهي مفضولة في أصل الموروث أكثر مما للأب وهو المقدم والمفضل في الأصل. وذلك أعدل مما ذهب إليه ابن عباس من توفير الثلث على الام، وبخس الأب حقه برده إلى السدس، فترك قوله وصار عامة الفقهاء إلى زيد. قال أبو عمر: وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه في زوج وأبوين: للزوج النصف، وللأم ثلث جميع المال، وللأب ما بقي. وقال في امرأة وأبوين: للمرأة الربع، وللأم ثلث جميع المال، والباقي للأب^(١).

عن عبدالله بن مسعود كان عمر إذا سلك بنا طريقا وجدناه سهلا وإنه أتى في امرأة وأبوين فجعل للمرأة الربع وللأم ثلث ما بقي وما بقي فللأب^(٢). وعن زيد بن وهب الجهني أن رجلا أقرأه معقل بن مقرن أبو عميرة آية، وأقرأها عمر بن الخطاب آخر، فسألا ابن مسعود عنها، فقال لأحدهما: من أقرأكها؟ قال: أبو عميرة بن معقل بن مقرن. وقال للآخر: من أقرأكها؟ قال: عمر بن الخطاب. فبكى ابن مسعود حتى كثرت دموعه، ثم قال: أقرأها

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٥ / ٥٧

(٢) إرشاد الفقيه، ابن كثير: ١٣٢/٢. خلاصة حكم المحدث: أسانيده جيدة.

كما أقرأكها عمر ؛ فإنه كان أقرأنا لكتاب الله، وأعلمنا بدين الله. ثم قال: كان عمر حصنا حصينا على الإسلام يدخل في الإسلام ولا يخرج منه، فلما ذهب عمر انتلم الحصن ثلثة لا يسدها أحد بعده. وكان إذا سلك طريقا اتبعناه ووجدناه سهلا، فإذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر، فحيهلا بعمر، فحيهلا بعمر^(١).

تعتق أم الولد من نصيب ولدها

وكل مملوكة حملت من سيدها فأسقطت شيئا يدرى أنه ولد ، أو ولدته : فقد حرم بيعها وهبتها ورهنها والصدقة بها وقرضها ، ولسيدها وطؤها واستخدامها مدة حياته ، فإذا مات فهي حرة من رأس ماله ، وكل مالها فلها إذا عتقت ، ولسيدها انتزاعه في حياته ، فإن ولدت من غير سيدها بزنا ، أو إكراه ، أو نكاح بجهل : فولدها بمنزلتها إذا أعتقت عتقوا^(٢).

وعن زيد بن وهب الجهني: انطلقت إلى عمر بن الخطاب أسأله عن أم الولد قال مالك إن شئت بعت وإن شئت وهبت ثم انطلقت إلى ابن مسعود فإذا معه رجلان فسألاه فقال لأحدهما من أقرأك قال أقرأنيها أبو عمرة وأبو حكيم المزني وقال الآخر أقرأنيها عمر بن الخطاب فبكى ابن مسعود وقال اقرأ كما أقرأك عمر فإنه كان حصنا حصينا يدخل الناس فيه ولا يخرجون

(١) منهاج السنة، ابن تيمية: ٦٦/٦. خلاصة حكم المحدث: إسناده ثابت.

(٢) المحلى، ابن حزم: ج ٩ / ٢١٧

منه فلما أصيب عمر انثلم الحصن فخرج الناس من الإسلام قال زيد وسألته
عن أم الولد فقال تعتق من نصيب ولدها^(١).

ذاك الأواه

ولم يقف ثناء هذا العبد، التقي، النقي، الخفي، ذي الساقين
الدقيقتين، وعند عمر الفاروق وحده، وإنما كان هذا سبيله، وحيثما ذكر
المتقون، ومن إخوانه السابقين، من الأولين، ذوي الفضل، والجود، والنماء،
والهدى، والتقى، والعفاف، والغنى، وحين كان ذا وصفه... لهذا الشيخ
الكبير، أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، صاحب الفضل والمروءات، وذي
العطاءات، والمنح، والأفضال، والكرامات، ومن يوم أن أسلم، بل ومن قبله،
وإلى أن لقي ربا، كان عنه راضيا سبحانه.

وهذا حس رجل، كابن مسعود، وتجاه إخوانه، الصحب، الغر، الكرام،
البررة، الميامين، وإذ أغدق عليهم ثناء، ولما كانوا أحق به، وبثنائه، وزيادة
فضل، وإنما أذكره، قلادة في الأعناق؛ وليقف عليها أيضا كل عبد منيب،
وليغض طرفا عن ثلم من أخيه، ولا يذكرن عيبا رآه فيه، وإنما يذكر،
وينشر، ويفوح طيب مسك سيرته، ومن أفواه إخوانه؛ إشاعة لمجتمع الخير،
والفضل، والبذل، والمثل العليا، السامة، السامية، الرفيعة.

فعن عبدالله بن مسعود: أن سعيد بن زيد قال يا أبا عبد الرحمن قبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين هو قال في الجنة قال توفي أبو بكر فأين

(١) المحلى، ابن حزم: ٢١٨/٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده في غاية الصحة.

هو قال ذاك الأواه عند كل خير يبتغى قال توفي عمر فأين هو قال إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر^(١).

وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين

هذا قول مأثور عن العبد التقي النقي الخفي ذي الساقين الدقيقتين عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وهو قول يقف بنا على أهمية القراءة، لهذا الكتاب المجيد، القرآن الحكيم، وعلى وجهها، الذي نزلت بها، ولما كان قد تنزل هذا القرآن العظيم، على سبعة أحرف، ومن مقتضى حديث عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟! قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: كذبت؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٨١/٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

وسلم: كذلك أنزلت؛ إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه^(١).

ولما كانت هذه القراءات موافقة للهجاء العرب يومهم هذا؛ وبرهان أن هذا الكتاب، وإذ ليس على يقف على قراءته، وإلا ذو علم وبصيرة به، وبقرائته، وأحرفه؛ ولئلا يفتتن الناس، وهذا الذي جعل الإمام، الأمير، الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، يأمر الناس بالاتفاق على مصحفه الموسوم ب: مصحف عثمان؛ ولئلا يختلف الناس، وهذا جانب، ولحفظ هذا الكتاب من الاندساس، وهذا من جانب ثان، وهذا علم على حفظه تعالى لكتابه المجيد، ولما قيض الله تعالى ثلة من الأولين، وهكذا حفظه، وكتابته. وهذا جانب ثالث.

وعلى أن أسماء سور القرآن المجيد، وإذ كانت توقيفية، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ ليس منه ورود ما يشي أن أسماء آخر لهذه السورة أو تلك، وإذ ليس يكون ذلك علما عليها، أو بمعنى آخر، لا تذكر إلا بهذا الاسم الذي كان علما عليها.

ومنه ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى، أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة، فذكر نبي الله صلى الله عليه وسلم، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال:

(١) صحيح البخاري: ٤٩٩٢

يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟! وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن، ومن لا يقرأ القرآن^(١).

ومنه هذا الذي بين أيدينا الآن، ومن سورة الأحقاف، ولما أخبر عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، أن لها ثلاثة أسماء، وإذ يشاركها غيرها في اثنتين منها، وكونها من الحواميم، أو من آل حم، وكونها من ذوات الثلاثين أيضا، وهذا الذي جعلنا نقول وألا تنادى بها، ولاشترакها مع غيرها، وفي هذه التسمية أيضا؛ ولأنه حسن، وأن يشار إلى السورة بعلميتها؛ تحديدا لها، ووقوفا عليها، يسرا، وسهولة؛ وكما يتبقى أثر الإعجاز قائما، وإذ كان منه هو هذا الذي بين أيدينا، وحين كانت السورة علما، ومن اسمها الموسومة به، ومنه سورة الأحقاف.

وعلى أنه رضي الله تعالى عنه أشار، وأن كل سورة كانت قد بلغت الثلاثين، أو أكثر منها، ولما لم تبلغ المئتين، وإنما أسميت ثلاثين.

فعن عبدالله بن مسعود أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من آل (حم) وهي الأحقاف قال: وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين^(٢).

(١) صحيح مسلم: ١٦١٧

(٢) الدر المنثور، السيوطي: ٣٠٩/١٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد

سجود السهو

وعلى أن هذا حديث، رواه هذا العبد التقي النقي الخفي ذو الساقين الدقيقتين عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وحين كان متعلقا بسجود السهو، وهذا جانب، ولما كان متعلقا بتتبع الناس يومهم هذا لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحرصهم على هذا الاهتداء سطرا سطرا، وهذا جانب ثان، وإنما كان حرصهم على البلاغ، بما قد وقفوا عليه أيضا. وهذا جانب ثالث. وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه كل عبد صالح، وإذ وجب البلاغ، وحيثما كان من أمره تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه بإحسان أيضا، ومن مقتضى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]. ولما كان من قوله صلى الله عليه وسلم: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار^(١).

ويكأن هذا سجود السهو، وإنما ينعقد، وحين ينعقد سببه، وحين تكون حالة السهو، أو النسيان، وعلى حد وصف عبد الله بن مسعود، وحين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، وعما إذا كان قد زيد، أو قد نقص من الصلاة شيء، وهذا فقه الناس يومهم هذا، وهذا أدبهم، وهذا حسن خلقهم، وإنما يسألون سؤال المتعلم، لا المتهجم!

(١) صحيح البخاري: ٣٤٦١

وإنما كان ابتداره صلى الله عليه وسلم ومن قوله: ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني. وهذا دلالة على البشرية، وإنه ما من نبي كان من وسعه أن يخرج عن هذه البشرية، من شيء؛ ولأنه الله تعالى كان قد قضى، ومن فوق سماواته، وأن يكون النبي بشرا، وعنه عشيرته يفهمون، ويتلقون، وليكون البيان أحسنه، وأجمله، وأتقنه؛ وكما لا يكون للناس قول؛ مدعاة للخروج، أو الاستدبار، أو النكوص؛ وتعلة عدم الفهم، ومن قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وإنما كان موجز سجود السهو هذا أنه، ومن حيث وإذا شق عليه، وإذا مازال السهو حاضرا، والنسيان قائما، وإنما تنجبر صلاته، ومن سجوده السهو هذا، وحين كان من سببه، وأنه للشك، أو للزيادة، أو للنقصان، ولما كان حاصله سجود السهو هذا، ومن حيث قد ذكره الساهي، وبرهان سجوده صلى الله عليه وسلم، وحين سألوه.

وعلى أن هيئته، وأن يستقبل القبلة، ويسجد سجدتي السهو هاتين، ثم يسلم، ومن بعدهما، وعلى هيئة الصلاة؛ ولأن السجود جزؤها.

وعلى أنه يبني العبد على يقينه، ومن بعد اجتهد في هذا الشأن، ومن ثم وإذا أعياه اجتهداه، وإنما ينجبر؛ ومن سجوده للسهو كما أنف.

وعلى أن هذه هي قيمة صلاتنا هذه، ومن شرعنا اهتماما، وحرصا، وقيامًا، وأداء؛ ولأنها صلتنا بمولانا الله تعالى الحميد المجيد، وحيثما كانت

رباط- معاشرنا- أهل الأرض، بربنا تعالى، الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، وهو الحكيم العليم، وكما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [الزخرف: ٨٤ و٨٥].

فعن عبدالله بن مسعود صلى النبي صلى الله عليه وسلم - قال إبراهيم: لا أدري زاد أو نقص - فلما سلم قيل له: يا رسول الله، أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك، قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجله، واستقبل القبلة، وسجد سجدتين، ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهه، قال: إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبأكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته، فليتحر الصواب فليتم عليه، ثم ليسلم، ثم يسجد سجدتين^(١).

إذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت

هذا حكم عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، ومن بعد حكمه تعالى، وإذا إنه تعالى يحكم، ولا معقب لحكمه؛ ولأنه الله تعالى قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ولكن هذا الذي قاله ابن مسعود، وإنما أعده، ومن باب تفسير هذه الكريمة، وحين قال الله تعالى ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. ولأنه بعد، بل وأحيل على هكذا جنس، أن يستدرك على مولاه، أو يقول قولاً ليس يحتمله آيه ومعناه. وهذا على سبيل العمد، وإذا كان حاشاهم هذا، وهذا على سبيل الخطأ، وإنما يرد على كل بني آدم، ولما كان من سننهم هذا. ولما كان هذا الخطأ، أو هذا النسيان، أو هذا الاستكراه، ومما قد تجاوز الله تعالى، لهذه الأمة عنها فيه.

بيد أن هذا الحكم، هو الذي يقتضيه ظاهر النظم القرآني، ولما كانت عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، وإنما تنتهي، وبوضعها حملها هذا، ولأنه قد تحققت براءة رحمها، والشأن هذا أمرها.

فعن ابن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما أنزلت: { وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها إذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت^(١).

إذا رميت طيراً، فتردى من جبل، فمات، فلا تطعمه، فإني أخاف أن يكون

التردي قتله

وهذا حكم ما لو رمى أحدهم طيراً، فتردى من جبل، أو غرق في الماء، وإنما ليس يحل له؛ ولأنه يحتمل أنه قد مات حتفه، ومن سبب التردي، لا الرمي، وكذا الغرق، لا الرمي.

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٣٥٢٢

وقال مالك: أنه سمع أهل العلم يقولون إذا أصاب الرجل الصيد فأعانه عليه غيره من ماء أو كلب غير معلم لم يؤكل ذلك الصيد إلا أن يكون سهم الرامي قد قتله أو بلغ مقاتل الصيد حتى لا يشك أحد في أنه هو قتله وأنه لا يكون للصيد حياة بعده.

قال أبو عمر: قول مالك قول صحيح على ما شرط؛ لأنه شرط حتى لا يشك أحد أن السهم قتله، وأن لا تكون له حياة بعد، وإذا كان هكذا ارتفع معنى الخلاف؛ لأن المخالف لم يحمله على قوله إلا خوف أن يعين الجارح غيره، على ذهاب نفس الصيد، والله أعلم.

ولا أعلمهم يختلفون فيمن فرى أوداج الطائر أو الشاة وحلقومها ومريئها، ثم وثب فوقعت في ماء، أو تردت بعد أنها لا يضرها ذلك. ولا خلاف عن مالك: أنه إذا أعان على قتل الصيد غرق، أو ترد، أو كلب غير معلم، لم يؤكل.

قال وإن وقع من الهوي على الأرض فمات، ووجدت سهمك لم ينفذ مقاتله لم يؤكل، وأما قول الفقهاء في هذه المسألة، وما كان في معناه، فقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما: إذا رمى الصيد في الهوي، فوقع على جبل فتردى، ومات لم يؤكل؛ لأنه لم يؤتمن أن يكون التردى قد أعان على قتله، مع إنفاذ المقاتل، ولو وقع مع إنفاذ المقاتل على الجبل والأرض فمات مكانه أكل، وإن وقع في ماء لم يؤكل.

وقال الأوزاعي: وفي الوعل، يكون على شرف، فيضر به الطائر، فيقع، لا يأكله؛ لأنه لا يؤمن أن يموت من السقطة. وقال في طائر رماه رجل وهو

يطير في الهواء فوق في ماء: لا يؤكل. قال: وإن وقع على الأرض ميتا أكل، وروي عن بن مسعود أنه قال إذا رمى أحدكم طائرا، وهو على جبل، فخر فمات، فلا يأكله؛ فإنني أخف أن يكون قتله ترديه^(١).

لكن الإمام الظاهري ابن حزم رحمه الله تعالى له مذهبه، وعنده مسببه، وحين قال: وروينا عن ابن عباس فيمن رمى الصيد فوجد فيه سهمه من الغد قال: لو أعلم أن سهمك قتله لأمرتك بأكله، ولكنه لعله قتله ترديه أو غيره * وعن ابن مسعود إذا رمى أحدكم طائرا وهو على جبل فخر فمات فلا تأكله فإنني أخاف أن يقتله ترديه أو وقع في ماء فمات فلا تأكله فإنني أخاف أن يكون قتله الماء، ومثله عن طاووس. وعكرمة قال: إذ وقع في الماء قبل أن تذكيه * وعن الشعبي أنه لم يأكل من لحم طير رمى فوقه في ماء فمات * وعن عطاء في صيد رمى فلم يزل ينظر إليه حتى مات. قال: كله فان توارى عنك بالهضاب أو الجبال فلا تأكله، إذا غاب عنك مصرعه. فإن تردى أو وقع في ماء، وأنت تراه فلا تأكله.

وأما المتأخرون، فان أبا حنيفة قال: إذا توارى عنك الصيد والكلب وهو في طلبه، فوجدته، وقد قتله، جاز أكله. فلو ترك الرجل الكلب، واشتغل بصلاة، أو عمل ما، ثم رجع إلى الكلب، فوجد الصيد مقتولا، والكلب عنده، كره أكله.

وقال مالك: إذا أرسل كلبه أو سهمه فأدركه من يومه فوجده ميتا وفيه جراحة أكله، فان بات عنه لم يأكله.

(١) الاستذكار، ابن عبد البر: ج ٥ / ٢٧٠

وقال الشافعي: القياس إذا غاب عنه أن يأكله.

قال أبو محمد: هذه أقوال ساقطة؛ إذ لا دليل على صحة شيء منها. والمفترض طاعته هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول ما رويناه من طريق أبي بكر بن أبي شيبة نا عبد الأعلى - هو ابن عبد الأعلى الثعلبي - عن داود بن أبي هند عن الشعبي أن عدى بن حاتم قال: يا رسول الله أحدنا يرمى الصيد فيقتفى أثره اليومين والثلاثة ثم يجده ميتا وفيه سهمه أياكل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ان شاء أو قال: يأكل إن شاء.

ومن طريق أحمد بن حنبل نا هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن عدى بن حاتم: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: يرمى أحدنا الصيد فيغيب عنه ليلة أو ليلتين فيجده، وفيه سهمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا وجدت سهمك، ولم تجد فيه أثرا غيره، وعلمت أن سهمك قتله فكله. قال علي: إذا وجد سهمه قد أنفذ مقتله فقد علم أنه قتله. وبالله تعالى التوفيق^(١).

وأقول: وعند تأمل الأقوال، فلا ثمة تعارض وجد. والله الحمد.

وقولنا هذا مستفاد ومن قول الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى أنفا: ولا خلاف عن مالك: أنه إذا أعان على قتل الصيد غرق، أو ترد، أو كلب غير معلم، لم يؤكل.

(١) المحلى، ابن حزم: ج ٧ / ٤٦٤

فعن ابن مسعود قال: إذا رميت طيرا، فتردى من جبل، فمات، فلا تطعمه؛ فإنني أخاف أن يكون التردي قتله، وإذا رميت طيرا، فوقع في ماء، فلا تطعمه؛ فإنني أخاف أن يكون الماء قتله^(١).

وإن محمدا صلى الله عليه وسلم علم فواتح الخير وخواتمه

هذه تزكية أولاء الصحب الكرام الغر الميامين، لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، أمة كانوا ينطقون بالحق، وبه يعدلون، وإنك لتكاد تراهم نصفة، ومن قيلهم، ومن عدلهم، ومن رأيهم، ومن فقههم.

وعلى أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين كان آية وحده، وحين جاءنا بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله.

وعلى أن فواتح الخير كلها، وإنما كان بيده صلى الله عليه وسلم، وكذلك، وإن مغاليق الشر كله، وإنما كانت منه أيضا، وذلك لأنه الله تعالى قد أكرمه بلسان الصدق، وفهم الصدق، وقول الصدق، وعمل البر أيضا.

وإنما كان ذلكم، ومن وحي، وقد أمكن، ومن إلهام، وقد كان أيضا، ومن إلقاء في روعه، وقد كان أسهل، وأيسر، وحين كان كل ذلكم يأتيه صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه رسول الهدى، والتقى، والبر، والسلام، والسلم، والأمن، والأمان، والإسلام، والنور، والفلاح، والصلاح، والنجاح، والسرور، والنور، والحبور، ولذا؛ فقد كان ممكنا أن يتحلى، وبكل هذا المصادر، وقد ممكنا وحرى أن يتزيا، وبكل هذا المظاهر، وينفعها الذي جاءت به، فينتفع الناس،

(١) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري: ٢٨٠/٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

ويهتمدون، وإنما جاءت هذا المصادر مغاليق للشر، وبيان أبوابه، ودواليبه، وتتبعها، واحدة واحدة، وحتى إنه لم يتبق شر، وإلا قد بينه، ونهى الناس عنه، وحتى وكما أن لم يتبق من خير، وإلا دل الأمة عليه أيضا، وأمرها به، وهذا كان من مقتضى فهمنا لقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وعلى أن هذا هو اجتهد الناس يومهم هذا، في شأن الصلاة؛ ولما لم يكونوا يعرفون، ولعله؛ ولعدم نزول وحي في هذا معالجا، مسبرا، مبينا، شافيا، كافيا، واقيا، وإذ كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر وحيا من السماء؛ ولأنه وحتى وكونه الرسول النبي، وإلا أنه لم يكن يعمل، وإلا من وحي، ومنه كان انتظاره، ولما كان فيه صلاح عمل العبد، وقبل علمه بالهدى.

وهذا قبل تنزل الوحي، وأما بعد تمام المنة، وإكمال الملة، وإتحاف المنحة، فليس لأحد زهائه وإلا اجتهدا، مبنيا على أصول الشريعة، وقواعدها، وإلا راح الناس صوبا وحدا، ولا تكاد تجدهم مهوورين برباط المنهج، وسواء السبيل.

واستدل بذلك على أن كلام الجاهل لا يبطل الصلاة؛ فإن هذا الكلام منهى عنه في الصلاة وغيرها؛ فإن الله تعالى هو السلام؛ لأنه القدوس بالمبدأ

من الآفات والنقائص كلها، وذلك واجب له لذاته، ومنه يطلب السلامة لعباده ؛ فإنهم محتاجون إلى السلامة من عقابه وسخطه وعذابه^(١).

وعلى أنه هكذا بيان النبي محمد صلى الله عليه وسلم، للتشهد الأول من صلاتنا، وإذ بك تراه متضمنا مجامع الخير كله، دقيقه، وجليله، وإذ بك تراه يروح بك بعيدا بعيدا في أعماق هذا التوحيد، وهو ذلكم الرباط، وهو ذلكم المنهج، الذي قد جاء أول ما جاء، وإنما جاء به، ومن أجله، وله، صلى الله عليه وسلم، ولذا؛ فقد كان حريا أن يكون ذكرا، دائما، ميسورا، متوصلا، على السنة العباد، ومن أحوالهم، ومن قلوبهم، ومن جوارحهم، فيعيشونه، ويعملونه، ويفعلونه، دينا قيما كان لله تعالى كله، ومن مقتضى قول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وعلى أن هذا التشهد، وإنما كان متضمنا لهذا السلام، وهي رسالة هذا الدين، وأن يبسط السلام أجنحته على البشر، وعلى البسيطة أيضا، وإذ ليس يكاد يخلو منها شبر أو قيد شيء إلا تراه مترنما ترنيمة السلام، والهدى، والبر.

وعلى أن الناس قد راحوا، وفصلوا، وبينوا، وقعدوا، ووضحوا، في ماهية هذا السلام؛ ومن أهميته، وإن كان الذي قلناه شاملا، كافيا؛ ولأن السلام هذا، وأيا ما كان مصدره، ومعناه، وفحواه، وإنما هو هذا النتاج لقولنا السلام. ولئن رحنا وقلنا إنه من أسمائه تعالى، وإذ ليس بعيدا، بل قريبا؛

(١) فتح الباري، ابن رجب: ٧٤/٦

ولأن اسم السلام، وكائنا ما ذهبنا به تأويلا، أو تفسيرا، أو تبينا، أو توضيحا، وإنما لسوف يصب في هذا الجهة، ولن يبعد عنها شيئا.

ولكنك تشهد، وكما أنني أشهد هذا الإخلاص، وهذا التجرد من لدن هذا العبد، القانت، الخاضع، الخاشع. وهو إذ تراه متوشحا وشاح الهدى، والصلاح، والخير، والسداد، وهو إذ يرجو نجاة، وتحية، إخوانه من الصالحين ركبا جميلا، مهتديا، وهم أولاء يبادلون بعضهم بعضا هذه التحايا، وهم أولاء يرجون كلهم، رحمة ربهم كلها، ولكلهم أيضا.

ولكنك رأيت ثم رأيت هذا الدعاء، والمأمور به، وحين كان انتهاء العبد من التشهد في الصلاة، وزيادة خير، وحين كانت الصلاة نفسها دعاء، وليتم الله تعالى نعمته، ومنته، ومنحته، على أولاء العبيد، وحين كان من أمرهم هو هذا التفاعل، وهو هذا التذلل، وإنهم أولاء وهام يدعون ربهم سبحانه، بالغداة والعشي، وبكرة وأصيلا، ومن صلاتهم آناء الليل وأطراف النهار أيضا، قيمة لهذا الدعاء، وشارة على هذا الإيثار، والمحبة لله تعالى، وفيه سبحانه أيضا.

ويكأنك وقفت، وعلى كم كان لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن نصيب في هذا السلام؛ ولأنه سبب خير كان الناس فيه، ولأنه إمام هدى، ولما كان للناس إماما فيه أيضا، ومنه فقد كان قمنا إذا أن يتنزل وحي يذكره؛ وكما يكون الناس، وعلى تذكرة به أيضا، آناء الليل وأطراف النهار، وسبيلا إلى الهدى، وسببا إلى النجاة، وعنوانا على الخير، وإماما للمتقين،

وشفيعا للمؤمنين، وحين كان هو هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم،
وحين كان قد ادخر شفاعته للعبيد المساكين، وليوم لقاء رب العالمين .
ولكن هذا التشهد الأول، وحين كان به مأمورا، وإلا أنه يسقط للسهو،
وبه ينجر بسجود السهو أيضا.

وإلا أن هذا التشهد، وإنما كان مقصودا به الأول؛ ولقوله صلى الله
عليه وسلم: إذا قعدتم في كل ركعتين، وبه دل على ما أنف، وإلا ركعتي
الفجر، وإلا من قصر في سفر. فيكون هو الأول والأخير أيضا، وكذا نوافل
الصلوات الثنائية الركعتين.

وعلى أن هذا التشهد الأوسط وإذا كان واجبا حكمه؛ ولأن أصل الصلاة
كان ثنائيا ومن ثم فليس يسقطه ما تلاه ومن زيادة. ولقوله صلى الله عليه
وسلم، وفي رواية أخرى للنسائي بلفظ: فقولوا في كل جلسة.

وعلى أن الأمر بالتشهد شيء، والأمر بالجلوس له شيء آخر؛ واختلاف
الناس في هذا الوجوب، ومن كونه ينجر بسجود السهو، ولو كان واجبا
لوجب الإتيان به، وبما بعده، وكما هو معروف في بابه. وقال الإمام
الشوكاني رحمه الله تعالى: باب الأمر بالتشهد الأول وسقوطه^(١).

ولا يخفى ما في هذا التعقب من التعسف، وغاية ما استدل به القائلون
بعدم الوجوب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترك التشهد الأوسط ولم
يرجع إليه، ولا أنكر على أصحابه متابعتهم في الترك وجبره بسجود السهو،

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٢ / ٣٠٣

فلو كان واجبا لرجع إليه وأنكر على أصحابه متابعتة، ولم يكتف في تجبيره بسجود السهو، ويجاب عن ذلك بأن الرجوع على تسليم وجوبه للواجب المتروك إنما يلزم إذا ذكره المصلي وهو في الصلاة، ولم ينقل إلينا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكره قبل الفراغ، اللهم إلا أن يقال: إنه قد روي أن الصحابة سبخوا به فمضى حتى فرغ كما يأتي، وذلك يستلزم أنه علم به وترك إنكاره على المؤمنين به متابعتة إنما يكون حجة بعد تسليم أنه يجب على المؤمنين ترك متابعة الامام إذا ترك واجبا من واجبات الصلاة وهو ممنوع، والسند الأحاديث الدالة على وجوب المتابعة، وتجبيره بالسجود إنما يكون دليلا على عدم الوجوب إذا سلمنا أن سجود السهو إنما يجبر به المسنون دون الواجب وهو غير مسلم. والحاصل: أن حكمه حكم التشهد الأخير وسيأتي، والتفرقة بينهما ليس عليها دليل يرتفع به النزاع^(١).

فعن عبدالله بن مسعود: كنا لا ندري ما نقول في كل ركعتين، غير أن نسبح ونكبر ونحمد ربنا، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم علم فواتح الخير وخواتمه، فقال: إذا قعدتم في كل ركعتين، فقولوا: التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وليتخير أحدكم من الدعاء أعجبه إليه، فليدع الله عز وجل^(٢).

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٢ / ٣٠٥

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ١١٦٢

ورواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن مسعود أيضا، بلفظ: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه، فيدعو^(١).

وعلى أن هذا التشهد؛ ولأهميته، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم إياه، وكما يعلمهم السورة من القرآن؛ لأنه وبالطبع ركن الصلاة، وإن لا صلاة للعبد بغيره.

فعن عبدالله بن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن فكان يقول: التحيات المباركات، الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. وفي رواية ابن رمح: كما يعلمنا القرآن^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٨٣٥

(٢) صحيح مسلم: ٤٠٣

إن الله لا يقدر أن لا يعطون الضعيف منهم حقه

هذه قاعدة هامة من قواعد هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحين كانت المساواة بين الناس، وإذ هي القائمة، ولما كانت النصفة بين الرعية، وإذ هي السائدة. وإذ ليس من قدر هذا الدين، وإلا أنه وما جاء وإلا لإقرار هذه النصفة، ولإعمال هذه العدالة، بين الناس، وإذ ولما كان الناس تتقاذفهم ألتهتهم شتى، ومنه فقد كانت كرامة هذا الإنسان تحت أقدام الآلهة المدعاة، وحين كانوا قد استلبوا حق الألوهية هذا، وإليهم أسندوه، وما هم بحامله، ولا هم بقادريه، ولا هم بمطيقه، ولا هم بأهليه! وإنما كانوا خلقا، ومن مثل أولاء الرعية المساكين، ومن أمثال هذا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وهو ذلكم العبد، النقي، التقى، الخفي، وإلا أن ما كان يعيبه في نظر القوم، هو هكذا دقة ساقه، وإن هذا ليس من ديننا من عيب، بل وليس عيبا في عداد العقول الرشيدة، والأفهام السديدة، وحين كانت المفاضلة، لا أساس شيء من هذا، ولا لون، ولا جنس، ولا طول، ولا قصر، ولا خلافه، وإلا شيئا واحدا، هو ذلكم التقوى والعمل الصالح.

ولكن ثلثة من الناس، وإذ بقيت فيهم، ولو شعيرة من عيبة، وحين اعترضوا نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم؛ ولعطائه عبد الله بن مسعود، نصفة، وعدلا، ومن حقه، وكما أعطى غيره! وإلا أنه كان سببا في قيام القيامة، وعلى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكما يبعده عن هكذا مجالس الطهر، والعفاف، والزكاء، والحنو، والحلم، والعفو، والصفح، وقيمة الإنسان، وقدره، وبما يليق بكونه عبدا، وإذ ليس عبدا لأحد سوى

مولاه، وخالقه، ورازقه، وموجده أول مرة، سبحانه. ولما كان طلبهم أن ينكبه عنهم؛ ولأنه دقيق الساقين!

وإلا أن حزم هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، كان فاصلا، وإلا أن قسطه كان حاسما، ولما كان قائما عادلا، وحين يقف، ومن أمام هكذا لوثة، ولولاه قد وقف وقفته هذه، وحين سجلها له التاريخ، لستشرت في جسد الأمة، فأهلكتها. ولا سيما أن الناس، ومهما طال بهم زمانهم، وإلا أنهم أولاء قد اعتادوا شيئا من هذه المهانة، والذلة، والخضوع، وحين جاء هذا الدين؛ ليخلصهم منها، وليبرئهم منها أيضا؛ ولأنها لوثة، وتظل عيبة في جبين هذه البشرية، وحين تضيع، ومن أمامها القيم، والموازين، والأصول، والتصورات، والقيم، والههم، والعدل، والنصفة.

وهذا الداء، وإذ كان مستشرى في أجساد الناس، ومن قبل هذا الدين الحنيف الإسلام الخالد، ولماذا تتبقى له من هكذا لوثة بقية، وها هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يعلنها، وإلا أنه، وما جاء؛ وإلا لكبت هذا، ولل قضاء عليه، ودك حصونه واقتلاع جذوره، وإنفاذ قوة الشرع المحكمة، وحين أعلى قيم الحق، والعدل، والنصفة، والمساواة.

وأنت خير، بهكذا بقية من لوثة، وحين كان من واقعة هذه المرأة المخزومية، وما شاكل واقعتها تلك، ومن قيام هذا الدين، قوة الحزم، والحسم، والقرار الإداري النافذ، وألا ييقين، ومن مثل هذا من شيء، وفي هذا المجتمع المسلم، الطاهر، النقي، الأبى.

وعلى أن هذه أفراد، وإن ما ترك لنا التاريخ من ذلكم من شيء، يعد عضالا عاما، وإنما كانت الحسنة، وأن يؤتى على هذا الاستثناء، ولو كان قليلا، أو بصيصا؛ وكيفا لا يستشرب عضاله، وألا يمتد أمده، أو ان يتسع خرقة، فيستعصي على الإخماد ويتأبى على القهر، والإطفاء، والإتيان. وحتما لا يتعدى ضرره. أو أن ينكشف عواره، أو يصعب إسدال ستاره. ورفع حجابيه.

وأنت خير بهذا ربعي بن عامر، وحين قد أداها عالية، خفاقة، مرفرفة، وأنه ما جاء ديننا هذا؛ وإلا لإخراج العباد ومن عبادة العباد، وإلى عبادة رب العباد سبحانه. وحين واجه صناديد الكفر، والظلم، والحيث، والجور، وإن كان زعيمهم رستم يومه هذا، ومن قول سجله له التاريخ، قولا نصفة، عدلا، سمحا، حسما، حزما، عدلا، وحين قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لدعوههم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه حتى نفىء إلى موعود الله^(١).

بل وكان قد سبقه غيره، ومن أولاء الأفذاذ، ويوم هجرة الحبشة الأولى، والناس وإن مازالوا على حداثة عهد بدينهم الأول، وإلا أن انصهارهم في بوتقة هذا الدين كان عاليا، ساميا، سامقا، رفيعا، أبيا، فاضلا، كريما، وحين أدلوا، ومن دلو عزتهم، التي ألبسهم دينهم الإسلام رداءها، ومن مواجهة هذا النجاشي، ذلكم الملك العادل، والذي لا يظلم عنده أحد، ومن نص قول نبينا

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري: ٥٢٠/٣

محمد صلى الله عليه وسلم رسول يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وحين واجه رسوله جعفر بن أبي طالب هذا النجاشي، الملك، العادل، وحين قال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام^(١).

فعن عبد الله بن مسعود قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقطع الدور، وأقطع ابن مسعود فيمن أقطع، فقال له أصحابه: يا رسول الله نكبه عنا قال: فلم بعثني الله إذا؟ إن الله لا يقدر أمة لا يعطون الضعيف منهم حقه^(٢).

(١) تخریج المسند، أحمد شاكر: ١٨٠/٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح
(٢) التلخيص الحبير، ابن حجر العسقلاني: ١٠٣٨/٣. خلاصة حكم المحدث: إسناده قوي.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ [القلم: ٤٢].

هذا مشهد يوم القيامة، وحين رآه هذا العبد النقي التقي الخفي ذو الساقين الدقيقتين عبد الله بن مسعود، ويكأنك تراه معاينة، ويكأنك تحسه لا مخابرة. وهذا التوصيف الدقيق من أولاء قوم كانت تهمهم الآخرة، وحتى ويكأنهم رأوها رأي العين، ويكأنهم يسوقون إلينا ما شرحه له نبيهم، وما تلاه عليهم رسولهم، قناديل هدى، وعناقيد فلاح، وحين يستحضر عبد منيب هكذا مشهدا، ومن أمام عينيه الزكيتين؛ وليمهرهما مهر الصدق، والخوف، والوجل، الذين يقودانه قودا وإلى مصاف العبودية لله سبحانه، وإلى مطاف الذلة، والخضوع، والاختضاع، والاستكانة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وحين كان وصفهم، لذلك اليوم طوله! وحين بلغ أربعين سنة! وانتظارا للحساب، وهو الأمر الذي حدا بالناس يومهم هذا، وأن يطلبوا من مالك عليه السلام، أن يقضي عليهم ربهم، أو أن يخفف عنهم يوما، ولو واحدا من العذاب. والله المستعان. وإذا كان ذلك كذلك، وما سيق أحد إلى النار بعد! وما بال الناس ويوم يساق أهل النار إلى مصيرهم المحتوم؟!

ولكن وصف الصراط، وما هو يشي بدقته، ومن حدته، ومن رجفته، ومن خوف منه، ومن وجل، ولكن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، فيجرون عليه جريا، ويسرعون عنه إسراعا، رحمة، وجزاء عدلا، ونصفه منه تعالى البر الرحيم.

ولكن هذا الصراط، ومن كلالبيه، وإذ يكلب أهل النار إليه، ويكأنه يضمهم إليه ضمّا؛ لا من حنان، بل من عذاب، وعقاب، وآلام؛ ونظير عبادته

غير مولاه، ولقاء مخره في بحر متلاطم من الهوى، والخذلان يومه الذي كان في الدنيا يحياه.

ولكن هذا الرب الجليل ينزل، ومن هيئة لا نعلمها، بل نؤمن بها، وحسبنا، ومن نص القرآن المبين، وحديث خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم فصلا مبينا، وحين قال الله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ولكن الجنة درجات، وكما بان من نظم الحديث، يوم تنقلتهم من درجاتها.

ولكن الملائكة، وها هم ينزلون مع ربهم سبحانه، وفي ظل من الغمام، وقضي الأمر، وإلى الله ترجع الأمور.

ولكنه الله تعالى، وإذ يعرفه أهل الجنة، ومن كشفه عن ساق، ومما قد وصف لهم به، ومما قد نعت لهم منه، سبحانه، وعلى وجهه اللائق به تعالى، تقديسا، وتعظيما، وتنزيها، وبعيدا عن تشبيهه، أو تمثيل، أو تكيف، أو إلى ما منه مفض إلى تعطيل؛ وزعم الخوف والوجل، والوجد! وإذ كان في الوقوف عند النصوص حلية العبيد، ولما كان في الاقتداء به صلى الله عليه وسلم زينة للعقل الرشيد. وعملا بالقول السديد.

وعلى أنه ليس يؤاخذ عبد، وعن كذبه، ولما كان من فجأة، وإذ ليس يعاقب عليه، ولما كان من بغة، وبرهان رجوع العبد الصالح غير مرة، وإذ يسامحه ربه تعالى، فلا يعاقبه، وإذ كان اليوم أيضا، هو يوم حساب وجزاء،

وعما أنف من عمل الدنيا، وإن كان من الذي يحصل ومن أمامه، ومن موجب بغتته وفجأته وغرته.

وأرأيت، يوم حديث نبي الله تعالى موسى، مع العبد الصالح الخضر، عليهما السلام، وإن كان يراجعه، ومن وعد، ولما كان يجادله، ومن فجأته، ومن بغتته، ومن زهوله، واندھاشه، ومما رأى، وإلا أنه لم يفرض عليه عقابا، وإلا أنه لم ينزل به جزاء؟!

وألّم تر يوم مات نبي الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكذب عمر الفاروق الخبر وإن لم يق احد لعاقبه ولا حتى لمؤاخذته او ردا او تنبيهها أو تذكيرا ولما رأى من هول ومن بغتة ومن فجأة أيضا.

وأرأيت هذا الذي قال يوما: اللهم أنت عدي وأنا ربك. وحين أخطأ من شدة الفرح. وإن لم ينصب له الميزان، وإن لم يرم ببهتان، ولما لم يقض فيه بقضاء.

وكل هذا، وغيره، وسائره؛ ومن سماحة ديننا، ومن يسر سبيلنا، ومن لين طريقنا، وحين كان القصد سيد الأدلة، في الاتهام، ولما كانت الإرادة هي زعيمة الرأي، ومن ساحات الادعاء، ومن عمل القضاء.

فعن عبدالله بن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال: وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا أن يولي كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدنيا، أليس ذلك عدلا من ربكم؟ قالوا: بلى، فينطلق كل قوم إلى

ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا، قال: فينطلقون، ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلى الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر، والأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون، قال: ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثل لمن كان يعبد عزيزا شيطان عزيز، ويبقى محمد وأمته، قال: فيتمثل الرب تبارك وتعالى، فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ قال: فيقولون: إن لنا إلها ما رأيناه بعد فيقول: هل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناه، عرفناه، قال فيقول: ماهي؟ فيقولون: يكشف عن ساقه، قال: فعند ذلك يكشف عن ساقه، فيخر كل من كان لظهره طبق ساجدا، ويبقى قوم ظهورهم كصيافي البقر، يريدون السجود فلا يستطيعون، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ثم يقول: ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون رؤوسهم، فيعطيه نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم، يسعى بين أيديهم، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يعطى مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدمه قدم ومشى وإذا طفىء قام، قال: والرب تبارك وتعالى أمامهم حتى يمر بهم إلى النار فيبقى أثره كحد السيف دحض مزلة قال: فيقول: مروا، فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرفه العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفرس، ومنهم من يمر كشد الرجل، حتى يمر الذي يعطى نوره على ظهر إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه

النار فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلس وقف عليها فقال: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعط أحداً، إذ أنجاني منها بعد إذ رأيته قال: فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل، فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم، فيرى ما في الجنة من خلال الباب، فيقول: رب أدخلني الجنة فيقول الله له: أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار؟ فيقول: رب اجعل بيني وبينها حجاباً حتى لا أسمع حسيستها قال: فيدخل الجنة، ويرى أو يرفع له منزل أمام ذلك كأن ما هو فيه بالنسبة إليه حلم، فيقول: رب ! أعطني ذلك المنزل فيقول له لعلك إن أعطيتك تسأل غيره؟ فيقول لا وعزتك لا أسألك غيره، وأنى منزل أحسن منه؟ فيعطاه، فينزله، ويرى أمام ذلك منزلاً، كأن ما هو فيه بالنسبة إليه حلم قال: رب أعطني ذلك المنزل فيقول الله تبارك وتعالى له: لعلك إن أعطيتك تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك وأنى منزل أحسن منه؟ فيعطاه فينزله، ثم يسكت فيقول الله جل ذكره: ما لك لا تسأل؟ فيقول: رب! قد سألتك حتى استحييتك، أقسمت لك حتى استحييتك فيقول الله جل ذكره: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيها وعشرة أضعافه؟ فيقول: أتتهزأ بي وأنت رب العزة؟ فيضحك الرب عز وجل من قوله قال: فرأيت عبد الله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن ! قد سمعتك تحدث بهذا الحديث مراراً، كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله يحدث هذا الحديث مراراً كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه، قال: فيقول الرب جل ذكره: لا، ولكني على ذلك قادر، فيقول: ألحقني بالناس، فيقول: الحق بالناس. فينطلق يرمل في الجنة، حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة، فيخر ساجداً، فيقول له: ارفع رأسك مالك؟

فيقول: رأيت ربي أو تراءى لي ربي، فيقال إنما هو منزل من منازلك قال ثم يلقي رجلا فيتهياً للسجود له فيقال له: مه ! فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك، تحت يدي ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه قال: فينطلق أمامه حتى يفتح له باب القصر، قال وهو من درة مجوفة شقائقها وأبوابها وإغلاقها ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمرء فيها سبعون باباً، كل باب يقضي إلى جوهرة خضراء، مبطنة كل جوهرة تقضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف، أدنان حوراء عيناء، عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها إذا أعرض عنها إعراسة ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك فيقول لها: والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا عما كنت قبل ذلك، وتقول له وأنت والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا فيقال له: أشرف، أشرف. فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مئة عام، ينفذه بصرك قال: فقال له عمر: ألا تسمع ما يحدثنا ابن أم عبد يا كعب عن أدنى أهل الجنة منزلاً، فكيف أعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فذكر الحديث^(١).

خادم النبي صلى الله عليه وسلم: عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه

«اقرأ بها كلما نمت، وكلما قمت».

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى خادمه عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه، وحين كانا معاً، ومن إلف هذه العلاقة بين المؤمنين، ولما

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٣٥٩١

كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤؤفا رحيماء، ومن خصائصه ومن مناقبه، وحين قرره هذا الكتاب القرآن الفرقان المجيد عنه صلى الله عليه وسلم، ومن قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ومن قوله صلى الله عليه وسلم هو، ومن سننه صلى الله عليه وسلم هو، وحين قال صلى الله عليه وسلم: إنما أنا رحمة مهداة^(١). ولما كان يركب مرة، وينزل أخرى؛ وليركب هذا الخادم مرة أخرى! ولولا أنه التاريخ قد سجل لنا هذا لادعى مدع، وأنها لأساطير، وإذ كيف راح بهذا الدين الإسلام الحنيف الخالد بأتباعه، هذا الأفق الواسع، الفسيح، الممتد، ومن عطف، ومن رحمة، ومن لين جانب، وهكذا، ومما تقشعر له الأحاسيس، والوجدان، والمشاعر الإنسانية، وعلى اختلاف مشاربها، والحق يقال، وإذ لم يحك لنا هذا التاريخ، ومن هذه الصحائف التاريخية الخالدة، الندية، اللطيفة، المبهرة، المدهشة، ومن هذا من شيء، ولما ينزل نبي مرة، وهو القائد المحمدي الملهم، ولينزل؛ وليركب خادمه مكانه، وعلى دابته التي هو راكبها مرة، وليمشي هو، ومن مشهد مؤثر، حامل للطائف الود، وفرائد الرحمة، ولفائف اللين، والرفق، والسماحة، ما عنه يند قلم وصفا، وما عنه يعز على راسم رسما.

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان، وهكذا عهده، وليس يترك مناسبة، وإلا أخذ بالناس إلى سبيل فلاحهم، ونجاحهم، وفوزهم، ومن دنياهم، ومن أخراهم، وإلا يربط الناس بهذا الكتاب،

(١) بداية السؤل، الألباني: ٧٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الفرقان، القرآن المجيد، وحين يحكي لنا هكذا التاريخ النبوي المحمدي، وأن
سورتين هكذا- فقط سورتين-، ومن أقصر سوره، ولما كانتا، وبهذا المعنى
الواسع الفضفاض، والحامل لهكذا لطائف، والحاوي لهكذا فرائد، والممعن
في هكذا فوائد، ولما كانتا وبهذا المضمون الفيضي الرباني الكريم، وحين
أودعهما ربنا تعالى، ومن لطفه، ومن شفائه، ومن هداه، وسناه، وكريم
عطائه، ومنه، وفضله، وليكون هذا القرآن، الحكيم، العظيم، ومن بين أيدينا،
ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، حافظا، وسببا للشفاء، ومن أمراضنا
البدنية، ومن أدوائنا النفسية، ومن عللنا الروحية، ولما كان ترياقا، وبهذا
الإعجاز الذي يجعل الله تعالى، ومن كلامه، لنا شفاء، وهدى، ورحمة
للمحسنين، ويكأنك، وحين ترتبط، وتألف، وتنسجم مع، وبهذا القرآن
المجيد، ويكأنك قد ملكت مفاتيح الهدى، وقناديل الدجى، وأواصر الشفاء،
 وأسباب النفع، والسداد، والرشاد، والإلهام، والتوفيق، وحين كان الشأن،
ومنه هو ذلكم الرباط بين العبيد ورب العبيد سبحانه، وهو هذا القرآن
المجيد.

وتاريخنا حافل، ومن جيد هذا القرآن الحكيم، وعطائه، وهديه،
وشفائه، ومن غير سورتى الفلق والناس هاتين؛ ولشأن هذا القرآن المجيد
هذا كله، وحين حكم ربنا تعالى، وأنزل، وقدر، وقضى، أنه كله هدى، وشفاء،
ورحمة للمؤمنين، ولما كان الناس، وعلى اختلاف عصورهم وأمصارهم، قد
شهدوا، ومن سننهم، ومن عللهم، ومن تاريخهم، ومن شأنهم كله، وحين
عالجوا هذا القرآن، هاديا، وحاديا، وشفاء، وهدى، ورحمة للمؤمنين.

وعلى أن أمر هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، لخادمه عقبة بن عامر هذا، وحين أمره أن يقرأ بهما، وكلما نام، وكلما قام؛ ولأنهما حرز الهدى، وأمانى الشفاء، ومما أنف؛ ولأن العبد، وحين يكون موصولا بالله تعالى ربه ومولاه، ومن نومته، ومن يقظته، وإنما كان هكذا سائحا في مدارج العبودية، لهذا الإله العلي الأعلى سبحانه، وهو ما يكون بمثابة الحرز، والأمن، والأمان، والشفاء، والهدى، والتحسين، وعلى مدى ما يكون من رباط بين العبد وبين هكذا، ومن منظومة عبودية، يقف المرء حيالها مندهشا، هائلا، مستبشرا، وحين كان، ومن شأنه هذا، وهذه سياحته في هكذا مضامين الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى، وشآبيب الرحمة، وتلابيب اليسر، والمعونة، والسداد، والإلهام، والتوفيق، والرشاد، ويكأنه الله تعالى، وقد أسبغ على عبد هكذا شأنه، ومن لطفه، ومن عطائه، ومن فضله، ومن جوده، وكرمه، وفلاحه، وصلاحه، ما يجعله عبدا، ترنو إليه النفوس، وتميل إليه القلوب، وتطمئن به الأفئدة التي في الصدور، وحين كان قلادة هدى للناس، ومن سبيل القدوة، ومن طريق الأسوة، وحين كان الله تعالى أناس سياحون، يمشون في الأرض، وإن يحسبهم الناظر، والمشاهد، والمعاین، ويكأنهم؛ ومن نور وجهوهم، كانوا هداة، ويكأنهم؛ ومن سنا قلوبهم كانوا دعاة.

وما أجمل وأن يعيش العبد يومه وغده ومستقبله، وإنه إذ يستشعر هذا الحفظ الرباني، وهو إذ يستحضر هذا الرعاء الإلهي، وهو إذ يعايشه، ويأنسه، ومن هكذا معية، لطيفة، قديرة، جديرة، ويوم أن تحلى عبد كريم، ومن أبهة عبوديته لمولاه، ولما كان سائرا، وفي هداة، وسناه، وهو أيضا، وإن يعاین هذا العطاء، الكريم، الواسع، الفسيح، الممتد، ومن لدن رب كريم، كان حافظا، راعيا، كريما، جوادا، لطيفا، عليما، قديرا، خبيرا.

وعلى أن هاتين السورتين، وإنما كانتا تحمل، ومن معنى كل منهما،
آيات الالتجاء، ودالات الاحتماء، ويكأنك تلمح هكذا عبداً، وهو إذ يلوذ بالله
تعالى، العلي، الأعلى سبحانه. ومنه كان الاستمسك بقراءتهما- المعوذتين-
وحيث نومه، ومنه كان الاعتصام؛ وبتلاوتهما ومن يقظته أيضاً؛ وليجمع
العبد، ومن بين يديه، ومن خلفه، هو ذلكم الحفظ الرباني، وحيث كان منه
هو ذلكم، ومن صدق هذا الالتجاء، والاحتماء، والا ستعاذة، والإعانة،
والإعانة، والاستعانة، وإعلان الفقر، والحاجة، والعوز، والتذلل، والخضوع،
والخشوع لهذا الرب الكريم، القدير، الحنان، المنان، اللطيف، الخبير،
السميع، البصير، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول
سبحانه.

وعلى أن هذا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، وحيث أمر هذا الخادم،
عقبة بن عامر بهما، ومن نومته، ومن يقظته، وأن يقرأهما، قراءة الواثق
بالله، المتوكل، المفوض، والموقن، والمعتقد، بفضلته تعالى، ولما أنزل فيهما من
عصمته، ولما تنزل بهما، ومن حفظه، ومنه، وكرمه، ومنته، وإلا أنه صلى الله
عليه وسلم أخذ، ومن قراءتهما في صلاة الفجر؛ واستصحاباً لإلفه، ولينه،
وتخفيفه، وبياناً لأهمتهما قراءة، وتلاوة، وعلى كل حين العبد، ومن صلاته،
وقيامه، ووقوفه بين ربه تعالى، عبداً، لائذا، محتتماً، ملتجئاً، معتصماً، جاء
وهو إذ تراه مرتتماً بين عتبات الرحمة الربانية، ومتذللاً، بين يدي مكتنفات
لينه، وتواضعه، وذلته، لهذا الرب الكريم، اللطيف، الحنان، المنان سبحانه،
ولياًخذ بأيدي عبيده المساكين، وإلى برور لطفه، وسحائم رحمته، وسحائب
كرمه، وغمائم منه، وعطائه، وتجاوزته، وعفوه، ورضائه سبحانه.

وعلى أن هاتين السورتين، وحين جعل الله تعالى، ومنهما سببا للعلاج والشفاء، ومن سائر الأمراض، والأوصاب، والأوجاع، وإن كان منها هو هذا السحر، وحين أتيا على ساحر وسحره فأبطلاه، ولما أتيا على مسحور وعيه فأشفياه، وحينما كانتا؛ ومن إلف؛ ومما حواههما، ومن سحائب الرضا، وظلال الرعاية، وغمام الإكلاء، والرحمة، والشفاء، والهدى، والرحمة، والإخبارات.

وانظر كيف كان أولاء القوم يعززون نبيهم، وأنت ترى كيف كانوا يوقرون رسولهم، وكيف كانوا يعزرونه، ويهابونه، ويقدرونه، ويحترمونه، ويبجلونه؛ رسول هدى، ونبي تقى، وهذا سنن مهور بدالات الرضا عنه صلى الله عليه وسلم، وكما أنه مقرون ببراہين هذا الأداء، العالي، السامق، الرفيع، ومن هكذا، رهط كانوا هكذا ينظرون، ومن هكذا رعاية لحق، وقدر نبيهم، وقائدهم، سننا يهتدى، ورعيلا يقتدى، وجيلا يجتبی.

ويكأنك قد وقفت غير مرة، وأنا ذا أستصحبك، وإلى هكذا تواضع هذا النبي صلى الله عليه وسلم، القائد، الملم، وإلى كيف كان قريبا هكذا، ومن رعيته حانيا، ولما كان هكذا هديه معهم، وبهم ساميا عالیا.

ولكنك وقفت، وعلى كم كانت بلاغة نبيك صلى الله عليه وسلم، وحين أدلى بهكذا عنوان، ولما أتى بهكذا برهان، ومن كلام جامع للخير والبيان، ودوافعه، ومعائنه، ومصادره، ومما أوحى إليه ربه تعالى، ومن صدق الإشارة، ومن قليل العبارة، وحين كان حاويا لمعاني رقراقة، هكذا ينز منها الهدى، مصابيح الدجى، نورا للناس، ويرتوي من سننها الضمآن! وإن من

البيان لسحرا^(١). وهكذا كان من سجع لا متكلف، وهكذا كان من إيجاز لا مغل! وهكذا كان من جامع كاف، واف، شاف، وهذه فصاحة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذه بلاغة رسولنا صلى الله عليه وسلم، عربيا كان اللسان، عاليا رقرقا كان منه البيان.

وعلى أن هاتين المعوذتين، ولما كانتا، ومن هذا الأهم الحسن، ومن ديننا الإسلام الحنيف الخالد، وإنما جعلها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أذكار ما بعد الصلوات الخمس؛ تذكرة، وتبركا واستعاذة، وحفظا، وإكلاء أيضا؛ ولحديث عقبة بن عامر، قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة^(٢).

وهذه هي الاستعاذة بالله تعالى، وحين يقرأ العبد المسلم هاتين المعوذتين؛ ومن هبوب ريح، ولأنها لا يعلم، وماذا أتت به، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم، وحين كانت تهب ريح، وإنما كان يخاف، ومن سببه كان يكثر الدعاء، والدخول والخروج، والإقبال والإدبار، وإذا كان يتغير وجهه؛ خوفا، ووجلا؛ ولأن هذه الريح كانت سبب هلاك قوم يوما، وحين أتت عليهم، فدمرتهم، وجعل الله تعالى من سببها عاليها سافلها، ولما عتوا عن أمر ربهم الحق المبين. وحين قال الله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا

(١) صحيح البخاري: ٥٧٦٧

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ١٥٢٣

أَرْسَلْتُ بِهِ وَلِكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٥-٢٧].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى مخيلة في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أدري لعله كما قال قوم: {فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم} [الأحقاف: ٢٤] الآية^(١).

وحين كانت هاتان المعوذتان أفضل ما تعوذ به عبد مسلم، وحين يعيذه ربه ومولاه، ومن شر ما خلق من دابة، أو هامة، أو شر عين لامة، أو حسد، أو سحر، أو ريح أيضا.

وعن عقبة بن عامر قال بينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ {أعوذ برب الفلق} و {أعوذ برب الناس} ويقول يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما قال وسمعتة يؤمنا بهما في الصلاة^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٣٢٠٦

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ١٤٦٣

والمقصود: الكلام على هاتين السورتين. وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما. وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرا خاصا في دفع السحر والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس^(١).

ومن أكثر الأذكار أجورًا وأعظمها جزاء: الأدعية الثابتة في الصباح والمساء؛ فإنَّ فيها من النفع والدفع ما هي مشتملة عليه. فعلى من أحب السلامة من الآفات في الدنيا والفوز بالخير الآجل والعاجل، أن يلازمها ويفعلها في كل صباح ومساء^(٢).

وعن عبدالله بن خبيب: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: أصليتم؟ فلم أقل شيئا، فقال: قل. فلم أقل شيئا، ثم قال: قل. فلم أقل شيئا، ثم قال: قل: فقلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء^(٣).

وفي الحديث دليل على أن تلاوة هذه السور عند المساء وعند الصباح تكفي التالي من كل شيء يخشى منه كائنا ما كان^(٤).

فعن عقبة بن عامر: بينما أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نقيب من تلك النقاب، إذ قال: ألا تركب يا عقبة، فأجللت رسول الله

(١) التفسير القيم، ابن القيم: ٦٠١/١

(٢) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني: ٣٨٦/١

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٠٨٢.

(٤) تحفة الذاكرين، الشوكاني: ١٠٣

صلى الله عليه وسلم أن أركب مركب رسول الله صلى الله عليه وسلم،
ثم قال: ألا تركب يا عقبة؟ فأجللت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
أركب مركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ألا تركب يا
عقبة؟ فأشفقت أن يكون معصية، فنزل، وركبت هنيهة ونزلت،
وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ألا أعلمك سورتين من
خير سورتين قرأ بهما الناس؟ فأقرأني: {قل أعوذ برب الفلق}، و{قل
أعوذ برب الناس}، فأقيمت الصلاة، فتقدم، فقرأ بهما، ثم مر بي،
فقال: كيف رأيت يا عقبة بن عامر؟ اقرأ بهما كلما نمت وقمت^(١).

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٥٤٥٢

قيس بن عبادۃ الأنصاري الخزرجي

هل عندكم رجل يجيء هذه السراويل على طوله؟!

هذه طرفة معاوية بن أبي سفيان، أو هكذا أعدها طرفة عنه، ولما كانت هذه حكايته عن هذا قيس بن عبادۃ الأنصاري الخزرجي، صاحب الشرط لنبيينا محمد صلى اله عليه وسلم، ولما كان من الطول، وإذ كان قد بلغت سراويله ومن أنف الرجل الطويل، وإلى أسفل قدميه! وإلى الأرض، وما بالناس بطول رجل كان هذا طول سراويله؟!

وعلى أن هكذا هدي نقتفيه، وحين يختار ذووا القوة، والشكيمة؛ ولأمر الدفاع، وعن القائد، وبوجه أخص، ومن هم، ومن فنون القتال، والدفاع، والجنديّة، والأمانة، والحزم، والشكيمة، وحين يدافعون عن قاداتهم، وببساله المخلص لربه أولا، ومن ثم كان قويا أمينا. ولا سيما ما قد حكوا عنه، ومن دهائه، ومن كرمه، ومن مدحته أيضا، وهي نفوس، ولما كانت قد تضلعت الخلق الفضيل، والنبيل الشميل، ولما كانوا تلاميذ مدرسة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى أن هذا الذي كان يتولاه قيس بن سعد الانصاري هذا، وإنما كان؛ ومن مثابة من يقوم على تنفيذ أمر القائد، ومن بين يديه، وحين يكون ذلك كذلك، ومن عظم مسؤوليات الأمير، وكان منه لزوم عمل الوزير، تفويضا، أو تنفيذا. وهذا الذي استحدثه الناس، وفيما بعد، ومن بعد أن كان من اتساع الدولة ورقعتها، وامتداد حدودها ومساحتها. ومن جسامه عمله أيضا.

وهذا الطول، وهو الذي من موجهه أرسل معاوية سراويله هذه، وإلى ملك الروم، وهذا فن في إلقاء الحجة، وهذا درب من دروب المحجة، وحين يبلغ من أثره، ومن نفوس الخصم مبلغه، وهذا الذي حدا بملك الروم وأن ينبهر تعجبا، وأن يندهش تحيرا، ومن هكذا كان طول سرواله، ومن أنف الطويل وإلى قدميه!

ولكن هذا قيس بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وإن كان بالتقوى مشهورا، وبالإخبارات مهورا، ولما قد حكوا عنه الإطالة في التسبيح، وعلى أصابع تسبيحه، سننا أن هذا التسبيح، وإنما كان، وعلى الأصابع اهتداء، واقتفاء أيضا، وإلا فإن مثل الأمور التعبدية، وإنما لا تؤخذ بالرأي، ولا سيما أن قيس بن عبادة الأنصاري الخزرجي هذا، كان صاحب شرط النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما عنى ذلكم ملازمته، وإنما اقتضى ذلك مصاحبته، ولا كغيره، وممن ليسوا شرطيين.

فعن: أنس بن مالك: إن قيس بن سعد كان يكون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، بمنزلة صاحب الشرط من الأمير^(١).

كان لا يفارق النبي صلى الله عليه وسلم أو باب النبي صلى الله عليه وسلم

خمسة أو أربعة من أصحابه

وعلى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وإن أخذ بما عليه أعراف الناس، ومن حراسة، ومن خدمة؛ وللمساعدة في أعباء القيام بأمر القيادة،

(١) صحيح البخاري: ٧١٥٥

وللمساهمة في فنون الريادة، والفتح المبين، ولأن هكذا سنن، وإنما يكون، ومن عون القائد؛ وكيفا يكون من بحبوحة لأداء عمله، وكما أنف، ولاتساع رقعة الدولة، ولكثرة الأعمال، والمكاتبات، والغزوات، ومنه الشؤون الداخلية للدولة، وإذا كان يعز أن يقوم بكل ذلكم وحده، وعلاوة على أمر الحراسة هذا، وإن القائد غالبا ما يكون مستهدفا، أو على الأقل يكون كذلك مستهدفا، والإمساك به، أو النيل منه، ولو من قليل أذى، إنما يأتي على سمعة الدولة كلها، وقوتها، ومن أساس، وهو الأمر الذي حدا بالناس أن يكون عليهم أمرهم، ومن أمر الحراسة هذا، والقيام عليها.

فعن أنس قال: كان عشرون شابا من الأنصار يلزمون رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوائجه فإذا أراد أمرا بعثهم فيه. رواه البزار وفيه من لم أعرفهم. وعن عبد الرحمن بن عوف قال كان لا يفارق النبي صلى الله عليه وسلم أو باب النبي صلى الله عليه وسلم خمسة أو أربعة من أصحابه^(١).

احتساب المؤمنين في الذود عن النبي الأمين

وعلى أن هذا الأمر كان من حسبة، ولدى فريق من المؤمنين؛ ولأن الناس يومهم هذا كانوا إلى الخير أقرب، وإذا كانوا إلى العمل الخيري أسبق، ولما كان منهم أولاء نفر يقومون على خدمة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ احتسابا، ودونما أجر مقابل ذلك.

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩ / ٢٢

فعن أبي سعيد قال: كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون له الحاجة أو يرسلنا في الأمر فيكثر المحتسبون وأصحاب النوب فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر الدجال فقال ما هذه النجوى ألم أنهكم عن النجوى. رواه البزار ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف^(١).

تقديم الأهم على المهم

وعلى أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما كان يبذل جهده؛ لإيقاف الناس على حقيقة أمرهم، ومن دينهم، ولما وجب على العبد أن ينظر حال نفسه أولا، ومراقبة إخلاصه لربه تعالى، ولأن الأمر كله دائر حول هذا الإخلاص العزيز أمره، والعظيم شأنه، ولما كان هو الغاية، والهدف، ولأن عليه مدار سعادة العبد، ومن دنياه ومن أخراه معا، وهذا الإخلاص هو الذي جعل الشرع الحنيف يجعله، ومن أول درجة من سلم الصعود إلى قمته، وحين قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُي وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وانظر إلى عمل الإخلاص، وكيف كان مدار الأمر كله عليه؛ وإلا أن شرائع الإسلام مرتكزة إليه، ولأن فريقا منه قد شرد، وأبى، واستدبر، وحين جعله النبي صلى الله عليه وسلم شرطا للدخول في هذا الدين؛ وحين قال نبينا

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩ / ٢٢

محمد صلى الله عليه وسلم: ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله لها^(١).

ومن حديث أبي هريرة: ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا، إلا فتحت له أبواب السماء، حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر^(٢).

ومنه كان أمر النفاق عظيما؛ ولأن هذا النفاق يفتقد هذا العزيز الإخلاص، ولذا كان من شأن المنافقين أنهم عراة، ومن إخلاصهم لله تعالى ربنا وربهم، ومنه فكان هذا جزاءهم، ومن جنس ما حكى الله تعالى عنهم، ومن قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذا الذي جعل النبي محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ على أيدي إخوانه، وهو الذي خلع عليهم رداء شد أزر أصحابه، وحين رآهم يتناولون الكلام شأن الدجال، وإن كان الأمر ليس عمل الساعة، ومن ثم أراد أن يصرفهم إلى ما هو أجدر نفعاً، وأقوم قِيلاً، وهو هذا الإخلاص الذي أنف.

ومنه نفيد العمل على أخذ الأهم فالمهم، ومنه نميل إلى الاعتداد بالأكثر أهمية، والأعظم شأنًا، ومنه نفيد الأخذ بأسباب الرقي والمجد، وحسبما كانت مقتضيات المرحلة، وهذه كلية قمن دراستها، وإعمالها أيضا؛ ولأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما كان هو الذي أتانا بأمر الدجال، وإلا أنه صلى الله عليه وسلم، ومن ثم لم يرد أن يكون حديث الساعة، وبقدر أن

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٠٧٨

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٥٦٤٨

يكون حديثها هو هذا الإخلاص، وما يمكن أن يكون أداة تقوية، وعامل مساندة له، وما يمكن أن يكون آلة مساعدة للتنقيب عن أسبابه، وعن موجباته، وعن تفعيله، ومن حياة العبد، آناء الليل وأطراف النهار. ومن ثم يكون أمر آخر تاليا لاحقا.

وهذا الأمر التدريجي في أعمال شريعتنا كان سننا نبويا هاما.

ألم تر كيف علمناه، ومن هديه صلى الله عليه وسلم، ومما هو بين أيدينا الآن، ومما علمناه، واسترشدناه، وأصلناه، ومن عمل هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وطوال عمله في حقل دعوته كله؟

وانظر يوم أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاذا إلى اليمن، وهو إذ يأخذه درجة درجة، ومن أول الأمر أهمية، وإلى آخر الأمر مهمة أيضا.

فعن عبدالله بن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا

لك بذلك، فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب^(١).

وعن أبي سعيد الخدري: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قال قلنا بلى فقال الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل^(٢).

وعن أبي سعيد قال: كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون له الحاجة أو يرسلنا في الأمر فيكثر المحتسبون وأصحاب النوب فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر الدجال فقال ما هذه النجوى ألم أنهكم عن النجوى. رواه البزار ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف^(٣).

وعلى أن نفرا من أولاء الصحب الكرام، الغر، البررة، الميامين، وإن كانوا يتنافسون؛ ومن رغبة داخلية، ومن همة باطنية، لخدمة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا أمر يشي بأهمية هذا المنهج، ولما كان قائما هكذا على أمر المنافسة، والمسابقة، والمصارعة إلى الخيرات، وإن بك تجد نفرا كان قد أعد على مائدة هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، إعداد هكذا أهله أن يأتي

(١) صحيح البخاري: ١٤٩٦

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٤٠٨

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩ / ٢٢

من تلقاء نفسه باذلاً، وأن يسارع من ذات حاله مجتهداً جاهداً، ووسعه في ذلك أيضاً.

وهذه آية نقدمها بين يدي الناس، وحين علمنا كم كان هذا الإعداد النبوي، وعلى مائدة الحق والإيمان، هو الذي قاد الناس، وأن يتسابقوا، وإلى خدمة قائدهم ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، منهاجاً حسناً، وسبيلاً قوياً.

وأنت ترى كم يتأخر الناس يومهم هذا، وعن خدمة رؤساء عملهم؛ ولأنهم يهانون، ولأنهم لا يكرمون، بل ولربما ديست كراماتهم، ومن تحت أقدام متسلط، أو قائد جهيم!

فعن عاصم ابن سفيان أنه سمع أبا الدرداء أو أبا ذر قال استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبيت على بابه يوقظني لحاجته فأذن لي فبت ليلة. رواه البزار ورجاله ثقات^(١).

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٩ / ٢٢

حارس النبي صلى الله عليه وسلم : المغيرة بن شعبة

فإن الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، للمغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه، وحين كان من أمرهم أنه هو ذلكم الداهية، وحين راحوا صحبة بعضهم بعضا إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، ولما كان قد منحه من الهدايا، ومن أقل مما منح به سواه، وعلى ما يبدو، أن ذلك كان قد ترك في نفسه الشيء الكثير، وهو الذي حدا به أن يمكر بهم، فيشربهم الخمر، حتى خامرت عقولهم، ومن ثم أتى عليهم جميعا قتلا! ومن دهائه هذا الذي كان معروفا به، ومشتهرا به أيضا، وحتى عد من دهاة العرب يومهم ذلك.

وإلا أن الرجل رجع مسلما بين يدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومعه سَلْبُ الناس، وما كان قد أخذه منهم، ومن بعد قتله إياهم؛ حنقا. ومن ثم وضعه بين هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وليوزعه على قسمة الله تعالى، في شأن الغنائم، وعلى قوله رضي الله تعالى عنه: ليخمسها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والسَلْبُ: ما يسلب، وفي التهذيب: ما يسلب به، والجمع أسلاب. وكل شيء على الإنسان من اللباس فهو سلب، والفعل سلبته أسلبه سلبا إذا أخذت سلبه، وسلب الرجل ثيابه.

والأسلاب: التي قد قشرت، وواحد الأسلاب سلب. وفي الحديث: من قتل قتيلا، فله سلبه. وقد تكرر ذكر السلب، وهو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه، مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة، وهو فعل بمعنى مفعول أي مسلوب^(١).

وإلا أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان صافي العقيدة في الله تعالى رب العالمين، ولما كان من نقاء هذه العقيدة، وألا يأخذ ما كان غصبا؛ ولأنه لا خير فيه، ولا بركة فيه أيضا، وحين رده صلى الله عليه وسلم على المغيرة بن شعبه.

ولكن هذا المغيرة بن شعبه رضي الله تعالى عنه، وإنما اعتذر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه فعل فعله هذا، ومن قبل إسلامه، وإبان قيامه على دين قومه من الشرك وعبادة الأوثان.

وإلا أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ يقول له قوله هذا: فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله". وعنوانا على قبول توبة التائب، وبرهاننا على فتح هذا الدين ذراعيه للتائب.

وروى الواقدي، عن محمد بن يعقوب بن عتبة، عن أبيه، وعن جماعة قالوا: قال المغيرة بن شعبه: كنا متمسكين بديننا ونحن سدنة اللات، فأراني لو رأيت قومنا قد أسلموا ما تبعتهم. فأجمع نفر من بني مالك الوفود على المقوقس وإهداء هدايا له، فأجمعت الخروج معهم، فاستشرت عمي عروة

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١ / ٤٧١

بن مسعود، فنهاني، وقال: ليس معك من بني أبيك أحد، فأبيت، وسرت معهم، وما معهم من الاحلاف غيري، حتى دخلنا الإسكندرية، فإذا المقوقس في مجلس مطل على البحر، فركبت زورقا حتى حاذيت مجلسه، فأنكرني، وأمر من يسألني، فأخبرته بأمرنا وقدومنا، فأمر أن ننزل في الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة، ثم أدخلنا عليه، فنظر إلى رأس بني مالك، فأدناه، وأجلسه معه، ثم سأله، أكلكم من بني مالك؟

قال: نعم، سوى رجل واحد، فعرفه بي. فكنت أهون القوم عليه، وسر بهداياهم، وأعطاهم الجوائز، وأعطاني شيئا لا ذكر له. وخرجنا، فأقبلت بنو مالك يشترون هدايا لأهلهم، ولم يعرض علي أحد منهم مواساة، وخرجوا، وحملوا معهم الخمر، فكنا نشرب، فأجمعت على قتلهم، فتمارضت، وعصبت رأسي، فوضعوا شرابهم، فقلت: رأسي يصدع ولكني أسقيكم، فلم ينكروا، فجعلت أصرف لهم، وأترع لهم الكأس، فيشربون ولا يدرون، حتى ناموا سكرا، فوثبت، وقتلتهم جميعا، وأخذت ما معهم. فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم، فأجده جالسا في المسجد مع أصحابه، وعلي ثياب سفري، فسلمت، فعرفني أبو بكر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداك للإسلام، قال أبو بكر: أمن مصر أقبلتم؟ قلت: نعم، قال: ما فعل المالكيون؟ قلت: قتلتمهم، وأخذت أسلابهم، وجئت بها إلى رسول الله ليخمسها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أما إسلامك فنقبله، ولا آخذ من أموالهم شيئا، لان هذا غدر، ولا خير في الغدر " فأخذني ما قرب وما

بعد، وقلت: إنما قتلتهم وأنا على دين قومي، ثم أسلمت الساعة، قال:
" فإن الاسلام يجب ما كان قبله " .

وكان قتل منهم ثلاثة عشر، فبلغ ثقيفا بالطائف، فتداعوا للقتال، ثم
اصطلحوا على أن يحمل عني عروة بن مسعود ثلاث عشرة دية.

وأقمت مع النبي صلى الله عليه وسلم، حتى اعتمر عمرة الحديبية،
فكانت أول سفرة خرجت معه فيها. وكنت أكون مع الصديق وألزم رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيمن يلزمه.

قال: وبعثت قريش عام الحديبية عروة بن مسعود إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليكلمه، فأتاه، فكلمه، وجعل يمس لحيته، وأنا قائم على رأس
رسول الله مقنع في الحديد، فقال المغيرة لعروة: كف يدك قبل أن لا تصل
إليك، فقال: من ذا يا محمد؟ ما أفظه وأغلظه، قال: ابن أخيك، فقال: يا
غدر، والله ما غسلت عني سواك إلا بالأمس^(١).

وهذا الحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن المسور بن
مخرمة ومروان بن الحكم بلفظ: " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن
الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن
خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فوالله ما
شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش،
وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ٣ / ٢٤ و: صحيح مسلم: ١٢١

بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شأؤوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شأؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشا، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فقام عروة بن مسعود

فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آتية، قالوا: آتته، فأتاه، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أ رأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإنني والله لأرى وجوهاً، وإنني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن ينفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصص ببظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟! فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف، وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر، أأست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صاحب قوماً في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء. ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه،

وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأييت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً؛ والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتية، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأييت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتية، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا مكرز، وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد سهل لكم من أمركم. قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون:

والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب «باسمك اللهم»، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله إني لرسول الله، وإن كذبتُموني، اكتب «محمد بن عبد الله» -قال الزهري: وذلك لقوله: لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها- فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به، فقال سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا -يا محمد- أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذابا شديدا في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألسنت نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري،

قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} حتى بلغ {بعضم الكوافر} [المتحنة: ١٠]، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداها معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى

بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا، فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتل والله صاحبي وإنني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك؛ قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مسعر حرب! لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاها فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزل الله تعالى: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} حتى بلغ {الحمية حمية الجاهلية} [الفتح: ٢٤ - ٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت^(١).

وقول عروة: " والله ما غسلت عني سؤأتك إلا بالأمس ": قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك، من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر^(١).

الخبيث كذب عليّ، فأجبت أن أخزيه

ولكن هذا المغيرة بن شعبه هذا، وإن كان من مثابة حراس نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولما كان معروفا، ومن قوته، ودهائه، ومما أنف أيضا.

وهذا من دهاء المغيرة بن شعبه هذا! وحين ولاه عمر الفاروق على البحرين، ولما كان حازما من رشده، ولما كان حاسما من أمره، وإن كاد له نفر من البحرين مكيدة، قدموها إلى عمر الفاروق؛ ليعزله عنهم! وحين دبروا مكيدة، أنه اختانهم، وفي مائة ألف دينار! وإن يفاجئ المغيرة شعبه عمر الفاروق، وإنها مائتين لا مائة واحدة! وعندها أقر المغبون البحريني أن المغيرة بن شعبه صادق! ولا شيء من ذلك قد حدث! ولما سأله الفاروق، وعن سره عمله هذا، وإن كانت مكيدة بمكيدة؛ وليرد الله تعالى كيده فيعترف!

عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبه على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يرده. فقال دهقانهم: إن فعلتم ما أمركم لم يرده علينا. قالوا: مرنا. قال: تجمعون مئة ألف حتى أذهب بها إلى

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٧٩

عمر، فأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إلي. قال فجمعوا له مئة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك. فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب أصلحك الله، إنما كانت مئتي ألف، قال: فما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصدقنك ما دفع إلي قليلا ولا كثيرا. فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب علي، فأحببت أن أخزيه^(١).

المغيرة بن شعبة المجاهد

وهذا جانب من بذله، وهذا نحو من عمله، وحين اشتهر رضي الله تعالى عنه، بجهاده، وفنائته في الله تعالى، ومنضافا إليه ورعه، وفطنته، ودهاؤه أيضا. ولكن هذا عمر الفاروق، ولما كان حصييفا أيضا، وإذ لم يول، وإلا من كان من خيار الناس، وإلا من كان من أفطنهم، وأحذقهم، وأزكاهم؛ ولأن ساحات الجهاد، وإذ هكذا يعوزها رجال أوابون، فطناء، حذقاء، أذكاء، أوفياء، وحسمة حزمة أيضا.

عن قتادة أن المغيرة ابن شعبة افتتح نهر تيري عنوة، وقتل فيها حد النوشجان، وهو يومئذ صاحبها، قال: وحدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده أن المغيرة بن شعبة صالحهم على ألف ألف درهم ومائة ألف درهم، ثم كفروا، فافتتحها أبو موسى بعد^(١).

براءة عرض المغيرة بن شعبة

وعليه؛ فإن مكيدة كانت قد دبرت، أو أنها ليست من الأمر من شيء، وحين اتهموه المغيرة بن شعبة أمام عمر الفاروق بهكذا فرية الزنا! والرجل، وليتهم اتهموا غيره، أو اتهموه بغيرها! ولما كان قد علم أنه كان كثير الزواج، وإذ ليس يعوزه من ذلكم من شيء! وإلا أن هذا الرجل كان طاهرا، وحين لم تقم حجة، ولما لم يكن برهان، وحين انقلب السحر على ساحره. وحين علم: أن أبا بكرة ونافع بن الحارث بن كلدة وشبل بن معبد شهدوا على المغيرة بن

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر: ج ٦٠ / ٣٢

شعبة أنهم رأوه يولجه ويخرجه وكان زياد رابعهم وهو الذي أفسد عليهم فأما الثلاثة فشهدوا بذلك فقال أبو بكره والله لكأنني بأير جدري في فخذها فقال عمر حين رأى زيادا إني لأرى غلاما كيسا لا يقول إلا حقا ولم يكن ليكتمني شيئا فقال زياد لم أر ما قال هؤلاء ولكني قد رأيت ريبة وسمعت نفسا عاليا قال فجلدهم عمر وخلا عن زياد^(١).

ويبدو أن هذه الحادثة كانت عاملا من عوامل عزل عمر الفاروق المغيرة بن شعبة هذا، وإن ولربما بقيت في النفس منها بقية.

والله لأضحكنكم من ثقيف !

وإلا أن هذا المغيرة بن شعبة، ولما كان له دوره الفعال الخالد في الإتيان على الألهة، الربة، اللات، يومه هذا، وحين أنابه النبي محمد صلى الله عليه وسلم على القيام على أمر بني قومه ثقيف، يومهم هذا، وكما أنف أيضا، عملا إداريا ألعيا، ولما كان يختار لقيادة القوم، وممن هم من ذوي ألسنتهم، وممن هم من بني جلدتهم، عنهم يعرفون، ومن لسانهم يتكلمون.

وعلى أن هذا هو المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله تعالى عنه، ويوم أن أحيا التاريخ ذكره، ومن هكذا بذل في سبيله ربه تعالى، وحين تجشم أن يواجه الكفر وحده؛ ومن صدق التوكل، ومن يقين الاعتماد على الله تعالى، طاقة خلافة، جياشة، يقذفها هذا الدين، وفي قلب الرجل الواحد منهم، ويكأنك، ومن بعدها لتحسبنه أمة واحدة وحده! وإذ كيف قام هذا المغيرة

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر: ج ٦٠ / ٣٣

وواجه هذه الجماهير الغفيرة؛ وليهدم آلهتهم وحده! وإلا أن هناك طاقات خلابة، تستجيش هذا العبد الصالح، وهو إذ يقدم ولايتأخر، وهو إذ يصدق، وهو إذ كانت، ومن بين يديه ومن خلفه هذه الشهادة، ولما كان من مضرب مثل الناس يومهم هذا، ويوم الناس هذا، وحين قالوا: اطلب الموت توهب لك الحياة! ولأنه كانت هذه الشهادة، وهي التي تقوده، ولما كانت هذه الجنة، وهي التي تسوقه! ومن قوله تعالى، وحين استحضره، ومن تنزيله سبحانه، ولما تأوله، وحين قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولكن هذا المغيرة بن شعبة وإذ كان مستحضرا دفاعا مستميتا، ومن أولاء القوم الكفرة، عشيرته، ولما كان، ومن حسابانه قومتهم عليه قومة واحدة، ولكنه هو هذا الحق، وحين يدفع صاحبة الدفعة، ولكنه الإيمان، ولما يقذف في قلبه المؤمن به، وهو ذلكم البذل، وإذ ليس مستحضرا، ومن مشاعره، وإلا ذلكم الجهاد في الله تعالى، حق جهاده، ولما كان، ومن قوله تعالى أيضا ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولكن هذا دفاع عروة بن مسعود الثقفي! وعن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم الحديبية، ويعلم هذا دربه، ولما كان ومن مواجهة ثقفي مثله، ولكن هذا هو الإسلام الحنيف الخالد، وحين تؤخر الأنساب،

وحين معارضتها لمقومات هذا الدين، أو تصوراته، أو اعتقاداته، أو بذله، أو جهاده، أو قيمه، وهذا الذي نقف عنده أيضا، ولما كان الناس، ويكأنهم، وهكذا ينظرون، ومن نظرتهم هذه إلى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وبذلا لمهجهم دونه، ولو كان ذلك ومن مواجهة الأقربين، ومن أنسابهم؛ ولأن هذا هو موجب عقد الولاية لله تعالى، وحين قال سبحانه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ و ٥٦]. وقال تعالى أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۚ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

فعن المسور بن مخرمة: خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- زمن الحديبية - فذكر الحديث - قال : فأتاه ؛ يعني: عروة بن مسعود - ، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر، فضرب يده بنعل السيف، وقال : أخر يدك عن لحيته، فرفع عروة رأسه، فقال : من هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة^(١).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٥٥

وقد أنف حديث الإمام البخاري، وبلفظ آخر، ومن نفس معنى حديث أبي الإمام داود هذا؛ ولاعتبار وحدة الراوي، وهو المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه.

يدخل من قُتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم

وليس يقل هذا أنفة، وعما قبله، ومن هكذا بذل في الله تعالى، وحين يقف المغيرة بن شعبة هذا، ومن أمام رستم، وما أدراك ما رستم يومها؟! ولما كان زعيم القوى، لا قوة واحدة، ومن عصره ذاك، ولكن رجلا واحدا، هكذا يقف، ومن أمامه، وإن ليس يخافه، بل وتأخذ الرعدة رستم هذا؛ ومن قول الحق، ومن حديث الصدق، ومن صولة البذل، وحين يؤدبه أدبا، لم يؤدبه به أحد- ولا أحدا- من العالمين، وحين يقف هكذا المغيرة بن شعبة، رافعا لواء العزة، والإباء، والكرامة؛ ومن موجب هذا الدين، الذي يحمله، وهو هذا الدين الذي قد كساه بها، أنفة، وعزة، وشكيمة، منقطعة النظير، وإلا، ومن مثل المغيرة بن شعبة هذا، قوم كانوا بالحق، وبه كانوا يعدلون، ولما كان هذا الدين هو الذي كان موجب هذه العزة، وهذه النفرة فيه تعالى، ويكأن دنياهم، وإن ليس يحزن عليها، ولا يركنن عاقل إليها، وإلا ذو حظ دنيوي، وإلا هكذا محروم، ومن هكذا سعد، وخير، وفوز أخروي، ويكأن هذا رستم يبكي على دنياه، ويكأن هذا المغيرة بن شعبة يهمله- وفقط يهمله- أخراه، وليقض رستم، وما هو قاض، وإنما يقضي هذا الحياة الدنيا.

ولكن رستمَ هذا، وإذ يستحضر تاريخ الضعفة العرب أولئك، ولكن المغيرة بن شعبة يريه العزة، ومن حيث أتى جيل جديد يمهر الكون ومن ظلال الحق وبما يحمله ومن ظلال السؤدد والرقى والإباء، وكيف كان هذا الذي يحكيه رستم تاريخاً مضى، ولما كان أمراً قد انقضى، وها هو الإسلام يحلل على الناس، ومن حليته، ومن حلتته، ومن أبهته، ومن أنفته، وعزته، وقوته، وشكيمته، ومن أمام أولاء الخزايا، ومن الكفار، والذين ليسوا يكادون يعقلون، ولا يهتدون سبيلاً، ولما كان هو ذا همهم دنياهم، ولما كانوا هكذا لا يعتبرون بسجل التاريخ، وأن الأيام دول، وما كان ذليل أمس، ويكأنه اليوم هو عزيز اليوم، وإذ كان ذلكم؛ ومن نصرة الرحمن، ولما كان ذلك؛ ومن إسلام الوجه الفؤاد له، والجنان، والأركان، ويكأنه هذا هو موجب البذل والإسلام والإيمان والإذعان.

فعن المغيرة بن شعبة والنعمان بن مقرن: بعث عمر الناس في أفناء الأمصار يقاتلون المشركين، فأسلم الهرمزان، فقال: إني مستشيرك في مغازي هذه، قال: نعم، مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس، وله جناحان، وله رجلان، فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس، فإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، وإن شدخ الرأس نهبت الرجلان والجناحان والرأس؛ فالرأس كسرى، والجناح قيصر، والجناح الآخر فارس، فمر المسلمين، فلينفروا إلى كسرى. قال: فندبنا عمر، واستعمل علينا النعمان بن مقرن، حتى إذا كنا بأرض العدو، وخرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفاً، فقام ترجمان، فقال: ليكلمني رجل منكم. فقال المغيرة: سل عما شئت، قال: ما أنتم؟ قال: نحن

أناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر، فبينما نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين -تعالى ذكره وجلت عظمتة- إلينا نبيا من أنفسنا نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن رسالة ربنا: أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم. فقال النعمان: ربما أشهدك الله مثلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يندمك، ولم يخزك، ولكني شهدت القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كان إذا لم يقاتل في أول النهار، انتظر حتى تهب الأرواح، وتحضر الصلوات^(١).

(١) صحيح البخاري: ٣١٥٩

المقداد بن عمرو بن الأسود

علم نبوة ضاف

«إحدى سؤاتك يا مقداد»

هذا علم من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ويوم أن دخل عليه هذا الصحابي الكريم المقداد بن عمرو بن الأسود وصاحبان معه، ويوم أن عرضوا أنفسهم على إخوانهم؛ ليسدوا جوعهم، وليرووا ظمأهم، وإلا أنهم لم يجدوا عندهم شيئاً يومها، وهذا شأن أولاء النفر، يومهم هذا، وإن صبروا في الله تعالى، وصابروا، واحتسبوا، وهم أولاء الذين كانت لهم أعمالهم، وتجاراتهم، وأسواقهم في مكة، ومن قبل هجرتهم تلك التاريخية، ومن يوم نقلتهم تلك العقائدية، دينا لا يساكن مشركا، وعقيدة تتأبى مساومة، ويوم كانوا أغنياء، لا فقراء، ولكنه هو هذا البذل في ربهم سبحانه، ويوم أن استأهلوا ذلكم الثناء الرباني، وهذه الحفاوة الإلهية، ويوم هجرتهم، ومن قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ولكن هذا المقداد بن عمرو بن الأسود وصاحبيه؛ ولما وجدوا شيئاً، فراحوا إلى بيت نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولعلمهم أن يجدوا عنده شيئاً؛ يسدوا منه رمقهم، وليروا منه ظمأهم، وإلا أنهم وجدوا عنده ثلاث عنزات، وهن الماعز! وهذا الذي كان أيضاً، وفي بيت قائد أمة أخرج الله تعالى

بنبيهم، وثم بهم الناس من الظلمات إلى النور، ومن اكفهرار الحياة
وضنكها، وإلى سعة الدنيا والآخرة.

ومن ثم أذن لهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أن يحلبوها، ومن
ثم قد سد رمقهم، وارتووا من ظمأهم، وهذا أيضا من سبب الحليب
وطعمته، فيسد جوعا، ومن موجهه وشربته، فيروي ظمأ، وهذا الذي قد جاء
به هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد أزكى هذا اللبن قولاً، ولما
قد أسند له فضلا، ولما أن كان أفضل الزاد، وخير الطعام والشراب أيضا.
ويوم أن قال عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنه: كنت في بيت ميمونة،
فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه خالد بن الوليد، فجاءوا بضبين
مشويين على ثمامتين، فتبزق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال خالد:
إخالك تقذره يا رسول الله ! قال: أجل ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بلبن فشرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أكل أحدكم طعاما
فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرا منه، وإذا سقي لبنا فليقل: اللهم
بارك لنا فيه، وزدنا منه ؛ فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب إلا
اللبن^(١).

ولكن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذا تراك تحسبه كريما
أيضا، ومن كرمه هو تلكم الاستضافة لهذا الصحب الكريم، وعلى ضيق
مساحة بيته، وهو ذلكم بركته، ولما يحتلبون ثلاث عنزات، وتدر ما منه
كفاهم جميعا، فضلا منه تعالى، وسعة، ورحمة.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٧٣٠

ولكن هذا ما كان يملكه قائد أمة! فتح الله تعالى؛ ومن سببها الأمصار، والبلاد، والأنحاء والأرجاء والدقاق، والشقاق، ولما كانت، ومن قلوبها تحمل خيرا للناس تسديه، ولما كانت ومن ألسنتها تنبض مسكا وللعالمين تحذيه.

وهذه ثلاث عنزات، هي ثروة نبي الأمة، وهاديها، وحاديها، إلى رب العرش الكريم، ربها ومولاها، ومؤويها.

ولكن هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، ولما كان من لطفه تعالى، هو ذلكم الابتداع في الأمر، والذي كان منه الطرفة، والذي كان منه الإعجاز أيضا، وحين قد غلبه، وما يغلب الآحاد يوما، ومما يلاقيه العبد أحيانا، فتضعف نفسه، وها هو إذ ينهض من جديد، ومن توبة، وها هو ليستيقظ من حديث، ومن أوبة، ولأن لكل جواد كبوة، ولكل عالم زلة، وهذا ولأن أفراد هذه الأمة، وحين يلبس عليهم شيطانهم الهنيهة، وإلا أنهم وسرعان ما تجدهم يعودون، ويؤوبون، ويستغفرون، ويتوبون.

وحين كان من أمر هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، وهو إذ شرب نصيب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن اللبن! ومن ثم جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وليكفيه، فيشرب ليرتوي، ومن كمثل ما ارتوى هذا المقداد بن عمرو بن الأسود! وإلا أنه لم يجد ما يروي به ظمأه، وما يسد به رmqه!

ومن ثم يجد هذا المقداد بن عمرو بن الأسود من نفسه ما وجده، ومن إيلام نفس، ومن استصحاب المؤاخذة، وعلى هذه النفس الأمارة، ولولا أن الله تعالى غفور رحيم.

ومن ثم ترى هذا الإلف النبوي، ومن ثم تعيش هذه الرحمة المهداة،
والنعمة المسداة، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كشف
غطاء الوعاء، ولما لم يجد شيئاً، ولكنه يدعو، ومن دعاء الخير، وحين قال:
اللهم أطعم من أطعمني، وأسق من أسقاني!

ولكن هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، ولما كانت عليه شملته، ولما
كانت، ومن هذا القصر، وحين يضعها على رأسه، فتبدو منها رجلاه، وحين
كان يضعها على قدميه، فتبدو منها رأسه ولحياه! وهذا شأن أولاء الصحب
الكرام، الغر، البررة، الميامين. يومهم هذا، ويوم كان فيه تعالى صبرهم،
واحتسابهم، وجلدهم.

ولكن هذا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، وحين وجد هذا المقداد بن
عمرو بن الأسود، رضي الله تعالى عنه، ضاحكا مستلقيا؛ ومن شدة ضحكه،
وحتى قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «إحدى سؤاتك يا مقداد»، وهذا
الذي أعده عَلمًا، وهذا الذي أحسبه إعجازاً! وحين أتشفو منه علم هذا النبي
محمداً صلى الله عليه وسلم، وبما حدث، ويكأنه لم يرد إلا أن يستر المقداد،
ولا يخرجه، ولا سيما أنه كان ضيفا عنده! وهذا حسن خلق النبي محمد
صلى الله عليه وسلم، وهذا لطف وأدب هذا الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم، يستر، ويحلم، ويعفو، ويزكو نفسا، وقلبا، وقالبا. ويكأنه يقول له:
وإن وراءك لخبر، وإن منه للعبير! وليحكي المقداد بن عمرو بن الأسود ما قد
وقع منه؛ وليزكو نفسا مرة أخرى، وحين سمع دعاء النبي محمد صلى الله
عليه وسلم له، وليس عليه، وحين كان الشيطان قد لبس عليه في الأولى،

وحين شرب نصيب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد وسوس إليه في الثانية، ولما أن أراد أن يفتنه، ولما لم يعلم الشيطان الرجيم هذا، وأن العباد أوابون، وأن الأولياء توابون.

ولكن هذا هو خلق هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بلغ مبلغه، وحين أخبر هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، وأنه ولو كان قد أيقظ إخوانه الطاوين جوعا، ومن كمثلهم فيمنحهم، ومن نصيب هذا النبي الذي شربه وحده، ولما لم ينظر النبي إلى ذات نفسه، ولما كان وحسبه، أن أهمه شأن أولاء الأضياف، الطاوين جوعا، والظامئين ريا!

على أن هذا هو خلق هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين ألقى السلام؛ ولأنه سلم، وأمن، وسلام، ولأنه موجب الاطمئنان والوئام. وكذا، وحين كان، ومن صوت يسمع يقظانا، وليس يوقظ نائما، وسطية كانت هذه الأمة، ومن سائر أفعالها، وأقوالها، واعتقاداتها، وهذا الذي جاءنا به الذكر الحكيم منهجا، وحسن سبيلا، وحين كان منه قوله تعالى ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

علم نبوة ضاف

«ما هذه إلا رحمة من الله»

ويكأن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما تنزل على العالمين بركته، ولما يتحف الناس، ومن موجبات ولايته، ورسالته، علما آخر ضافيا، ومن أعلام نبوته، وحين يروح هذا المقداد بن عمرو بن الأسود؛ وليذبح عنزة، ومن هؤلاء الثلاث، نفسا زكية أيضا، وحين كان طرفاها، ومن هذا الزكاء الذي رمناه، ومن هذا الإلف الذي عايناه، وعائشناه، ورأيناه، وحين يجد هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، ومن ذات قريحته، وأن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وجيد حسن مظهرته! وأن ليس وإلا تراه مسرورا، وحين راح هكذا شعور، وإحساس ضيفه، وأن يقوم هو بذبح عنزته، ولعلمه عن رضاه، وليقينه من حسن سجايه، ومن سماحته، وطيب عشرته! وحين يروح هذا المقداد بن عمرو بن الأسود رواحه هذا، وليسبح في فضاء المضيفين، وليقف على هكذا سناء سيدهم، وليرينا كيف كان هكذا بذل نبيهم، وكرمه، وسماحته، وحين يكون، ومن هذا الوسع في الإكرام، ومن هذا الانفساح، ومن الإغداق، وأن يجد ضيفه منه من السماحة، وألو كان قد ذبح عنزته!

ولكن هذا المقداد بن عمرو بن الأسود، رضي الله تعالى عنه، وليبدله الله تعالى خيرا، ومما راح عليه، ومما تاقت نفسه إليه، وليجد هذه العنزات الثلاث، كلها ضرعى، وحفلى، وليحلبها كلها، عوضا عن ذبح إحداهن، وليعود وليرتوي الجميع من ألبانها، لبنا خالصا سائغا للشاربين! وعندها،

وليقول هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم قوله، وليرجع إليه تعالى مَنْهُ، ونعمه، وكرمه، وفضله، وحين علم الناس، وإن هذا لمن فضله تعالى، وأليس للعبيد في ذلكم من شيء! وحين قال لنا هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم قوله هذا: «ما هذه إلا رحمة من الله»

فعن المقداد بن عمرو بن الأسود: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسمعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثة أعز، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: احتلبوا هذا اللبن بيننا، قال: فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ونرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه، قال: فيجيء من الليل فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً ويسمع اليقظان، قال: ثم يأتي المسجد فيصلي، ثم يأتي شرابه فيشرب، فأتاني الشيطان ذات ليلة وقد شربت نصيبي، فقال: محمد يأتي الأنصار فيتحفونه، ويصيب عندهم، ما به حاجة إلى هذه الجرعة، فأتيتها فشربتها، فلما أن وعلت في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيل، قال: ندمني الشيطان، فقال: ويحك! ما صنعت؟! أشربت شراب محمد، فيجيء فلا يجده فيدعو عليك، فتهلك فتذهب دنياك وأخرتك؟! وعلي شملة إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي، وإذا وضعتها على رأسي خرج قدمي، وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحبائي فناما ولم يصنعا ما صنعت. قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فسلم كما كان يسلم، ثم أتى المسجد فصلى، ثم أتى شرابه

فكشف عنه، فلم يجد فيه شيئاً، فرفع رأسه إلى السماء، فقالت: الآن يدعو علي فأهلك، فقال: اللهم أطعم من أطعمني، وأسق من أسقاني، قال: فعمدت إلى الشملة فشددتها علي، وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن؟ فأذبحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هي حافلة، وإذا هن حفل كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد صلى الله عليه وسلم ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه، قال: فحلبت فيه حتى علتة رغوة، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أشربتم شرايكم الليلة، قال: قلت: يا رسول الله، اشرب، فشرب، ثم ناولني، فقالت: يا رسول الله، اشرب، فشرب، ثم ناولني، فلما عرفت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد روي وأصبت دعوته، ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إحدى سؤاتك يا مقداد، فقالت: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا وفعلت كذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت أذنتني فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها، قال: فقالت: والذي بعثك بالحق، ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس^(١).

خادم النبي صلى الله عليه وسلم : أبو السّمح إياد

«يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام».

هذا بيان الصحابي الخادم أبي السّمح إياد، عن نبينا محمد، وأن هذه من بعض أحكام إزالة النجاسات، ولما كان الطفل الذكر، ولما لم يطعم، وحين يبول على الثوب، أو البقعة، أو البدن، وإنما يطهره الماء رشاً؛ ولأن بول الصبي الصغير خفيف، ليس منعقداً، والحال أنه لم يطعم، وأما بول الصبية الصغيرة، وإنما يغسل من بولها؛ ولأنه ثقيل ينعقد، والحال أنها لم تطعم أيضاً.

وعليه فإنه يجب غسل المكان الذي بال عليه الصبي الذكر أو الصبية الأنثى، ومن بعد أن يطعما.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى موقوفاً على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

وأقول: ولو أنه جاء عنه موقوفاً، وإنما جاء، ومن طريق أبي السّمح إياد، خادم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما يمنحه الصحة أيضاً، وحين ائتلفا، وهذا أولاً، وإنما يمنحه الصحة أيضاً؛ ولأن هذه الأحكام، وإنما لا مجال للرأي فيها، ومن حسن صنيع العبد أن يؤمن بها، وأنها جاءت من وحي، سواء أكانت وقفاً أو رفعا. وهذا ثانياً.

والرش: النضح، وهو دون الغسل. النضح: الرش.

نضح عليه الماء ينضحه (*) قوله نضح عليه الماء ينضحه إلخ بابه ضرب ومنع وكذلك نضح بالخاء المعجمة كما في المصباح.) نضحا إذا ضربه بشئ فأصابه منه رشاش. ونضح عليه الماء: ارتش. وفي حديث قتادة:

النضح من النضح، يريد من أصابه نضح من البول وهو الشئ اليسير منه فعليه أن ينضحه بالماء وليس عليه غسله، قال الزمخشري: هو أن يصيبه من البول رشاش كرؤوس الإبر، وقال الأصمعي: نضحت عليه الماء نضحا وأصابه نضح من كذا. وقال ابن الأعرابي: النضح ما كان على اعتماد وهو ما نضحته بيدك معتمدا، والناقة تنضح ببولها.

والنضح: ما كان على غير اعتماد، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، وكله رش.

والقربة تنضح من غير اعتماد... فوطئ (*) قوله اعتماد... فوطئ هو هكذا مع البياض في الأصل.) على ماء فنضح عليه وهو لا يريد ذلك، ومنه نضح البول في حديث إبراهيم: أنه لم يكن يرى بنضح البول بأسا. وحكى الأزهري عن الليث: النضح كالنضخ ربما اتفقا وربما اختلفا. ويقولون: النضح ما بقي له أثر كقولك على ثوبه نضح دم، والعين تنضح بالماء نضحا إذا رأيتها تفور، وكذلك تنضح العين، وقال أبو زيد: يقال نضح عليه الماء ينضح، فهو ناضخ، وفي الحديث: ينضح البحر ساحله. وقال الأصمعي: لا يقال من الخاء فعلت، إنما يقال أصابه نضح من كذا، وقال أبو الهيثم: قول أبي زيد أصح، والقرآن يدل عليه، قال الله تعالى: فيهما عينان نضاختان، فهذا يشهد به. يقال: نضح عليه الماء لأن العين النضاخة هي الفعالة، ولا

يقال لها: نضاجة حتى تكون ناضجة، قال ابن الفرج: سمعت جماعة من قيس يقولون: النضح والنضخ واحد، وقال أبو زيد: نضحته ونضخته بمعنى واحد، قال: وسمعت الغنوي يقول: النضح والنضخ وهو فيما بان أثره وما رق بمعنى واحد. قال: وقال الأصمعي: النضح الذي ليس بينه فرج، والنضخ أرق منه، وقال أبو ليلى: النضح والنضخ ما رق وثخن بمعنى واحد.

ونضح البيت ينضحه، بالكسر، نضحا: رشه، وقيل: رشه رشا خفيفا. وانتضح عليهم الماء أي ترشش. وفي الحديث: المدينة كالكير تنفي خبثها وتنضح طيبها، روي بالضاد والخاء المعجمتين وبالحاء المهملة، من النضح وهو رش الماء، وهو مذكور في بضع. ونضح الماء العطش ينضحه: رشه فذهب به أو كاد يذهب به. ونضح الماء المال ينضحه: ذهب بعطشه أو قارب ذلك^(١).

الرش للماء والدم والدمع، والرش: رشك البيت بالماء، وقد رششت المكان رشا وترشش عليه الماء، ورشت العين والسماء ترش رشا ورشاشا وأرشت أي جاءت بالرش. وأرض مرشوشة: أصابها رش. والرش: المطر القليل، والجمع رشاش، وقال ابن الأعرابي: الرش أول المطر. وأرشت الطعنة، ورشاشها دمها. والرشاش، بالفتح. ما ترشش من الدمع والدم، وأرشت العين الدمع، ورشه بالماء يرشه رشا: نضحه. وفي الحديث: فلم

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢ / ٦١٨

يكونوا يرشون شيئاً من ذلك أي ينضحونه بالماء، ورشاش الدمع، قال أبو كبير يصف طعنة ترش الجمع إرشاشاً:

مستنة سذن الغلو مرشة، تنفي التراب بقاحز معوروف وشواء مرش ورشراش: خضل ند يقطر مأؤه، وقيل: يقطر دسمه. وترشرش الماء: سال. وعظم رشراش: رخو. وخبزة رشراشة ورشرشة: رخوة يابسة. ورشرش البعير: برك ثم فحص بصدرة في الأرض ليتمكن، وقول أبي داود يصف فرسا:

طواه القنيص وتعداؤه، وإرشاش عطفه حتى شسب أراد تعريقه إياه حتى ضمر لما سال من عرقه بالحناذ واشتد لحمه بعد رهله^(١).

غسل الشيء يغسله غسلا وغسلا، وقيل: الغسل المصدر من غسلت، والغسل، بالضم، الاسم من الاغتسال، يقال: غسل وغسل، قال الكميت يصف حمار وحش:

تحت الألاءة في نوعين من غسل، باتا عليه بتسحال وتقطار يقول: يسيل عليه ما على الشجرة من الماء ومرة من المطر. والغسل: تمام غسل الجسد كله، وشئ مغسول وغسيل، والجمع غسلي وغسلاء^(٢).

الفرك: ذلك الشيء حتى ينقلع قشره عن لبه كالجوز، فركه يفركه فركا فانفرك. والفرك: المتفرك قشره.

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٦ / ٣٠٤

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ١١ / ٤٩٤

واستفرك الحب في السنبل: سمن واشتد. وبر فريك: وهو الذي فرك ونقي. وأفرك الحب: حان له أن يفرك. والفريك: طعام يفرك ثم يلت بسمن أو غيره، وفركت الثوب والسنبل بيدي فركا^(١).

الحت: فركك الشيء اليابس عن الثوب، ونحوه.

حت الشيء عن الثوب وغيره يحته حتا: فركه وقشره، فانحت وتحات، واسم ما تحات منه: الحتات، كالدقاق، وهذا البناء من الغالب على مثل هذا وعامته الهاء.

وكل ما قشر، فقد حت. وفي الحديث: أنه قال لامرأة سألتها عن الدم يصيب ثوبها، فقال لها: حثيه ولو بضلع، معناه: حكيه وأزليه. والضلع: العود. والحت والحك والقشر سواء، وقال الشاعر:

وما أخذ الديوان، حتى تصعلكا زمانا، وحت الأشهبان غناهما حت: قشر وحك. وتصعلك: افتقر. وفي حديث عمر: أن أسلم كان يأتيه بالصاع من التمر، فيقول: حت عنه قشره أي اقشره، ومنه حديث كعب: يبعث من بقيع الغرقد سبعون ألفا، هم خيار من ينحت عن خطمه المدر أي ينقشر ويسقط عن أنوفهم المدر، وهو التراب^(٢).

الغلام: المراد به الصبي الذي لم يطعم.

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٠ / ٤٧٣

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢ / ٢٢

وقد جاء هذا الحديث ومن طريق أم كرز الخزاعية الكعبية بلفظ: بول
الغلام ينضح، وبول الجارية يغسل^(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: يغسل من بول الجارية وينضح من بول
الغلام ما لم يطعم^(٢).

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٨٤٢

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٧٧

كاتب وحي النبي محمد صلى الله عليه وسلم : أبان بن سعيد

إتحاف العبيد من خبر أبان بن سعيد

قال: فأنا أنعته لك ، فوصفه بصفته سواء

هذا نقل أبان بن سعيد، كاتب وحي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن راهب نصراني، وحين أخبره بصفة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يره، ومما هو موصوف به لديهم في كتابيهم التوراة والإنجيل، ومن قبل التحريف، ومن قبل التبديل أيضا!

وهذا علم نبوة ضاف، ومن أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يذكر في كتب القوم، ومنهم هكذا قول ربنا سبحانه، ومن هكذا قولهم أيضا، ومن هكذا شهادة التاريخ عنهم، وتسجيله لهكذا حقائق، كان منها أن يسلموا، ولولا النفوس وهواها، ولولا شيطانها وتدليسها وسوؤها.

وعلى أن هذا أبان بن سعيد رضي الله تعالى عنه، ولما كان قد سمع، ومن صفة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن هكذا خبر، ولعل ذلك قد أتى أكله، ومنه فقد قذف الله تعالى في قلبه الهدى، ونور الحق، ومنه فأسلم، ومن بعد رجوعه من رحلته إلى الشام، ومن حيث كان يعمل تاجرا، وهذا شأن حريص على لقمة عيشه، وهذا شأن نشطاء الناس؛ وكما لا يتكفون الناس، أعطوهم ومنحوهم، أو منعوهم.

وعلى أن هكذا صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن حين جاءت، ومن كتبهم، ومن حيث قد نص عليها القرآن العظيم، ومن غير موضع فيه،

وإنما وبه كان على القوم أن يسلموا، وها هو كتابهم، يشهد عليهم بالحق،
وها هو كتابنا، يشهد عليهم بالحجة.

وهذا عمل الضمائر الحية، وحين تخلص من شائبة الهوى، ولما تتجرد
وإلا من إخلاص.

ولكن أبان بن سعيد هذا، ومن قبل إسلامه، كان شديدا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم والمسلمين^(١).

وكان سبب إسلامه أنه خرج تاجرا إلى الشام، فلقي راهبا فسأله عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إني رجل من قريش، وإن رجلا منا
خرج فينا يزعم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله مثل ما أرسل
موسى، وعيسى، فقال: ما اسم صاحبكم؟ قال: محمد، قال الراهب: إني
أصفه لك، ذكر صفة النبي صلى الله عليه وسلم وسنه ونسبه، فقال أبان: هو
كذلك، فقال الراهب: والله ليظهرن على العرب، ثم ليظهرن على الأرض، وقال
لأبان: اقرأ على الرجل الصالح السلام، فلما عاد إلى مكة سأل عن النبي صلى
الله عليه وسلم ولم يقل عنه وعن أصحابه كما كان يقول، وكان ذلك قبيل
الحديبية.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إلى الحديبية، فلما عاد عنها
تبعه أبان، فأسلم وحسن إسلامه^(٢).

(١) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط العلمية، ابن الأثير: ١٤٨/١

(٢) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط العلمية، ابن الأثير: ١٤٨/١

لا أعلم لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

هذا قول أبان بن سعيد، لأبي بكر الصديق، ورضي الله تعالى عنهما،
وحين قدم عليه أبان، ومن البحرين، ومن بعد وفاة النبي محمد صلى الله
عليه وسلم، وحين كان قد عينه أميرا على البحرين، ولكن أبا بكر أراده أن
يكون وعلى إمارته؛ ومن عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا أنه قال لأبي
بكر قوله هذا: لا أعلم لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم! عهدا كان
بين أولاء الجيل، ومن بين نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين كان من
أمره هذا، ورده هذا، وهو قول تتقاطر من حواليه الولاية، وتتهامر ومن
يديه الحفاوة، وبعهد كان هذا ميثاقه، وبين أولاء النفر، من هكذا جيل، كان
قد شهد لهم تاريخهم، بهكذا منظومة، عزَّ على غيره مثلها، أو كان قريبا
منها.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع كل دم في الجاهلية

وهذا فن إداري عبقرى، وإن يحفظ به الأمير نسيجه الاجتماعي، فلا
يخبو لهم نور، وإنما يستضاء، ومن نورهم العشي.
وهذا خبر أبان عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين روي عنه
أنه خطب، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع كل دم في
الجاهلية^(١).

(١) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط العلمية، ابن الأثير: ١/١٤٨

وحين كان صلى الله عليه وسلم قد وضع دماء الجاهلية، وحين كان البدء بآله صلى الله عليه وسلم؛ ومنه فإن هذا سبيل الإصلاح الاجتماعي، والإلف المجتمعي، ولما كان الثأر دينا عند الناس، يومهم هذا، وهو الأمر الذي يكون من شأنه هذا الاختلاف الاجتماعي، والفرقة والحرب والمنازعات، والتي لا يتخيل لها يوم خلاص الناس منها، وإلا أن يأتي داعية الحق، وهو الذي من مكنته، وإدارته، ومن حزمه، وليضعها، وفي نصابها أيضا، وبالتالي يعم؛ ومن موجب ذلك الأمن والأمان، وليحيا الناس يومهم، ومن ظلال المودة ورفقة السلام.

وهذا الحديث، ومن نصه، وهو ما جاء به جابر بن الله بن حرام، رضي الله تعالى عنهما، وحين كان من خطبته صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع، ومما أنف بيانه في حينه، ومن كتابنا حول هذه السيرة النبوية المباركة^(١).

فعن جابر بن عبدالله إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أضعه من دمائنا دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن

(١) السيرة النبوية، أحداث ودلالات، للمؤلف.

ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: اللهم اشهد^(١).

وأما عن كونه كان أحد كتاب الوحي، وإنما كان ذلك، وكما قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب، فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت، وكتب له عثمان وخالد ابن سعيد وأبان بن سعيد. هكذا قال. يعنى بالمدينة، وإلا فالسور المكية لم يكن أبي بن كعب حال نزولها، وقد كتبها الصحابة بمكة رضي الله عنهم^(٢).

خبر خالد بن سعيد

وإذ ليس يقل خبر أبان بن سعيد هذا، وعن خبر أخيه خالد بن سعيد، وأخيه عمر بن سعيد، بل كانوا أكثر أهمية، وحين كان من شأنهم أن يتخرجوا، ومن بيت أقام عليهم الثلاثة الدنيا، ولم يقعدها، وحين كان من أبيهم هذا الذي أنف، ولما تزعم النكرة، ولما اتخذ النفرة، ولما تنكب النصر، ولأولاده؛ وحين أسلموا، ولما كأن من شأنه هو هكذا أن يضرب ولده خالدا بعصاه، ولتنكسر على رأسه! ومن أسلوب فظ، ومن تهكم شذ، وعن عواطف الآباء، وعن أحاسيس الوالد الحنون، الرهف المشاعر، الرقيق الأحاسيس،

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٠٦٨، أخرجه مسلم (١٢١٨)، باختلاف يسير.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٦١

وتجاه فلذات أكبادهم، وإنّ كان هذا فعل والد، ومع ولده! وما بال الناس، ومن فعل غير الوالد؟! والله المستعان.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

ولكن هذه هي ضريبة اليقين بالحق وحمله، والذود عنه، واحتمال أمره، ولما كانت معروفة لدى الحنفاء سلفاً، ولما كان الناس، وهكذا يقيمون سوق حربهم الشعواء، وعلى الحق وأهله، وكلما بدرت بادرة، أو وردة زاهرة! وها هم يكيلون لهم الشدة، والنفرة، والعداوة، والبغضاء؛ ولما يحملون من حق، ولما كان أدعى أن يجيبوا أولاء الثلة من المؤمنين، وإلى طهارة أفئدتهم، وإلى صواب رؤيتهم، وإلى صحة وجهتهم، ولما كانت، ومن إعلاء كلمة الحق، كلمة الله تعالى العليا، ولما كانت كلمة الذين كفروا السفلى، وإنّ نؤكد على هذا، ونذكره، ونكرره، ونذكر به، ولولا أن يكون الناس منه، وعلى علم، وأنها لسنة ماضية، وحين يواجه أهل الحق، ومن أهليهم أولاً! ومن ثم هم الذين يثيرون الأغبرة، ومن أول وهم ينثرون الأغبرة! ومن حولهم، ومن أولاء، ومن أولاء، ومن بعدهم، حتى كانوا هم أول من أطلق شارة بدء العدوان، وهم كانوا أول من أشعل نار الكذب والبهتان.

ويكأن أهل الحق صابرون محتسبون؛ ولأنه ما نيل منهم من عمل إلا كتب لهم به عمل صالح. وهذا الذي رأينا ومن آل سعيد أولاء وحين هاجر كل منة خالد وأخوه عمرو إلى الحبشة، ولما يعود ومن يوم خير، وأخوه سعداء بدينهم، وحين زailوا الناس، ومن كفرهم، ومن شركهم، ومن عدائهم،

ومن بطشهم أيضا، وتلك سنة جارية، وحين يأخذ أهل الحق مقعدهم، ومن مزيلة الباطل واهله، ومن ثم يعودون فاتحين غانمين، منصورين، غالبين، فائزين، فرحين بنصر ربهم، وإن نصر ربهم لقريب.

فضل خالد بن سعيد

وانظر فضله رضي الله تعالى عنه، وحين روت ابنته أم خالد فقالت: كان أبي خامسا في الإسلام وهاجر إلى أرض الحبشة وأقام بها بضع عشرة سنة وولدت أنا بها. وروى إبراهيم بن عقبة عن أم خالد قالت أبي أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم وروي أن رسول الله ﷺ استعمله على صنعاء وأن أبا بكر أمره على بعض الجيش في غزو الشام^(١)

ولكن أولاء الرهط ولما لم يكن إسلامهم، وإلا عقدا فريدا، وعملا نبيلًا تليدا، وحين جاهدوا في ربهم سبحانه حق جهاده، ولما أعلنوها صريحة، وأن دماءهم رخيصة في سبيل الله تعالى ربهم الحق.

ولكن أولاء الناس، ولما كانت تغطبهم أعمالهم في سبيل ربهم، ولما أصبحوا به قادة وسادة، ومن عملهم، والذي توجوا به أرواحا عالية، سامقة، رفيعة، أبية، سعيدة، ترفرف في عناء السماء، وسموا وعلوا بهذا الدين الذي راح بهم آفاق المجد والشرف والسؤدد.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٢٦٠

قال موسى بن عقبة، أخبرنا أشيأنا أن خالدا قتل مشركا، ثم لبس سلبه ديباجا أو حريرا، فنظر الناس إليه وهو مع عمرو. فقال: ما لكم تنظرون؟ من شاء، فليفعل مثل عمل خالد، ثم يلبس لباسه^(١).

لقد أريد بك خير، هذا رسول الله، فاتبعه تنج مما خفته

هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى لخالد بن سعيد، ويوم أن رأى رؤيا، وأنه على شفير جهنم، وأن أباه يقذفه فيها، وأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم يستنقذه منها. وهذا فعل أبي بكر ليأخذه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيسلم على يديه، وتأويلا لرؤياه هذه.

والحاصل أن هذه أسباب ربانية، وأن هذه لطائف إلهية، يفتح بها الله تعالى على نفر من عبده، وحين يريد بهم الخير، فيرون ومن منامهم، ومن تأويل مارأوه أيضا، ما يشدهم إلى الحق شدا، وما يأطرهم عليه أطرا، وهذا برهان الرضا والقبول، وحين يريد الله تعالى بعبد خيرا، وإنما يؤهله لتلقي طلاقات العطاء الرباني، وإنما يعده لاستقبال دالات الرضا بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٢٦٠

عمل الرؤيا في التاريخ

وكم كانت الرؤى فصلا حاسما، ومن حياة العبد، وحين ألقى عن نفسه براثن هلاكه، وبأسباب نجاته!

أولا: وهذا تأويل أبي بكر الصديق، ومنه فإن عالما بالرؤى وتأويلها، وإنما كان فصلا آخر، ومن فصول أعمالها- خير أعمالها- ولتكون زادا للعبيد على طريق الخير الفريد.

ولما كانت الرؤيا الصالحة، وبهذه المثابة، ولما تضمنت البشرية أو الإنذار أو المعاتبة، وها نحن أمام سجل تاريخي حافل، ومن هذه الرؤى، ومن تأويلها، وحتى كانت مجمعا للخير، وسببه، على مدار التاريخ البشري كله .

ثانيا: إن الناظر لرؤيا حكيت، ومن أمام نبي الله تعالى يوسف عليه السلام، وكيف كانت سببا في تحويل مجرى التاريخ والفكر الاقتصادي، وليقف منبهرا، ومن أمام تأويل رؤياه هذه.

ثالثا: إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وها نحن نقصص رؤى حدثت، ومن أمامه، ومنها هذا الذي بين أيدينا، وكم مر بنا كثير منها، وعلى مدار سفرنا الموسوم ب: السيرة النبوية أحداث ودلالات، وما منه يقف العبد منبهرا مندهشا، ومن هكذا طلاقات القدرة الربانية، وحين يقذف الله تعالى في روع الرائي، وما منه يكون سببا في تقلبه في الفضل، أو توحله في الوحل!

رابعاً: وما رؤيا الكافرين، ومن هزيمتهم هم أنفسهم يوم بدر ببعيد، وعلى ما ذكر، ومن حينه أيضاً في موسوعة: السيرة النبوية أحداث ودلالات.

خامساً: ولكن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت تتفلق رؤياه، وكفلق الصبح، تأويلاً عملياً، ووقوعاً فعلياً. وما يوم بعثته صلى الله عليه وسلم عنا ببعيد، وحين كان ذلك، ومن رؤيا رآها.

سادساً: وما يوم فتح مكة عنا ببعيد، وحين نزل فيه قرآن يتلى إلى يوم الدين، وبياناً لرؤيا، وكيف كان لها من أثر في تغيير مجرى أحداث التاريخ البشري كله؟! وحين قال الله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال " أرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه محلّقين، قال فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك ؟ فنزلت " (١).

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أرى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من

(١) فتح الباري: ابن حجر: (٤٥٠/١٩)

قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: " بلى، أفأخبرتكَ أنك تأتيه عامك هذا " قال: لا قال: " فإنك آتية ومطوف به ". وبهذا أجاب الصديق - رضي الله عنه - أيضا حذو القذة بالقذة^(١).

عدم استعجال تأويل الرؤيا: ومنه فليس يستعجل عبد في تأويل رؤياه، وإنما قد تمر عليها الأيام، أو الشهور، أو الأسابيع، وما بقي منه غير يقينه بمولاه، وإنه تعالى ولسوف يمنحه عطاءه، ومَنَّهُ، وهُدَاه. ويوم أن أخبروا، وإذ كان بين تأويل رؤيا نبي الله يوسف عليه السلام، ومن يوم وقوعها أربعون عاما. فعن سلمان الفارسي، قال: كان بين رؤيا يوسف إلى أن رأى تأويلها أربعون سنة^(٢).

سابعاً: وما كان زواج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن عائشة أم المؤمنين وإلا عن رؤيا صدق رآها صلى الله عليه وسلم.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لها: أريتكَ في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير، ويقول: هذه امرأتك، فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه^(٣).

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٤ / ٢١٥

(٢) جامع البيان، الطبري: ج ١٣ / ٩١

(٣) صحيح البخاري: ٣٨٩٥

ثامنا: ويكأن أعظم حدث كان في التاريخ، وإنما كان مقدمه صلى الله عليه وسلم وبعثته نورا وهدى للعالمين وحين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ و٤٦]. ومن رؤيا صدق رآها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة جاءه الملك، فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم} ^(١)

الألطف الربانية من الرؤيا الصادقة

وهذه من ألطافه تعالى، وأن يعد العبد إعدادا؛ ولملاقاة عمل هام، ومن حياته، أو من حياة الناس أجمعين، وإنما يكون توطئة، وليوم كان شرفا أن يأتيه، ومن رؤيا أريها، فيكون لها مستقبلا راضيا، ومن بعد هكذا تمهيد، ومن بعد هكذا توطئة، وهذا أمر نفيده في مسار علاقات الناس، وأن يمهّدوا بعضهم بعضا؛ ولتلقى أمرا، ومن رئيس، أو استقبال نهى عن قائد، وإنما يكون، ومن سبيل التمهيد والتوطئة، فكان أدعى للقبول، وأولى بالمسارعة في التنفيذ.

(١) صحيح البخاري: ٤٩٥٦

كاتب الوحي: أبي بن كعب

«إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»

هذا قول نبينا محمد صلى الله وسلم لأبي بن كعب، رضي الله تعالى عنه، وهو نباٌ ينطق الانبهار، وهو خبر يحكي صورة الاندهاش، والخوف، والوجل، وحين يسمي هذا الرب الكريم رجلا، ومن فوق سماواته، وكرسيه، وعرشه سبحانه، وهو إذ يوحي بمعاني الإخبات لهذا الرب الكريم، وحين يذكر عبدا، هكذا من عبيده تعالى، ولما كان هذا العبد، وبهذه المكانة في السماء، ولما كان هذا الرجل، أبي بن كعب، وبهذه الحفاوة، ومن حين يذكره ربه تعالى، ومن حيث استوى على العرش، وإنما كان عرشه تعالى، وإنما نستحضر كرسيه، وعظمته، وعلوه تعالى. ولما كان يزيدك إخباتا، وحين علمت أن هذا الرب الكريم سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولكننا، وإذ ليس يغيب عنا موجب هذه الحفاوة، وبعبد، ومن كمثّل، أو هو أبي بن كعب، رضي الله تعالى عنه، وحين كان حاملا لهذا القرآن العظيم، وإنما يزدان العبد، وبهذا الكتاب، ومن موجب، ومن سببه، ولما كان تاجا، ومن وقار، يوم لقاء الرب، العزيز، الغفار، القهار، وحين كان هذا، ومن جيد المكانة، ومن علوها، ومن سموها، ولهكذا عبد، وحين كان لهذا الكتاب حافظا، تاليا له، قائما به، وإليه داعيا، وعليه أيضا كان قائما.

وإنما تكون قيمة عبد، وبما يحمل ومن بين أضلاعه وجنباته، ومن آي الذكر الحكيم، وإنما يكرم ذووا هذا الكتاب وحاملوه؛ ومن موجب، وبما قد حباهم بهم ربهم، ولما كانوا حاملي لواء الذكر الحكيم، القرآن العظيم.

وهذه آية جمال، وكما أنها برهان سنا، وعلو منزلة، ولهكذا عبد في الدنيا، وإذ وما بالناس، وبما قد أعده له مولاه الرب الكريم، المنان، الرحمن، ويوم أخراه، وإذ ها هو يتقدم الناس، ومن نوره، ومن سناه، ومن هداه، ومن حلته، ومن زينته، ومن هكذا مشهد مهيب، وحين كان السر، ومن ذلك؛ ولأنه حامل لواء القرآن، ولأنه متلف بلفافته، ولأنه مرتد بردائه، ولما كان كلام الرحمن، ولما كان مستأهلا أن يكون كونه كذلك، بل ولما كان العبيد مستأهلين أن يكونوا، ويكأنهم هكذا، ومن أتباعه! ولما كان ومكتسيا، وبهكذا أمانة الفرقان!

وهذه آية ضافية للعالمين، وأن يحذوا هكذا حذو أبي بن كعب هذا أيضا، سيرة حسنة، وقدوة حسنى، وأسوة قصوى، وأن يكون العبد، ويكأنه ومن النور قد اكتسى، ويكأنه ومن هذا البهاء قد تسربل، واهتدى، واقتدى، واجتبى، ولما كان أيضا، ومن رضا الرب العظيم عنه، وإذ كيف بنا، وأن نستحضر هكذا سمو المنزلة، ومن هكذا علو المكانة، وسؤدد المقام، ومن دنيا حامل هذا اللواء، الفرقان، القرآن، ويوم لقائه ربه الرحمن اللطيف الخبير الرحمن أيضا؟!

ولهذا، ومن مثله معه، ولما كان من أبي بن كعب هذا الاندهاش، وهذا الانبهار، وهذا الإخبات، ولما كان منه سؤاله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم،

وعن موجب هذا الإقراء، وأن يقرأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وعلى هكذا عبد، قانت، أواب، تواب، مستغفر، منيب، ومن كمثل أبي بن كعب، لا، بل هو لأبي بن كعب نفسه؟!

وأقول: إن هكذا مشهدا، ولدى استحضاره، ليأخذن أحدا هناك، ومن حيث هناك كان، عميقا، سحيقا، بعيدا، وحين يعيش ولو لحظة، ومن هذا المشهد، الأغر، الأكرم، الأعلى، والأسمق، والأرفع، والأسمى، ومن آفاق، ليست على قدر الاستحضار وحسب، بل وعلى قدر التخيل؛ ومن دهشة، ومن انبهار أيضا.

وإذ كيف بعبد، ولما تذرف عيناه، بل وعيون الوجود كله، وإذ كيف به، ولما تندمع جفناه، بل وجفون الكون كله، وحين يذكره ربه، ومن فوق سماواته، ومن علو هذا الرب الكريم، المتعال، الكريم الوهاب، وإذ كان إذراف الدمع، ومن موجبه، ولربما كان عملا قليلا، وإنما وليس يملك عبد، ومن كمثل هذا أبي بن كعب، وأن يملك سواها، وألا يتمالك نفسه، ومن هكذا مشهد، ولما يمكن تخيله، أو بعض منه أيضا؟!

ومنه كان سؤاله هذا: وسماني لك يا رسول الله؟ وهذا سؤال الاندهاش، والانبهار، ومن هكذا مشهد، أمكن تخيل، ولو جوينبا واحدا، ومن جوانبه! وهذا سؤال التعجب، وهو سؤال، الإخبات، والإقنات أيضا، وحين تقر به عيون الساهرين، وأجفان السالكين، ونحو آفاق المجد، والسؤدد، والعلو، والرقي، والسمو، ولما كان هذا القرآن؛ ومن جيده، وما كسا به الأولياء، ولما كان منه هكذا احتماء الأولياء، وعمل العارفين، الأنقياء، الأتقياء.

وإذ كان حريا بنا معاشر الناس، وأن نقف، وهكذا ومن إخبارات، ومن كمثل أبي بن كعب هذا، وإذ نقف خاشعين، مخبتين، موقنين، متذللين، ولما كان يحدونا منه المثل، ولما كان يقدمنا، ومنه هو هذا الاقتداء، ومنه أيضا هو هذا الإعزاز، ولما كان العبد حاملا لواء هذا القرآن، ترنيمة، وترديده، وتلاوته، وتفسيره، وتأويله.

وإلا أنه ليس يغيب عن بالنا، بل يحضر، ومن أذهاننا، بل يمكث، هو ذلكم الفيض الواسع، الكريم، ومن علوم قد تربع بها هذا القرآن العظيم، وما لم يحك التاريخ، أن كتابا دارت حوله، ومن مثله، وهكذا من علوم، بلغت عددا كثيرا، وإنما كان لذلك؛ ولعظمته، وقيمته، وأهميته، وإعجازه، وتحديه، وبلاغته، وحين تربع على عرش قيم العلوم بأسرها؛ ولما حواه، ولكلها، وبعضها، وجزئها، ومن كمثل اللغة، والبلاغة، والنحو، والصرف، والإعجاز، والتحدي، والصرفة، وعلوم التفسير، وآداب التأويل، وعن عددها فحدث، ومن مناهج التفسير، والمفسرين، ومن علوم الخاص والعام، والمطلق والمقيد، و المجمل والمفسر، والإيجاز والإطناب والإسهاب، وكل حسب موضعه، بلاغة وقولا حسنا، وعلم نزوله وتنزله، وعلم أوله وآخره، وعلم طوالة وقصاره، ومفصله، وحواميمه، ومئينه، وثلاثينه، وأحرفه، ورسمه، وتجويده، وقراءاته، وتلاوته، وجمعه، وقراءته، وكتابته، وترتيبه، وأسماء سورة، وتوقيفه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ورسمه ووسمه، وأسباب نزوله، وإعرابه، وبنائه، وغريبه، وتنزيله، وتدوينه، وتأويله، وتدليله، ومكيه ومدنيه، وليله ونهاره، وصيفه وشتائه، وسفره وحضره، ونومه ويقظته، ووقفه وابتدائه، وإمالاته وفتحته، وإدغامه، ومن صغيره،

وكبيره، ومتماثله ونحوه، وكذا ما حواه، ومن علوم تجويده، ومما كان له بذلك من وجوه. وتخفيفه وتثقيله، ومعربه وبنائه، ومجازه وحقيقته، ووصله وفصله، واختصاره وتفصيله، وألقابه وأسمائه، وكناه، وأساليبه، ولغاته، ومجمله، ومبينه، وخصائصه، ومبهمات، وعلم سوره، وآياته. ووجوهه ونظائره، وعد آيه، وفضائله، وأفضله، وفاضله، وأقسامه، ورسوم خطه، وآداب كتابته، ومن نزل فيهم، وتشبيهاته، واستعاراته، ومشكله، وموهم اختلافه وتناقضه، وخبره، وإنشائه وحصره، واختصاصه، ومقدمه، ومؤخره، وآياته، وكلماته، وحروفه، وأجزائه، وأحزابه، وأرباعه، وموصله لفظاً، ومفصوله معنى، وعاليه، ونازله، ومتواتره، وأحاده، وشاذه، وحفاظه، وقارئيه ومفسريه، وفاقهيه، ومشيعه ومفرده، وإخفائه، وإقلابه، وإظهاره، ومده، وقصره، وغير مما لم أوفيه حقه وذكره. وحتى عدها السابقون حتى بلغت ثمانين علماً! أو ثلاثمائة! وحين قال أحدهم: فهذه ثمانون نوعاً على سبيل الإدماج ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة وقفت على كثير منها^(١).

وأقول: وهو الأمر الذي لم يتوافر عليه كتاب آخر!

ويتبقى السؤال قائماً: وإذ كيف لنا أن نتصور أن يقرأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب، وها هو قد علّمه، وها هو قد علّمه، وإذ وها هو قد علّمه، وها هو قد فقهه؟! ولا سيما، وما قد تنزل من آيات، وإذ

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي: ج ١ / ٣٠

كان فيها ما حواها، ومن معاني التثبيت به، ومن معاني العلم به، وحفظه، وتمكينه، ومن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩].

والجواب: وأنه صلى الله عليه وسلم، وحين كان ذلك كذلك، وأن يكون، وعلى سبيل لا التعليم، وإنما على سبيل البلاغ، وعلى سبيل علم أبي نفسه وتعليمه، وتمكين علمه ذلك، ولا سيما، وما سبق من علمه تعالى، أن أبا بن كعب هذا، كان من قراءة هذا الكتاب، ولما كان ومن كتبه هذا الخطاب؛ ومنه فقد كان حريا زيادة تعليمه، وتمكينه، ولو جاء في صورة أن يقرأ عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وإن ذلكم لأمر مشاهد، وحين يلقي الرجل منا، وعلى أسمع صاحب الخطاب، وما منه قد جاء الأمر به، والتكليف بموجبه، وإلا أنه وليلقى الملقى نفسه منه، ما منه يكون إبلاغه به، وما به يكون فقهه به أيضا، ولا سيما أن هذا أبا بن كعب، وقد كان منه ما اعترض به على قراءة غيره، ولما كان منه صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن الحكيم المجيد، قد أنزل على سبعة أحرف، ولما كانت لهجات العرب المختلفة يومهم ذلك؛ وكما يعم البيان، ويظهر الحجاج.

وأما قراءة التعليم والتفهم ومن جانب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن هذا لبعيد، بل محال؛ ولأنه قد علمه شديد القوى! ومن قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

ومعنى: «أن أقرأ عليك» قراءة إبلاغ وإسماع، لا قراءة تعلم منه، هذا لا يفهمه أحد من أهل العلم، وإنما نبهنا على هذا لئلا يعتقد خلافه، وقد ذكرنا في موضع آخر سبب القراءة عليه وأنه قرأ عليه سورة: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة» وذلك أن أبي بن كعب كان قد أنكر على رجل قراءة سورة على خلاف ما كان يقرأ أبي، فرفعه أبي إلى رسول الله فقال: «إقرأ يا أبي» فقرأ. فقال: «هكذا أنزلت». ثم قال لذلك الرجل: «إقرأ» فقرأ. فقال: «هكذا أنزلت». قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية. قال: فضرب رسول الله في صدره ففضضت عرقا، وكأنما أنظر إلى الله فرقا، فبعد ذلك تلا عليه رسول الله هذه السورة كالتثبيت له والبيان له أن هذا القرآن حق وصدق، وأنه أنزل على أحرف كثيرة رحمة ولطفا بالعباد^(١).

وها قد بانت قيمة أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، وها قد ظهرت أهمية تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ تواضعا، وإذ إن العلم، وهذا حقه، وحين كان الفاضل يقرأ، وعلى يدي المفضول؛ أمة بعضها من بعض، والله سميع عليم.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٦٢

البينة من سورة البينة

وها هي بانة أهمية سورة البينة خصوصاً؛ ولا شتمالها، وعلى أصول الدين، والعقيدة، والرسالة، والجنة، والنار، وإشارتها إلى مجمل أحوال العبيد، ومن علاقتهم بربهم المجيد، الفعال لما يريد سبحانه.

ولأن هذه سورة البينة، وكما هو بين، ومن وسمها، وحين جاءت بياناً لعقيدة هذا الدين في الله تعالى، واحداً، فرداً، صمداً، لم يلد، ولو يولد، ولكن له كفواً أحد، وكما أنه لم يكن له شريك في خلقه خلقه، ولما تنامى إلى أذهان العقلاء، وأن الله تعالى؛ وبهذه المثابة، ولم يكن له شريك في ملكه أيضاً، ومنه فلا ثمة ما يمكن قبوله، أو يبرره، وحين يشاركه سواه، وفي أمره، ولا في نهيه، ولما كان ومن هذه المثابة قيوماً يعلم مثاقيل الجبال، ومكايل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا توارى منه سماء سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره، ومن مقتضى أنه تعالى لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، وإن تظل هذه المكنة سرمدية، وإن تتبقى هذه الخصيصة أبدية، وكما أنها أزلية، وهي التي تكون وحدها، هي الموائمة، والمقتضية، والقاضية، والحاكمة، والفاصلة، ولكونه تعالى هو الخالق، البارئ، المصور أيضاً، وقول بغير ذلك هو مناقضة لمعقول صحيح، وفضلاً عن منقول صريح أيضاً.

وهذا الذي أوقع الناس، وفي خيبتهم، ومن قمة رؤوسهم، وإلى أخمص أقدامهم، وحين عجزوا وألا يقيموا للعدل سوقا، وها هم لم يستطيعوا، وأليس ومن مكنتهم أن ينصبوا للنصفة رواجاً؛ ولأن فاقد الشيء، وما هو بمطيق منحه نفسه، وفضلا عن أن يتحفه غيره أيضا.

وهذا هو الذي قرره هذا القرآن المجيد كله، ولاسيما هذه التي بين أيدينا، سورة البينة، وحين أعلنت هذه الألوهية، ولما كان قد استلبها الناس، ومن أهل الكتاب، ومن غيرهم، ومن مشركي الناس يومهم هذا، وأي يوم آخر غير هذا، وهو الأمر الذي وصمهم؛ ومن موجب، بكفرهم، وشركهم، وبغيهم، وعدوانهم، وبهتانهم أيضا.

وكما أنها- سورة البينة- جاءت، وتنزلت؛ ومبينة، وفاضحة، لهكذا مسلك الذين كفروا، ومن أهل الكتاب والمشركون، وأنهم وحين اختلفوا، ولم يكن لهذا الاختلاف، ومن مسوغ، أو سبب، أو موجب، أو حجة، أو بيان، أو برهان، وسوى أنهم قد جاءتهم البينة! وقد كان حريا أن يكونوا، ومن بعد هكذا بينة، ورشد، وسداد، ورشاد، ويكأنهم، وفي كل ذلكم، ومن بينة، ومن رشد، ومن سداد، ومن رشاد أيضا.

ولكنك وماذا أنت قائل، ولقوم قد جاءتهم البينة الواضحة، ولما كان ومن معناها هو ذلكم الوضوح كله، وهامم يختلفون فيها ولما كانت بينة، ومن البيان كله، ومن التبيين أجمعه أيضا، ولم يكن ليكتنفها غموض، ولو واحدا! وفي تنزيل حاسم، قوي، متين، هو قوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

ولكن سورة البينة، ولما أتت، وحين أتت، ولما لم تأت بجديد، وغير أنها أكدت على هذا الحق الأصيل لله تعالى، ومما أنف، ومن حيث كان هو وحده تعالى المستحق للعبادة وحده، ودون ما سواه؛ ولموجبات سبقت، ولمبررات أنفت، ومن خلقه الخلق، ومن علمه تعالى بمن خلق، وهو الخلاق العليم؛ ومنه فقد كان هو الأحق، والأجدر، والأفضل، والأوحد الذي يحسن إتقان، وما به يصلح أولاء البدائع من خلقه تعالى، وهو ما يكون من مثابته إخراج، وعلى أعلى طراز ممكن، ومن هذا التوفيق، والصلاح، والفلاح، وحين كان من عليم خبير، وبما أبدع، وأتقن، وأوجد، وصنع، وخلق، وبرأ سبحانه.

وقول بغير ذلكم، هو الذي أورد الناس، وما هم فيه، من مهالك، وهو الذي أوحلهم، وفيما هم فيه من موارد، وآه لو يعلمون! وحين قال الله تعالى **أَيضاً ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]**.

فعن أنس بن مالك: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، قال أبي: الله سماني لك؟ قال: الله سماك لي. فجعل أبي يبكي، قال قتادة: فأنبئت أنه قرأ عليه: {لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب} ^(١).

فكيف تقرأ في الصلاة؟

ولكن هذا هو فضل سورة فاتحة كتابنا، ولما كانت هي السبع المثاني، والقرآن العظيم، ولما كانت، ومن فضلها، وأنها ما أنزل الله تعالى، ومن مثلها، فضلا، وقيمة، وبرهاننا، ولا في الزبور، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في التنزيل الحكيم، القرآن، الفرقان، التبيان. وحين كانت، ومن رواية هذا الصحابي الكريم البار، أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أيضا.

وعلى أنه، ولم تصح صلاة عبد خلت صلاته عنها؛ ومن قوله صلى الله عليه وسلم: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب^(١).

وعلى أن تجوز الصلاة، وبغيرها، أو حتى شيء من القرآن العظيم، وشرطه العجز عن التعلم؛ ولعجمة، أو ما نحا نحوها.

فعن عبدالله بن أبي أوفى: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا فعلمني ما يجزئني منه، قال: قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال: يا رسول الله، هذا لله عز وجل فما لي، قال: قل: اللهم ارحمني وارزقني وعافني واهدني، فلما قام قال: هكذا بيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد ملأ يده من الخير^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٧٥٦

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٨٣٢

وعلى أن هذا هو التفنن الدعوي، وإن هذا لهو التقارب القلبي، وحين يشتمل داعية الحق مدعويه، ومن حنوه، ومن حلمه، ومن تخير وقت دعوته، ومن ربت على الصدور، ومن رفقة في البيان، والتبليغ، وحين كان هذا، ومن شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومع أبي بن كعب هذا، مسلكا وهديا حسنا. وحين أخذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بيد أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه.

فعن أبي هريرة: قال لأبي: إني أحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، قال: نعم يا رسول الله ! قال: إني لأرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي يحدثني، فجعلت أتباطأ مخافة أن يبلغ الباب قبل أن ينقضي الحديث، فلما دنوت قلت: يا رسول الله! ما السورة التي وعدتني ؟ قال: ما تقرأ في الصلاة ؟ فقرأت عليه أم القرآن، فقال: والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُخَيِّكُمْ ۚ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَخُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وهذا أمر ربنا تعالى، وللذين آمنوا، وأن يستجيبوا لله تعالى ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، إذا دعاهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولما يحيي قلوبهم، ومن غي، ولما يحيي أبدانهم، ومن عي، ولما يحيي مشاعرهم، وتصوراتهم، ومن جهالة، حطت ركابها على أدمغة القوم، حتى جعلتهم، ويكأنهم صرعى!

وهذا البيان، وإنما جاء منه تعالى، ولجماعة المؤمنين، وأن يجيبوا ربهم، وأن يسلسوا لنبيه قياهم، ولأن في هذا نجاتهم، ومن هلاك، ولأن في ذلك فوزهم، ومن خذلان.

ودلك على أهمية هكذا الاستجابة، وأن العبد مطالب بها، ولو كان في شأن صلاته، وهي الصلاة التي يبطلها عمل كهذا، ولغير سبب كهذا الذي بين أيدينا، وإنما كان خصوصية، ولهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولبيان شأنه، وأهميته في مسار الناس، نحو هدفهم المنشود، ومن الإفلات ومن جواذب الأرض، ومعمولات الوسوس، والنفث، وما سواهما، واللذان يمكن أن تكون عامل هدم لبناء، وفي هذا الصرح الإسلامي العالي السامق المجيد.

ويكأنه ويتبقى الأمر قائماً: وفيما لو دعا الإمام غير النبي أحدا من رعيته، ولأمر هام، وإذا كان من شأنه عدم تفويته، أو تأجيله، والحال أن الصلاة وقتها ممتد، وهو ما يشي، ومن نظرنا، سعة منهجنا، ومن ديننا؛

لاستيعاب هذا الأمر؛ ومن قياس حول واقعة أُبَيٍّ مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبي بن كعب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبي - وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه، وصلى أبي فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله: وعليك السلام ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك؟ فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحى الله إلي أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟ قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله. قال: أحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها. وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته^(١).

وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ومن طريق أخرى.

فعن أبي سعيد بن المولى: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت

(١) سنن الترمذي، الترمذي: ٢٨٧٥. خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح

أصلي، فقال: ألم يقل الله: {استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} [الأنفال: ٢٤]؟ ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته^(١).

وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب

وهذه شهادة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، وحين كان أقرأ الأمة بأسرها، ولكتاب الله تعالى ربنا وربها، وهذه شهادة الحق، ومن بيان لأهمية هذا القرآن، وعظم شأنه، وحين كان التفضل، ومن أساس قراءته، ومن أصل إحاطته، عملا به، وفقها به، وقراءة له، وهو ما يشي بأهمية علم قراءة وقراءات هذا الكتاب أيضا. وحين كان، ويكون تفاضل الناس، ومن غيره، ومن دنيا الناس، وعلى اختلاف مشاربهم ومناهجهم.

وهذه شهادة الحق وفي حق هذا أبي بن كعب وحين كان فاضلا غيره وغنما كان هذا الفضل ولتحمله هذا الكتاب القرآن الفرقان العظيم.

فعن عبدالله بن عمر: أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد بن ثابت،

(١) صحيح البخاري: ٤٤٧٤

وأقرؤهم أبي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح^(١).

وعن أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة، كلهم من الأنصار: أبي، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت. قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي^(٢).

ليهنك العلم أبا المنذر

وهذا ثناء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، على هكذا أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه؛ ولأنه حامل لواء هذا الفرقان، ولأنه متضلع بقراءته، وقرآته، وأحرفه، ولهجاته، هذا القرآن.

وهذا فن إدارة الناس، ودعوتهم، وحين كان من إلف، ومن حنو، ومن عطف، ومن رقة طبع، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين ينادي أبا، بكنيته، لا باسمه، وهذا أمر له حسنه، وله ظلاله، ومن أصول التعامل، وهذا فن إدارة عمل الناس؛ ولما يوجبه من محبة، ولما يستصدره ومن ود.

فضل آية الكرسي

أولاً: أعظم آية في كتاب الله تعالى؛ ولكن هذا بيان لفضل آية الكرسي، وحين كانت أعظم آية في هذا الكتاب المجيد، القرآن العظيم التليد،

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٨٦٨

(٢) صحيح البخاري: ٣٨١٠

ولما كانت متضمنة لأصول العقيدة، ومن ديننا، وحين كان الله تعالى هو المهيمن، وله السلطان، وله الحجة، والبرهان، ومنه البيان، وله الأمر، ومنه النهي وحده، لا شريك له، ومنه فكان هذا سرا، ومن أسرارها، وعلمها على فضلها.

ويكأنه ومن فضلها، وهو ذلكم الذي أشار إليه حديث آخر، وأن ليس يحول بين قارئها ومن بعد الصلاة وبين الجنة إلا الموت. وهذا برهان أنها سيدة أي القرآن، وبلا منازع؛ ولما تضمنته، ومن توحيد، ومن إفراده تعالى بهذا التوحيد، سلطانا أوحده، ومنه الأمر، وإنما نستمد منه النهي أيضا.

فعن أبي أمامة الباهلي: من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت^(١).

ولكن الفضل، ولأبي بن كعب، وحين استحقه، ومن جدارة، ولما أجاب النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، إجابة الحق، وحين كان هذا، ومن غير علم سابق، وهذا برهان أن هذه الأمة قلوبها متعلقة بكتاب ربها؛ وكما يستنقذ منه اللطائف، وحتى تستخرج منه الجواهر، وإلا فمن ذا الذي أعلم أبيا بن كعب هذا العلم الجليل، وإلا فمن أدراه بهذا الفقه النبيل، وإلا تعلقه بربه، وبكتاب ربه تعالى، وحتى ألف منه البيان، ويكأنه صفحة علم نافع مفتوحة، ولما يفيض عليه منها هذا الرب الرحيم سبحانه، ومن فيضه، ولما وجود عليه، ومن جوده سبحانه؟

(١) الصحيح المسند، الوادعي: ٤٧٨. خلاصة حكم المحدث: حسن.

فعن أبي بن كعب الحديث: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر^(١).

ويكأن هذا الفضل، وإنما يبدو أكثر، وإنما يظهر أوفر، وحين يوافق وحيا، أوحى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنه أيضا، ومن موجب الموافقة الأولى، فقد كان وحيا أيضا؛ ولأنه ومن مثل هذه الأمور، وإنما يعوزها وحى، يحققها، ويثبتها، ويؤكدها، وكان من تثبيته موافقته صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب، ولما قال قوله هذا.

ولكنه الآن، ومن بين أيدينا حديث صحيح، ومن وحى صريح، أوتيته صلى الله عليه وسلم؛ وليشي بصدق أبي، وكما أنه يشي بتحقيق هذا النبوة، ويكأنه يشي أيضا، ومن تثبت العلم، ومن وحى، وكما أنف؛ ولأننا أمة متعبدة بالوحيين، الذين هما الكتاب والسنة.

فعن أبي ذر قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلست فقال يا أبا ذر هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقممت فصليت ثم جلست فقال يا أبا ذر تعوذ الله من شر شياطين الإنس والجن قال قلت يا رسول الله وللإنس شياطين قال نعم قلت يا رسول الله الصلاة قال خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر قال قلت يا رسول فما الصوم قال فرض مجزئ وعند الله مزيد قلت يا

(١) صحيح مسلم: ٨١٠

رسول الله فالصدقة قال أضعاف مضاعفة قلت يا رسول الله فأيتها أفضل قال جهد من مقل أو سر إلى فقير قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول قال آدم قلت يا رسول الله ونبي كان قال نعم نبي مكلم قال قلت يا رسول الله كم المرسلون قال ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا وقال مرة خمسة عشر قال قلت يا رسول الله آدم أنبي كان قال نعم نبي مكلم قلت يا رسول الله أيما انزل عليك أعظم قال آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم^(١).

ثانيا: آية الكرسي حافظة من أذى الجن: فعن أبي بن كعب: أنه كان لهم جرن فيه تمر وكان أبي يتعاهده فوجده ينقص فحرسه فإذا هو بدابة تشبه الغلام المحتلم قال فسلمت فرد السلام فقلت من أنت أجن أم إنس قال جن قال فناولني يدك فناولني يده فإذا هي يد كلب وشعر كلب قال هكذا خلق الجن قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني قال له أبي ما حملك على ما صنعت قال بلغنا أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال أبي فما الذي يجيرنا منكم قال هذه الآية آية الكرسي ثم غدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره قال صدق الخبيث^(٢).

ثالثا: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان: هذا نصح شيطان رجيم! ومن أين له به علمه؟! وإن ليس خوض في ذلك؛ ولعله من استراق سمعهم، وكما جاء النبأ بذكلكم أيضا.

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٥ / ١٧٨

(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٧٣٨/٧

ولكن الذي نفيده، هو هكذا اختصاص آية الكرسي، وبهذا النبأ العظيم، والحق يقال: ولو لم منها إلا هاتان الخصيستان، لكفتا! وإن ماذا يريد مسلم، وغير أنه لا يزال عليه من الله تعالى حافظ، وإن وماذا يبغي، وغير ألا يمسه شيطان رجيم؟!

علم نبوة ضاف

وإن كان، ومن هذا النبأ إخباره صلى الله عليه وسلم، أن هذا إبليس مريد، وأن هذا شيطان رجيم، وهذا علم نبوة ضاف؛ ولما كان منه صلى الله عليه وسلم، أن صدق على قول إبليس أيضا، وهذا علم نبوة ضاف آخر، وإن ليست تعلم، ومثل هذه الأمور، وإلا من وحي.

وكما أن فيه حلم المسلم، وتصديقه، وحين صدق إبليس غيرة مرة، ويكأن المسلم كيس فطن، وحين أمسك به آخر المرة، ومن إثر أن تأكد لديه أمره، وانكشف عنده شأنه.

علم نبوة ضاف

وإلا أن هذا كان علما ضافيا آخر، ومن علامات نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أخبر أُنبيّا أن أسيره كان عنده، وطوال الليالي الثلاث.

فعن أبي هريرة : وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج،

وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك، وسيعود، فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعني؛ فإنني محتاج، وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك، قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقراً آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: ٢٥٥]، حتى تختتم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: ٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح -وكانوا

أحرص شيء على الخير- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقك، وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذاك شيطان^(١).

رابعاً: سيدة آي القرآن: والحديث الوارد في ذلك، وإن كان ضعيفاً، وإلا أنه يقوية ما جاء صحيحاً، وحين اشتمل على سورة البقرة أجمعها، وإن آية الكرسي لبعض منها؛ وبالتالي فتكون سيدة بأكملها، وسيدة بجزئها أيضاً. فعن أبي هريرة: سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه آية الكرسي^(٢).

خامساً: استخرجت من تحت العرش: فعن معقل بن يسار: البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً واستخرجت { الله لا إله إلا هو الحي القيوم } من تحت العرش فوصلت بها^(٣).

سادساً: اشتمالها على اسم الله الأعظم: عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في هاتين الآيتين " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " و " ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم " " إن فيهما اسم الله الأعظم ". وكذا رواه أبو داود عن مسدد والترمذي عن علي بن خشرم وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ثلاثتهم

(١) صحيح البخاري: ٢٣١١

(٢) ضعيف الترغيب، الألباني: ٨٧٩

(٣) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١٣٥/٢

عن عيسى بن يونس عن عبيد الله بن أبي زياد به وقال الترمذي: حسن صحيح^(١).

احفظ وعاءها وعددها ووكاءها

هذا شأن هذا الدين، في حفظ أمانات الناس، ولو كان من ضياع، فإن هذا لهو شأن المسلم الطاهر العفوف، وهو الذي من شأنه، ومن سببه، ومن موجبه، أن يصير كل العبيد فيه آمنين على أموالهم، وحين تضيع، وأن يصير كل مسلم حارسا، على هكذا أموال الجماعة المسلمة كلها، وهذا من معنى الولاية، ومن إلف المروءة، ومن موجب الرعاية، وحين يجد المسلم نفسه؛ ومن عفاف، وتجاه أموال الناس، ولو كانت من ضياع؛ وبه يصير هذا مجتمع القيم الفاضلة، والقائمة على حراسة الفضيلة، وفي أوجها، ومن سموها، ومن حفظها أيضا.

ويكأن هذا الذي ربي عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رعيته، يومه هذا، وإن لزال دينا يتعبد الناس ربهم سبحانه وتعالى به، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين.

فعن أبي بن كعب: لقيت أبي بن كعب رضي الله عنه، فقال: أخذت صرة مئة دينار، فأتييت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: عرفها حولا، فعرفتها حولا، فلم أجد من يعرفها، ثم أتيتها، فقال: عرفها حولا فعرفتها، فلم أجد، ثم أتيتها ثلاثا، فقال: احفظ وعاءها وعددها ووكاءها، فإن جاء

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ١ / ٣١٥

صاحبها، وإلا فاستمتع بها، فاستمتعت، فلقيته بعد بمكة، فقال: لا أدري
ثلاثة أحوال، أو حولا واحدا^(١).

إذا تكفى همك، ويكفر لك ذنبك

هذا بيان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لأبي بن كعب رضي الله
تعالى عنه، وحين أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم، أن يصلي عليه كثيرا؛
ولأجل هذين السببين؛ ولأنه وحين يكثر العبد صلاته على النبي محمد صلى
الله عليه وسلم، وإنما يكون قد أخذ بأسباب تحصيل خصيلتين، لا تعلق
إحداها على أخراها:

- ١- ولأنه يغفر ذنبه. وهذا وإنما ينضاف، وإلى قائمة عظيمة،
ومن موجبات غفران الذنوب، ولما كان منها هكذا كثرة الصلاة على
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
- ٢- ولأنه يكفى همه. وما أجمل أن يحوز العبد، وعلى هكذا فضل
عميم، من الله تعالى العلي العظيم، وحين يكثر الصلاة على هذا
النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
- ٣- وإنما كان ذلك، ومن موجب أن يستحضر العبد عمل هذا
النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيقتديه، وأمره فيأتيه، ونهيه
فيجتنبه ولا يدانيه.

(١) صحيح البخاري: ٢٤٢٦

٤- وإنما كانت الصلاة على هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن معنى الدعاء له صلى الله عليه وسلم؛ ولأن العباد، كل العبيد، وإنهم لفي حاجتهم، وإلى ربهم الحق الرحمن سبحانه، وإلى أن يغفر لهم خطاياهم، وان يكفر الله تعالى عنهم سيئاتهم.

فعن أبي بن كعب: قلت يا رسول الله ! إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: النصف؟ ! قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟! قال: إذا تكفى همك، ويكفر لك ذنبك^(١).

الأدعوتم لنا معكم

هذا هو تواضع عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه وبما كان عنه معروفا وبه معهودا وحين كان هذا هو إلفه ومن إوانه الكرام الغر البررة الميامين.

وهذا مناسبة دعاء أبي بن كعب ربه تعالى ان يصرف عنهم أذى سحابة كانت قد أغمتهم. وهذا برهان أن الغيم قد يكون سبب نقمة وكما انه يمكن ان يكون موجب نعمة ولانه قوما امطروا حتى أغرقهم ربهم ومن مطر! ولذا فقد كان هذا الذي حدث ومن غجابه دعوة أبي بن كعب رضي الله

(١) هداية الرواة، الألباني: ٨٨٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن

تعالى عنه ومن عبودية ومن اضطرار وحين كان منه يقين تصديقه ومن
غجابه ربه تعالى دعاءه.

وهذا الذي ينبغي ان يطكون عليه احدنا وحين يرفع كفي ضراعته
وإلى ربه الكريم المنان ولسوف يجبه ربه ولسوف لا يحرمه مولاه ول؟انه
تعالى هو الجواد المنان الكريم الرؤوف الرحيم وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّا
كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

فعن عن بن عباس قال قال عمر رضي الله تعالى عنها خرجوا بنا إلى
أرض قومنا فخرجنا فكنت أنا وأبي بن كعب في مؤخر الناس فهاجت
سحابة فقال أبي اللهم اصرف عنا أذاها فلحقناهم وقد ابتلت رحالهم فقالوا
ما أصابكم الذي أصابنا قلت إنه دعا الله عز وجل أن يصرف عنا أذاها فقال
عمر ألا دعوتم لنا معكم^(١).

ولكن هذه منقبة، ومنضافة وإلى مناقب هذا العبد الرباني، أبي بن
كعب رضي الله تعالى عنه، وحين كان قد أجاب الله تعالى دعاءه، ومن إثره!

(١) الأدب المفرد، البخاري: ص: ٥٩

خبر أبي بن كعب مع سعد بن الربيع رحمه الله ، نصحه لله ورسوله حيًا وميتًا

هذا ثناء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا الصحابي الكريم البار سعد بن الربيع رضي الله تعالى عنه، وحين كان يوم استشهاده يوم أحد، أمة تفنى؛ ومن سبيل ربها، وأمة تجاهد؛ ومن رضا ربها، أمة تغزو؛ ومن إعلاء لكلمة دينها، وابتغاء الجنة ونعيمها، وفرارا من النار وسعيها وزمهريرها.

ولكن هذه منقبة أخرى، ومنضافة إلى مناقب أولاء الأنصار، وحين كان منهم، وهو ذلكم الفناء في ربهم سبحانه، ولما كانوا من طلائع الفتح المبين، ومن مقدمات الغزو، ولإعلاء كلمة ربهم الحق البر الرحيم.

وهذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لسعد بن الربيع بالرحمة، وهذه حاجات العبد، يطرحها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بين يدي ربه تعالى، وأن يرحم عبدا قد انقطع به السبيل، وإلا من رحمة ربه تعالى.

وعلى أنه، ومنه كانت مشروعية الدعاء للعبد، وحتى وإن تأكد أنه مات شهيدا في أرض معركة القتال، وهذا سنن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هدي رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا عمل أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، وإذ وقف عند أخيه سعد بن الربيع، وها هو إذ يصارع موته، وها هو إذ يعاين مثواه! وها هو إذ يلقي ربا كريما، توابا، غفورا، رحيمًا، حسن التجاوز. وهذه أيضا ومن

لبنات هذا العطاء والولاء، ومن موجبات هذه الولاية، ولما يقعد عبد عند راس أخيه، وها هو إذ يراه، ومن رmqه الأخير، رحمة وعملا حسنا.

ويكأن هذا سعدا بن الربيع رضي الله تعالى، وهو وإذ هاهو مسجى، ليلقى ربا رحيمًا، ومن كلمه، ومن جرحه؛ وفي سبيل ربه، وإلا أنه ينهض لهم موصيا، بحمى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يدافعوا عنه، وأن ينافحوا دونه، وأنه ولا خير في أمة يتوصل، ومن خلّاهم إلى نبيهم، وها هم وإلا يدفعون عنه، ومن جهدهم، ومن طاقتهم، ومن وسعهم، ومن بذلهم.

وعلى أن هذه منقبة، ومن مناقب هذا الجيل كله، ولما لم يقعدوا، وعند قول ربهم سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. ولأن الأخذ بالسبب عندهم كان دينًا، ولأن الوقوف على حقيقة التوكل لديهم كان منهجا، وحسن سبيلا.

وعلى أن هذا كان إقدام أبي بن كعب أيضا، وحين كان، ومن مقدم، وحين لبي نداء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن إتيانه بخبر سعد بن الربيع يوم أحد هذا. وهذه منقبة أخرى منضافة، وإلى مناقب هذا أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه.

وعلى أن هذا أيضا هو شفقة القائد على رعيته، وعلى أن هذا هو أيضا حرصه على من هم تحت رئاسته وإدارته.

فعن يحيى بن سعيد قال: لما كان يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ من يأتيني بخبر سعد بن الربيع فقال رجل أنا فذهب يطوف في القتلى فقال له سعد ما شأنك قال بعثني رسول الله لآتيه بخبرك

قال فاذهب إليه فأقره منى السلام وأخبره انى قد طعنت اثنتي عشرة طعنة وإني قد أنفذت مقاتلي وأخبر قومك انهم لا عذر لهم عند الله ان قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد منهم حي قيل إن الرجل الذي ذهب إليه أبي بن كعب قاله أبو سعيد الخدري وقال له قل لقومك يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فوالله ما لكم عند الله عذر ان خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف قال أبا فلم أبرح حتى مات فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال رحمه الله نصح لله ولرسوله حيا وميتاً^(١).

أنها تطلع يومئذٍ لا شعاع لها

وهذا حكم سمعه أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن مقتضاه أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، ومن شهر رمضان المبارك. وهذا وإن كثرت فيه الروايات، وإلا أن رواية الإمام مسلم رحمه الله تعالى، ومن بين أيدينا الآن حاكمة أيضاً، وفيه سعة رحمة ربنا تعالى، وأن جعل ليلة منحة، ومن ليالي هذا الحول، وبلى ومن ليالي هذا الشهر الكريم رمضان، ولما كانت، ومن أجر قيامها، خيراً من أجر قيام ألف شهر! وهذا من منه، وفضله، وجوده، وكرمه، وإحسانه تعالى.

وهذا أمر يفيد الناس، وحين يقودون سواهم، وأن يمنحهم الجائزة؛ تنشيطاً، واستدعاءً للمكات العطاء، والبذل، وتأكيداً على معاني رحمتهم بهم

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٢ / ٢٧٧

أيضا؛ ولأنه الله تعالى، وحين كان من شأن أنه أرحم بالعبيد، وممن سواه، وعلى مبلغ ما وصلنا من علم في هذا، وحين كان منه هذا الفضل العميم، وأن يجعل الله تعالى أجر قيام ليلة واحدة، ومن شهر رمضان المبارك، وأن يعدل أجرها أجر عمل الليل والنهار، وطيلة ألف شهر كامل!

وعلى أن هذا ليس ينسينا التأكيد، ومرة أخرى، ومن علامات هذه الليلة المباركة، ومن رواية أبي هذه، وأنها تطلع شمسها، ومن إثرها لا شعاع لها، وهذا أمر منه نلاحظ، كم كانت دقة التحري عند القوم، وأن يتحروها ليشهدوا منافع لهم، ومن رحمته تعالى، وأجره، وفضله، وعطائه، ولأولاء العبيد المساكين.

وعلى أن هذا هو حرص الناس يومهم هذا، وأن يخلصوا إلى خبر صحيح، متعلق بموعد هذه الليلة المباركة؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وعلى أن هذا هو القسم، ومن جوازه؛ ولتأكيد خبر العبد، والأصل أنه صادق فيه، ولا سيما ومن صحابي كريم بار، وخاصة وحين يكون متعلقا، وبالنقل عن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والشأن أنه متعلق بمصالح العبيد، ومن دنياهم، ومن أخراهم أيضا.

وعلى أن هذا هو حرص قد بلغ بهذا لعبد الصالح عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه مبلغه هذا، وأن يقوم الناس ليالي عامهم كله؛ وانتظارا لليلة كان من شأنها، وأن أجرها خير من أجر قيام ألف شهر، وإذا كان منها هذه الليلة أيضا، وفي حسابات يكاد العبد لا يحصيها، ومن أجور يصعب به أن يتخيلها، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهو؛ وكما تبدى لك تحفيزا، ومراعاة لأجرها، ومراقبة لتنزل نفحاتها، وبركتها، وفضلها.

ويتبقى القول حول مشروعية التحفيز، ولهذا المدى الذي وصل إليه هذا العبد التقى النقي دقيق الساقين عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه. وعلى أنه يتبقى القول أيضا، وحين كان الأمر بقيامها، ومن هدي، وسنن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ومن نص الحديث ومعناه، ومن لفظه ومقتضاه وفحواه.

وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى أنه: سمعت أبي بن كعب يقول: وقيل له إن عبد الله بن مسعود يقول: من قام السنة أصاب ليلة القدر، فقال أبي: والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، والله إنني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها^(١).

كتاب الله، وسنة نبيه

هذا بيان هام، وهذا بلاغ عام، وحين كان التمسك بهذين الوحيين: الكتاب والسنة، ومن سبب الفلاح، ومن موجب الصلاح، وأن يقف العبد عند النص، فلا يتزحزح عنه شيئا، وحين كان النص واضحا، ولا إيهام فيه، ومن هذين الأصلين العظيمين الكتاب والسنة، وحين كان بيان هذا النبي محمد

(١) صحيح مسلم: ٧٦٢

صلى الله عليه وسلم، وأن الهدى فيهما، وأن التمسك بهما، وأن العمل على مقتضاهما، ولما كان من النجاة، والفلاح، والصلاح، والفوز، والرضا، والحبور، والنور، والسرور.

وهذا وقوف هذا الجيل الفريد العتيد التليد، عند أمرهما؛ فكانوا بهما سادة يومهم، وعمار دنياهم، وفائزي أخراهم، وحين استحقوا، ومن جدارة، ثناء القرآن العظيم عليهم، ورضوان نبيهم عنهم أيضا.

وعلى أنه وإن غم معنى، أو فات فهما، وإنما كان، ومن أولي العلم، فبهما الاقتداء، وحين قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فعن عن أسلم المنقري قال: سمعت عبد الله بن عبد الرحمن بن أبيي يحدث عن أبيه قال لما وقع الناس في أمر عثمان رضي الله عنه قلت لأبي بن كعب أبا المنذر ما المخرج من هذا الامر قال كتاب الله وسنة نبيه ما استبان لكم فاعملوا به وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه^(١).

(١) المستدرک، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٣٠٣

إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلاة على المنافقين ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا

هذا شأن الصلاة، ومن ديننا، وهذا فضلها، ومن إسلامنا، ومن نص قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن هؤلاء المنافقين، إذ لم يعلموها، ومنه فعنها تكاسلوا، ولا سيما هاتان الصلاتان، وهما صلاة الفجر أو الصبح وصلاة العشاء؛ ولأن الغالب فيهما عادة هو النوم والاسترخاء، وأيما عبد علم فضلها وغيرهما، فسارع، ونهض وانتهض، ومضى إلى طريق الخير سبيله.

ولكن هاتين الصلاتين، ولما كان ذا فضلها، ولو علم الناس، والمنافقون بوجه أخص، لأتوهما ولو حبوا، وزحفا على أيديهم وبطونهم؛ وذلك حرصا على أداء هاتين الصلاتين وغيرهما؛ ولأن الحديث أفاد بأنهما أثقل الصلاتين، ويكأن الصلوات كلها ثقيلة عليهم، والله المستعان. وذلك لخواء القلوب وفراغها، وعدم نشاطها، أو انتفاء استحضار أجزائها.

ولكن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، إذ ولما كان الشأن منه، وأنه نبي، وخير قائد، وإنما كان يسأل، وعمن لم يحضر الصلاة، ولعل مانعا، ومنه فيتصرف تصرف القائد، ومن زيارة، أو إعانة، أو مشاركة أو إغاثة، أو دعم، أو دعاء، أو أية صورة، ومن صور البذل، والتي حكاها التاريخ عنه صلى الله عليه وسلم، ويكأن هذا هو شأن القائد الناجح أيضا، ولما يتحسس رعيته؛ ليعرف، ويقف على أقصيتهم، وما جد عنهم.

بيد أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ولما كان مرغبا، ويكأنه كان مرهبا أيضا، وكل على قدره، ومن مكانه، ومن زمانه، وعلى قدره أيضا، ومنه فقد أبان للناس عظم شان الصف الأول؛ ولما فيه من أجر، وحتى كان منه ذلكم الوصف النبيل، وهم وكأنهم أولاء الملائكة، ومن نورهم، وهم أولاء الملائكة أيضا، ومن أجرهم، وحين كانوا لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وهذا اختيار جميل، ناسب الموضوع، وحين كان من شأن المنافقين، هو هذا التخلف، وعدم استحضار قيمة هذه الصلاة، ومنه أجرها، ووصفها، واجتماعها، وإلفها، ووقوف العبد متذلا، عابدا، بين يدي رب كريم، ولو رفع يديه، لم يردهما ربنا صفرا؛ كرما منه، وفضلا، ورزقا حسنا.

وكما أن هذا دال، ومن نصه، وعلى فضل صلاة الجماعة، وأنها وحين عدلت صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ ولأن العبد عادة، وإن يجد، ومن نشاطه إلى العمل الجماعي، وأوعاه، وأقربه إلى نفسه، ومن العمل الفردي، وتلك خصيصة اجتماعية نبه عليها الإسلام، وأشار إليها النبي المصطفى العدنان؛ إلفا اجتماعيا، وصراطا مستقيما.

وأنه، وكلما زاد عدد المصلين، وإنما كان الأجر أعظم؛ ومن دلالة الحديث أيضا.

وإن الجماعة، وإنما تنعقد باثنين، وهذا أقل ما تتعين به، وإن ليس يتخيل جماعة دون ذلك، ولما لم يكن متصورا أقل منه، وهذه أيضا من لفات هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحين حسب للناس جماعتهم، ومن أقل ما يمكن أن تنعقد به هذه الجماعة.

فعن أبي بن كعب: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة الصبح فقال أشهد فلان الصلاة قالوا لا. قال ففلان قالوا لا. قال إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلاة على المنافقين ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا والصف الأول على مثل صف الملائكة ولو تعلمون فضيلته لابتدروا وصلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كانوا أكثر فهو أحب إلى الله عز وجل^(١).

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الوتر قال سبحان الملك القدوس

هذا تنزيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لربه تعالى وكلما سنحت فرصة أن يمنحنا الدرس فننزه ربنا تعالى ونسبح ونقدسده ونؤمن بأنه تعالى هو الملك وأنه تعالى هو القدوس، اسمان من أسمائه الحسنى، وفيهما إثبات الملك له تعالى وحده، وكما أن في اسم القدوس طهارة عما ينقص التنزيه، وتمايم ما به يكون إثبات ذلك التنزيه، وعلى أكمله وأتمه معا.

وعلى أن هذا هو الذكر المنصوص ومن بعد صلاة الوتر وأن يقول العبد ما نص وما جاء أفضل وأنعم وأزكى وأقوم سبيلا، ومن ناحية الاتباع ولا سيما في هذه الأمور التعبدية وسائر أمور العبد تعبدية، ومن أصل وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. وكما أن فيه إثبات صلاة الوتر، وأنها ثلاث ركعات، وإن كان أقله واحدة، وأكثره إحدى عشرة ركعة.

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٨٤٢

ولما كان هديه صلى الله عليه وسلم وأن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة
سورة الأعلى وسورة الغاشية في الثانية بعد الفاتحة وسورة الكافرون في
الثالثة ومن بعد الفاتحة أيضا.

ويكأنه يشرع لعبد أن يصلّيها وبتشهد واحد، ومن بعده يكون
التسليم. وهذا الشأن في سائر الصلوات الفردية، ولما كان صلى الله عليه
وسلم يقوم الليل ومن وتر خمس أو سبع وبتشهد واحد.

وعلى أن هذا هو حرص الصحب الكرام، ومن تتبعهم، لهدي نبيهم
صلى الله عليه وسلم، وحرصهم على استئنائهم واقتدائهم به أيضا.

فعن أبي بن كعب: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من
الوتر قال سبحان الملك القدوس . وفي رواية سبحان الملك القدوس ثلاث
مرات^(١).

وهذا الحديث قد روى الإمام النسائي رحمه الله تعالى ومن طريق آخر.
فعن عبدالرحمن بن أبزى: كان رسول الله يوتر ب: سبح اسم ربك
الأعلى و قل يا أيها الكافرون و قل هو الله أحد ويقول بعدما يسلم: سبحان
الملك القدوس ثلاث مرات، يرفع بها صوته^(٢).

(١) الأذكار للنووي النووي: ١٢٠. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

(٢) صحيح النسائي الألباني: ١٧٥٠

الأرقم بن أبي الأرقم

**إن الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام
كالجار قصبه في النار**

هذا حديث رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الأرقم بن أبي الأرقم، وفيه بيان كراهة التفريق بين المصلين بعد خروج الإمام على منبره يوم الجمعة؛ وأجل أن ذلك يكون سببا في خلخلة الصفوف، وأنه داع لصرف الأنظار عن سماع الخطبة، والأصل أنه وإنما جعلت للموعظة.

وهذا عمل يكون من موجهه تفويت هذه الفائدة، والتي من أجلها كانت خطبة الجمعة، ولهذا كان قوله صلى الله عليه وسلم هذا.

ولكنه إذا وجد فرجة وبحيث يكون منها ألا يشغل فيرون جواز ذلك.

وخرّج الإمام أحمد من حديث أرقم بن الأرقم المخزومي، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((الذي يتخطى الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجار قصبة إلى النار)) . وفي إسناده: هشام بن زياد أبو المقدام، ضعفه، وقد اختلف عليه في إسناده. وأكثر العلماء على كراهة تخطي الناس يوم الجمعة، سواء كان الإمام قد خرج أو لم يخرج بعد. وقالت طائفة: لا يكره التخطي إلا بعد خروجه، كما دل عليه حديث الأرقم، منهم: الثوري، ومالك، والأوزاعي - في رواية -، ومحمد بن الحسن. وذكر مالك، عن أبي هريرة، قال: لأن يصلي أحدكم بظهرة الحرة خير له من أن يقعد حتى إذا قام الإمام يخطبُ جاء يتخطى رقاب الناس

يوم الجمعة. فإن وجد فرجة لا يصل إليها إلا بالتخطي، ففيه قولان: أحدهما: يجوز له التخطي حينئذ، وهو قول الحسن، وقتادة، والأوزاعي والشافعي، وكذا قال مالك في التخطي قبل خروج الإمام، وكذا روى معمر عن الحسن وقتادة. والثاني: أنه يكره، وهو قول عطاء، والثوري. وعن أحمد روايتان في ذلك، كالقولين. وعنه رواية ثالثة: إن كان يتخطى واحداً أو اثنين جاز، وإن كان أكثر كره^(١).

واختلفوا في التفرقة بين اثنين والأشبه بتأويله أن لا يتخطى رجلين أو يجلس بينهما على ضيق الموضع، ويؤيده ما في (الموطأ): عن أبي هريرة: (لأن يصلي أحدكم بظهر الحرة خير له من أن يقعد حتى إذا قام الإمام جاء يتخطى رقاب الناس). ومعناه: أن المأثم عنده في التخطي أكثر من المأثم في التخلف عن الجمعة، كذا تأوله القاضي أبو الوليد. وقال أبو عبد الملك: إن صلاته بالحرّة أحب إلي من أن أتخطى رقاب الناس يوم الجمعة). وعن سعيد بن المسيب مثله، وقال كعب: لأن أدع الجمعة أحب إلي من أن أتخطى رقاب الناس يوم الجمعة. وقال سلمان: إياك والتخطي، واجلس، وهو قول عطاء والثوري وأحمد.

وقد ورد في هذا الباب أحاديث. منها: ما رواه الترمذي من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم)، وقال: حديث سهل بن معاذ عن أبيه حديث غريب. ومنها: حديث جابر بن عبد الله: (أن رجلاً

(١) فتح الباري لابن رجب: ٢٠٠/٦

دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، فجعل يتخطى الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجلس فقد آذيت وآنيت. أخرجه ابن ماجة، وفي سنده: إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف. ومنها: حديث عبد الله بن بسر، رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد من رواية أبي الزاهرية، واسمه: صدير بن كريب، قال: (كنا مع عبد الله بن بسر، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، يوم الجمعة فجاء رجل يتخطى رقاب الناس والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إجلس فقد آذيت). ومنها: حديث عبد الله بن عمرو، رواه أبو داود بإسناد حسن من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من اغتسل يوم الجمعة) إلى آخره، وفيه: (ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهرا)، يعني: لا تكون له كفارة لما بينهما. ومنها: حديث الأرقم أخرجه أحمد في (مسنده): عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الذي يتخطى رقاب الناس ويفرق بين اثنين بعد خروج الإمام كالجار قصبه في النار)، ورواه الطبراني أيضا في (المعجم الكبير)، وفي سنده هشام بن زياد، ضعفه أحمد وأبو داود والنسائي^(١).

فعن الأرقم بن أبي الأرقم مرفوعا الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الامام كالجار قصبه في النار^(٢).

(١) عمدة القاري، العيني: ج ٦ / ٢٠٧

(٢) تلخيص الحبير، ابن حجر: ج ٤ / ٦٢٣

وجاء هذا الحديث، ومن طريق آخر.

فعن عبدالله بن بسر: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: اجلس فقد آذيت^(١).

الصلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه

هذا فضل الصلاة في مسجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا فضل مسجده صلى الله عليه وسلم ولما كان المسجد الحرام ومن نظامه مفضولا. وهذه طاعة الأرقم بن أبي الأرقم هذا للنبى محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ قد رأيت ثم رأيت، وكيف كان تجهزه، ولما ينصاع لأمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعي بتجهيزه هذا شيئا؛ ودلالة وقوف الناس يومهم هذا على الأمر فيأتونه، وعند النهي فيجتنبونه.

وهذا حرص الصحابة الكرام البررة الميامين، وعلى أو جه الخير وتتبعها، وهذه مناقبهم، ومن ورود منابع الفضل وترسمها.

وهذا تيسير ديننا، وحين أبدل الناس، وبصلاة في مسجد نبينهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت خيرا من ألف صلاة، وفيما سواه وإلا المسجد الحرام.

وهذا فضل بيت المقدس، وإلا ما طلب، وعزم الأرقم، أن يشق عباب طريقه إليه، وقد كان هذا متمثلا في قيم الناس، ومن دينهم، يومهم هذا.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ١١١٨

وهذا تجهز الناس، ومن سفرهم، وكما يحفظوا أنفسهم، ومياه وجوهم، وعن السؤال، ولما كانت عزة العبد وألا يسأل الناس شيئاً.

وهذا سؤال النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وليقف على ما أهم صحبه، ومن ثم فيوجههم توجيه الخير، ولا يدعهم سدى.

وهذا مسلك إداري عبقرى المعى، وحين يتحسس القائد حاجات رعيته، وليقف على رغباتهم وإمضائها، أو يحول بينهم دونها.

وعلى أن هذا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم ينه الأرقم هذا، وإنما وضعه بين فاضل ومفضول، والعاقل تابع للأفضل الأيسر، دون المفضول الأعسر.

عن الأرقم: أنه تجهز يريد بيت المقدس؛ فلما فرغ من جهازه، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يودعه، فقال: " ما يخرجك؟ حاجة أو تجارة؟ قال: لا والله يا نبي الله، ولكن أردت الصلاة في بيت المقدس. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " الصلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام " فجلس الأرقم، ولم يخرج^(١).

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ٢ / ٤٧٩

مناصرة الأرقم للنبي صلى الله عليه وسلم

ولكن الأرقم بن أبي الأرقم هذا، ولما قد ذكر له التاريخ وقوفه إلى جانب هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يوم أن جاء بهذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحين صبر، وصابر، وعلى لأواء مواجهة قريش يومها هذا، وهو الأمر الذي حدا به أيضا، وأن يستر النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وأن يؤيه في بيته، وتخفيا به عن أعين قريش؛ وكما لا يصاب بأذاها، أو أن تمتد إليه يد عادية.

وهو: صاحب النبي صلى الله عليه وسلم. من السابقين الأولين. اسم أبيه عبد مناف. كان الأرقم أحد من شهد بدرا. وقد استخفى النبي صلى الله عليه وسلم في داره، وهي عند الصفا. وكان من عقاء قريش. عاش إلى دولة معاوية^(١).

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ٢ / ٤٧٩

خطيب النبي ﷺ: ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري

هذا رجل ذكر التاريخ عنه مواقف خالدة، وحين وفدت وفود اليمن إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أنف ذكر ذلك، وإبان وقته، ومن كتابنا (السيرة النبوية: أحداث ودلالات).

ولما جاء عن الزهري: أن وفد تميم قدموا، وافتخر خطيبهم بأمور، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، لثابت بن قيس: " قم فأجب خطيبهم "، فقام، فحمد الله وأبلى، وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بمقامه^(١).

وقد أورد القصة مفصلة الإمام الطبري، وغيره من أهل السير، رحمهم الله تعالى^(٢).

وهذا شأن يشي أهمية المتحدث الرسمي باسم الدولة الإسلامية، وإن يمثل هذا ذراعا إعلاميا نافذاً، ومن سلطانه القوي القويم، في إدارة دفة الأمور نحو الهدف المنشود، ومن إثارة وعي المستقبل، وإدارة الصراع، وعلى وجه حسن، وليأخذ من لب المستقبل، ومن ثم لا تتبقى ومن أمامه شبهة، يخيل إليه أنها تسعى، وبل ويجيب وعما في داخله، ومن تساؤلات عديدة،

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٣١٢

(٢) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٢ / ٣٧٨

ومنها هذا الذي يمكن أن يخرج منها هذا العبد الصالح الرشيد، ومن الإجابة على تلك تساؤلات، سببت له الحيرة يوما ما!

وقد كان هذا هو عمل ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري.

وهذا هو الذي جعل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم به يشيد وعليه يثني وإليه يشير. وحين قال صلى الله عليه وسلم: نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح، نعم الرجل معاذ بن جبل قال: و بئس الرجل فلان و بئس الرجل فلان حتى عد سبعة^(١). بل وحين خصه بذكر وحده وحين قال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس^(٢).

وهذا عمل إداري عبقرى، وحين يتناوب القائد، وبين عتبتى الإيجاب، فيقويه، ويستلهمه، وحين يكون أيضا بين مقصلي الباس والسلب، فيعمل على تنحيه، والتخلي عنه، والذود عن قد أصيب، وليقف على قدميه، ومن بعد كبوة، ولأنه ولكل جواد أيضا كبوة.

(١) صحيح الأدب المفرد، الألباني: ٢٥٧

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٣١٢

نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا فما لنا يا رسول الله

وهذه خطبته يوم مقدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مهاجرا، ومن مكة إلى المدينة، وحين كان هذا استشراف الفضل والجنة ونعيمها، عملا مؤثرا على عواطف الناس، ومشاعرهم، وأحاسيسهم، وتغليب جوانب الخير فيهم، واستدعاء ذلكم الخير ومن صوب أو سبيل ممكن. ومن ثم يكون قائما على أصل الترغيب، وأولى من أي عمل آخر يحل محله، وهو ذلكم القائم على الترهيب.

وهذا عمل الخطيب البارِع، وهذا فن الخطابة المؤثرة، وحين قد تسربل بها ثابت بن قيس هذا.

وهذه خطبة كانت سببا في تأمين الجبهة الداخلية، وحين كانت مؤثرة جياشة، ومن استدعاء قيم الفضل، والثبات، والرضا على القوم الأنصار يومهم هذا، وبه كان مقدم هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن موجب أنهم أصبحوا يعملون، وإلى جانب هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، جنبا إلى جنب؛ مسارعة في الخيرات، ومسابقة في الطاعات.

إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله

وهذا رجل تنزل القرآن من سببه مرتين:

ولما كانت الأولى: وحين أشفق على نفسه، ومن حبوط عمل عبد، كان قد رفع صوته فوق صوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وحين ذكر أهل التفسير أنها نزلت فيه رضي الله تعالى عنه، ومنه فقد راح إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم باكيا، مشفقا، ولأنه صييت، أي عالي الصوت، وإنما كانت طبيعته تلك، ولما يكن يريد أن يرفع صوته فوق صوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحاشا لهذا الجيل، ولو فردا واحدا من أفراد، أن يعتمد هكذا مسلكا، ولما كان في حس كل أحد منهم أنه معيب جد معيب، ولعل هذا كان؛ ومن اشتهاره، ومن خطابته، ومنه كان هذا الصيت مميزا له به. وإلا أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، كان قد ربت على صدره، وأذهب من روعه، وحين بشره بموت الشهداء، وعيش السعداء، ونعيم الجنان. وهذه منقبة لثابت بين قيس هذا، وهذا سيرته الحسنة.

فعن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول قعد ثابت رضي الله عنه في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي بن العجلان فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت رفيع الصوت فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال: اذهب فادعه لي فجاء فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: أنا صيت

وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة؟ قال: رضيت ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال: وأنزل الله تعالى إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله الآية^(١).

ولما كانت الثانية: وحين نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. وحين أجزل المثوبة، ولما كان قد رفع العقوبة، ومن فضله، ومنه، وكرمه، ولطفه، وجوده، وإحسانه.

فعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن ثابت بن قيس الأنصاري رضي الله تعالى عنه خطب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم فقال نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا فما لنا يا رسول الله قال لكم الجنة قالوا رضيينا^(٢).

علم نبوة ضاف

وحين أخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتا أنه سيعيش حميدا، وأنه سيموت شهيدا، وإنما قد وقع هذا، ويوم أن استشهد يوم اليمامة، وهذا علم نبوة ضاف، ومن أعلام نبوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد أتى أنس ثابت بن قيس وقد حسر عن فخذيه وهو يتحنط، فقال: يا عم، ما يحبسك أن لا تجيء؟ قال: الآن يا ابن أخي. وجعل يتحنط - يعني

(١) الدر المنثور، السيوطي: ٥٤٩/٧

(٢) الآحاد والمثاني، الضحاك: ج ٣ / ٣٨٩

من الحنوط- ثم جاء، فجلس، فذكر في الحديث انكشافا من الناس، فقال: هكذا عن وجوهنا حتى نضارب القوم، ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بئس ما عودتم أقرانكم^(١).

ما أعتب عليه في خلق ولادين

هذا خلق تربية المائدة النبوية الكريمة. وحين كان من ستر، ولما كان من نصفه، وحين رأت جميلة زوجة ثابت بن قيس، أنها ليست تريد استمرار عقد الزوجية بينهما، ولا من سبب إلا أنه حسن الخلق! ولا من موجب وإلا أنه موحد بالله تعالى، ومفردا ربه الرحمن بربوبيته، وإذ لا خالق، ولا محيي، ولا مميت، ولا رزاقا سواه، ولما كان مؤمنا أن الأمر كله لله تعالى، وكذا النهي، وليس يشاركه فيهما أحدهما أو كليهما من أحد، وكذا، وما لازم ذلكم، ومن إيمان بأسمائه تعالى الحسنی، وصفاته العلا.

وعلى أن هذين الأساسين هما ركنا ديننا، وعماده، وأصلاه، وقاعدته، ولما كان العبد متوحشا برداء الدين الحق، والخلق الحسن الحميد. وإذ ليس ينفك أحدهما عن الآخر قيد شيء، وهذان الأصلان هما اللذان كان، ولا يزال عليهما مدار هذا الدين، وهما العاملان الحاسمان في كون العبد، ولما يكون متلبسا بهما معا، وإنما يكون، ومن موجه عبدا ربانيا، وكما كان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي بين الناس، وإذ نريد لهذه الأمة أن

(١) صحيح البخاري: ٢٨٤٥

تحيا دينها، فتفرد ربها بتوحيد، ومنه هو هذا الأمر، فلا يؤمر بغير أمره تعالى، ومنه هذا النهي، فلا ينهى وإلا بنهيه سبحانه.

ومنه فقد كانت هذه الزوجة جميلة موفقة، وأيما توفيق، وحين تركت لنا هذا الإرث العظيم الكريم. ولما كان هذا الدين هو التوحيد، وهو الخلق الحسن الجميل.

وعلى أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما لم يسألها عن سر قولها، ولما لم يدخل في تفاصيل خبرها، وعمله، أو من موجباته، وسببه؛ ولأن إرخاء حجاب الستر على مندوحة من ديننا، وهو من خلقه أيضا، ولطالما كان هذا الدين، ومنه هو هذا الخلق الجميل، وعلى حد وصفها لزوجها ثابت بن قيس، ومن أمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان ثابت ليس موجودا؛ ومما أمكنها أن تفتح الصفحات المغلقات! ولما لم تجد إلا هذين: الدين الجميل، والخلق الشميل!

وهذا خلق نفيده من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نرخي سترا، وألا نحاول ولوج باب كان سده أولى؛ ومحافظة على أسرار البيوت، ولما كان، ومن خلق ديننا، هو ذلكم الستر، وهو ذلكم، وأن نرخي حجابها على الناس.

ولما كان منها هو هكذا رغبة في نقض الميثاق، ولما كان هكذا منها المبادرة، وعلى التصرم من موجبه، وهو ما أسماه الناس خلعا، ومن قبلهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين روى عبدالله بن عباس: أن امرأة

ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة^(١).

وعليه فقد سألها النبي صلى الله عليه وسلم، ولعلها تتراجع، وحين تعلم، وأن من موجب قولها هذا هو الخلع، وأنها مطالبة؛ ومن سببه، أن ترد عليه حديقته، وحين قال صلى الله عليه وسلم: أتردين عليه حديقته؟

وإلا أنه قوله صلى الله عليه وسلم هذا: أتردين عليه حديقته؟ وإن يعد بمثابة إيجاب، وإنما كان قولها وأن: نعم، وهو بمثابة القبول أيضا، ومنه فإن هكذا العقد تتصرم عقده، ومن اعتباره فسخا لهذا العقد، وحين عده بعضهم هكذا، أو أنه طلاق، ولما كان منه قوله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة. ومنه فإن حكم القاضي، وهو هنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فليس يعد نافذا ومن حقهما، وإلا بتطليق الزوج لها تطليقة، ومنه فإن هذا الخلع تترتب عليه آثاره وهي:

- ١- اعتباره طلاقا بائنا، فليست تعود إليه الزوجة، ومن بعد خلعا.
- ٢- عدم مشروعية الرجعة عن الخلع.
- ٣- دفع البدل، ودلالة قوله صلى الله عليه وسلم: أتردين عليه حديقته؟
- ٤- لزوم العدة، وهي حيضة واحدة. ولحديث ابن عباس أنفا.

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١١٨٥

فعن عبدالله بن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتردين عليه حقيقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة^(١).

فقل لخليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم،: إن عليّ من الدين كذا وكذا، وغلامي فلان عتيق

هذه وصية ثابت بن قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه. ولما تضمنت أمرين اثنين، ولما كانت من الأهمية:

الأمر الأول: هو هذا استشعار مسؤولية ولي الأمر، وعن تنفيذ وصية جنده، ومن رعيته. وعما إذا كانت تنسحب على غيره من الجند، ولولا قولهم إنها كانت خاصة بثابت بن قيس.

الأمر الثاني: وهو ذلكم عمل ثابت بن قيس، وحين أوصى بقضاء دينه، ولما كان الدين، ومن عظم الشأن، ما علمه هذا الجيل الأول الرشيد الفريد. ولأنه ومن حيث كان من عظم شأنه، وأنه يغفر للشهيد، وإلا الدين. ولعل هذا هو الذي حمل ثابتاً أن يطمع في فضل الخليفة أبي بكر، أو يقضي عنه دينه هذا يومه هذا.

الأمر الثالث: وهو ذلكم وصيته الرحيمة الشفيقة بعثق غلامه. وهذا أمر نقدمه للناس، ويكأنه يشي، ومن خلق حميد، ومن أولاء الصحب الكرام، وإذها هو مسجى طريحا، ولما كان ومن دين كان مثقلا به، وها هو يعتق غلامه!

الأمر الرابع: هو تنفيذ أبي بكر الصديق وصية ثابت بن قيس، وهو إذ ذاك كان خليفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ومنه دل على فضل الولاة وحين يرون من أنفسهم حسن القيام على تنفيذ وصايا رعيته.

فعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: حدثني عطاء الخراساني قال: قدمت المدينة، فأتيته ابنة ثابت بن قيس، فذكرت قصة أبيها، قالت: لما نزلت (لا ترفعوا أصواتكم) جلس أبي يبكي. فذكرت الحديث. وفيه: فلما استشهد، رآه رجل: فقال: إني لما قتلت، انتزع درعي رجل من المسلمين، وخبأه، فأكب عليه برمة، وجعل عليها رحلا. فأتى الأمير، فأخبره، وإياك أن تقول: هذا حلم، فتضيعة، وإذا أتيت المدينة، فقل لخليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إن علي من الدين كذا وكذا، وغلامي فلان عتيق، وإياك أن تقول: هذا حلم، فتضيعة، فأتاه، فأخبره الخبر، فنفذ وصيته، فلا نعلم أحدا بعد ما مات أنفذت وصيته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه^(١).

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٣١٣

إِنَّ الْكَرِيمَ يَجْزِي الْكَرِيمَ

هذا قول الزبير بن باطا القرظي لثابت بن قيس، يوم أسره المسلمون في غزوة بني قريظة، وحين كان له فضل على ثابت أيام جاهليته، ومن ثم أراد ثابت أن يرد إليه الفضل صاعين، وحين شفع له بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين منحه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث هبات: فوهب له دمه، وأعطاه امرأته وولده، ورد عليه ماله.

وهذا شأن القائد المفلح. وحين ليس يرد شفاعته، ولما يمكن أن يجد ولو بصيصاً؛ لإعتاق غارم، أو فك الأسير العاني، وهذه عبقرية التصرف الحكيم، ولما أمكن لهذا القائد النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يذهب مذهب ثابت بن قيس في شفاعته وإجارته، وهذا الذي لمسناه وعایشناه طيلة صحبتنا هذا النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن خلال كتابنا: السيرة النبوة أحداث ودلالات، وحين رأينا كم كان لطفه، ومع ابنته زينب رضي الله تعالى عنها، وحين افتدت زوجها أبا العاص بن الربيع أيضاً، يوم وقع أسير بين يدي المسلمين يوم غزوة بدر العظمى، وبقلادتها التي كانت قد وهبتها بها أمها البارة خديجة بنت خويلد زوج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا خلق هذا الدين.

وعلى كل حال فإن هذه المسالك لتشي، وكما أنف بحسن الإدارة، وحسم القرار معاً، ولما يمكن أن ينطوي عليه تصرف كهذا، ومن جانب القائد، ومع رعيته؛ وحتى يتألفهم هم أنفسهم، ومن ساعة ندائهم فيجيئون، وحين قد وضع لهم كيان الإلف، وجبر الخواطر. ومنه أيضاً المحافظة على

السلم الاجتماعي للأمة، وحين تأتلف، ويكون هذا الانسجام بين طرفيها محكوما، وبمثل هكذا روابط الجبران والرضا، والاستكانة، والأمان، والاطمئنان، ومن ثم ويوم يدعو الداعي، فتراهم يسابقون الإجابة، وتحسبهم جميعا وقلوبهم قلب رجل واحد، فلا يشذ شارد، ولا ينفر مارد. وهذا فن إداري في إدارة الأزمات.

عن ابن شهاب الزهري أتى الزبير بن باطا القرظي وكان يكنى أبا عبد الرحمن وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية قال محمد مما ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان من عليه يوم بعث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه وهو شيخ كبير فقال يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني قال وهل يجهل مثلي مثلك قال إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي قال إن الكريم يجزي الكريم ثم أتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد كانت للزبير عندي يد وله علي منه وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أهله وولده قال هم لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأتاه فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاني مالك فهو لك قال أي ثابت ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادي

حيي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا
عزال بن شمويل قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة
وبني عمرو بن قريظة قال ذهبوا قتلوا قال فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت
إلا ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله
قبلة دلو نضح حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه فلما بلغ أبا بكر
قوله ألقى الأحبة قال يلقاتهم والله في نار جهنم خالدا فيها مخلدا أبدا فقال
ثابت بن قيس بن الشماس في ذلك يذكر الزبير بن باطا ... وفث ذمتي أني
كريم وأنني ... صبور إذا ما القوم حادوا عن الصبر ... وكان زبير أعظم
الناس منة ... علي فلما شد كوعاه بالأسر ... أتيت رسول الله كيما أفكه ...
وكان رسول الله بحرا لنا يجري ...

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من أنبت
منهم^(١).

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ١٠٢/٢

حنظلة الكاتب

**من حافظ على الصلوات الخمس بركوعهن وسجودهن ووضوئهن ومواقيتهن ،
وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة**

هذه رواية حنظلة الكاتب عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه منحة من الله تعالى للعبيد، وحين يقيمون صلاتهم، ويحافون عليها، ومن ركوعهم استواء ومن ظهورهم، وحتى ذكروا أن الرجل وحين كان يركع فلو صببت ماء على ظهره لم يكن ليسقط؛ ومن شدة استوائه على ظهره من ركوعه هذا.

وكذا وحين كانت المحافظة على السجود، ومن هيئته، ومن سجود على السبعة الأعظم، وهي الوجه والجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين؛ ولقوله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة، وأشار بيده على أنفه واليدين والركبتين، وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب والشعر^(١).

ولما كانت المحافظة على الوضوء، ومن شرط الصلاة، وهذه هيئة خاشعة قانتة، ولما تميز بها هذا الدين، وحين يقدم العبد على صلته وملاقاته بمولاه تعالى، وإنه ليتطهر؛ وكما يكون زكي النفس، طاهر البنان، وها هو إذ يتجهز للقاء هذا الرب الكريم، ولما كانت الصلاة، ومن هذه المثابة، صلة بين أولاء العبيد، وبين ربهم الخلاق الحميد المجيد سبحانه.

(١) صحيح البخاري: ٨١٢

وعلى أن العبد، وحين سجوده، وإنما عليه ألا يكفت ثوبا ولا شعرا، والكفت بمثناة في آخره هو الضم، وهو بمعنى الكف. والمراد أنه لا يجمع ثيابه ولا شعره، وظاهره يقتضي أن النهي عنه في حال الصلاة، وإليه جنح الداودي، وترجم المصنف بعد قليل " باب لا يكف ثوبه في الصلاة " وهي تؤيد ذلك، ورده عياض بأنه خلاف ما عليه الجمهور، فإنهم كرهوا ذلك للمصلي سواء فعله في الصلاة أو قبل أن يدخل فيها، واتفقوا على أنه لا يفسد الصلاة، لكن حكى ابن المنذر عن الحسن وجوب الإعادة، قيل: والحكمة في ذلك أنه إذا رفع ثوبه وشعره عن مباشرة الأرض أشبه المتكبر^(١).

وعلى أن العبد، وإنما كانت صلاته مؤقتة بمواقيت، وإنما وجب إقامة الصلاة، وعلى وقتها، ولأن هذا أحرى بالعبد أن يكون من شأنه مدرجا، ومن منظومة الانقياد لله تعالى وإسلاسه لربه سبحانه، ولما كانت الصلاة، وبهذا الشأن، ومن مواقيتها؛ وكما يتاح لهذا المجتمع المسلم أن يضاف صفا واحدا، ومن وقت واحد، ومن بين يدي ربه تعالى، ومنه فإن هذا من مشاهد الإخبات، وكما أنه ومن مواضع إظهار العزة، وأن هذه أمة واحدة، ولأن هذا فيه من إخافة أعداء الأمة ما يجعلها نافذة الكلمة مسموعة البيان.

وقلت: وما أسميت صلاة بوقتها وغلا لاعتباره قرينة على ادائها وفي هذا التوقيت وإلا فرغ هذا الانتساب ومن معناه.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر: ج ٣/٣٧٧

ولما كان جزاء من أقام الصلاة وعلى صفتها هذه وإلا الجنة وهذا أمر تشجيعي وكما أنه شأن حقيقي ولما جاءنا عن وحي نبوي وبيان محمدي.

وعن أبي الدرداء: خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن، وركوعهن، وسجودهن، ومواقيتهن؛ وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة. قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة^(١).

ولكن يا حنظلة ساعة وساعة

ديننا الإسلام الحنيف الخالد هو دين الاعتدال، ومن سائر أمره، ومنه ولما كان أولاء الصحب الكرام الغر البررة الميامين، ومن أمرهم هذا، وحين كانوا، وعلى عهد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يكونون معه، ومن موجب موعظته، وإنما هم في حال شغل بالآخرة، وإنما كان ذا همهم، ومن أمرهم، وحين يكونون من وعد بالجنة، ونعيمها، ومن وعيد من النار، ومن سعيها، ومن زمهريرها.

ولما كان حالهم، إذ يفارقون نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما ترجع إليهم بغياتهم، ومن وملاعبة الأولاد ومن معافسة النساء، وإنما رأوا ذلك، ومن علامات نفاقهم، ويكأنهم يريدون، ومن أنفسهم وأن يظلوا، على هكذا شعور وإحساس، وبهذه الحال التي تركهم عليها نبيهم محمد صلى

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٢٩

الله وسلم، ولكن هذه الحال، وإنما عالج منه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما قد جال في مخيلاتهم، ومن خلال عمل حنظلة الكاتب هذا، وكذا أبي بكر رضي الله تعالى عنهما، وإنما هو حالة يمكن أن يعاينها، ويعاينها كل الصحب الكرام يومهم هذا، وحين عالجها نبينا محمد صلى الله عليه، وأن هذا أمر، ولربما كان خارج القدرة والوسع، ولو كان كذلك لصافحتهم الملائكة، ومن عملهم هذا.

وأقول: وإن هذه وسطية إسلامنا، وحين جعل العبد، ومن بين إقبال على الآخرة، ومن بين عمل اليوم والليلة، ومن معاشه، ومن نكاحه، ومن رعايته ما ولي عليه، ومن أسرته، ومن معاده أيضا، ولهذا جاء ذم هذا القرآن الحكيم لهكذا حال التبتل الدائم، والانقطاع المستمر لعمل الآخرة، وإنما حرم الإسلام أن يقعد العبد، وإلى جانب أعمال الرهينة أقرب، وهو الذي حدا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يقول يوما، وأن يواجه يوما وحين: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله

وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني^(١).

فعن حنظلة بن حذيم الحنفي أن حنظلة الأسدي -وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات^(٢).

النهى عن قتل النساء في الحرب

هذا حديث ثالث، روه عن حنظلة الكاتب رضي الله تعالى عنه، وإنه، ولئن وقع فيه الخلاف، وإنما جاء، ومن طرق أخرى، برهانا على صحته،

(١) صحيح البخاري: ٥٠٦٣

(٢) صحيح مسلم: ٢٧٥٠

مسلكا حسنا، ودينا قيما، وحين جعل من الشيم الفضيلة، والقيم الشمية،
والهمم النبيلة، ألا تقتل امرأة في حرب، ولا ولد، ولا شيخ، ولا تهدم صومعة؛
ولأن هذا الدين عالية هممه، ومنه فكان من موجب ذلك، ألا يؤتى على امرأة،
أو طفل، أو شيخ قتلا؛ ولأن أولاء جميعا، وإنما كان من شأنهم أنهم هم
الضعفة، ومن قوة، ومنه فقد كان إكرام ديننا لهم، وألا يقاتلوا، ومن حرب،
وإلا أن يثبت قتالهم، أو تترسهم.

وإنما كان الشأن في عدم قتلهم؛ ولأنهم، ومما أنف ضعفاء، ولأنهم
تابعون لآلهم أيضا، وكم سجل التاريخ أن نساء وأولادا وشيوخا كانوا
يتبعون رجالهم، ومن إسلامهم معهم أول الأمر، ومن ثم يحسن إسلامهم،
ومن بعد، ومن بعد أن يشاء الله تعالى بتقلبهم بين صحائف الدين،
ومواعظه، وأركانه، وأصوله، وقواعده، ورحماته، ومن إلفه.

وقد جاءت أحاديث أخرى ومؤكدة لهذا المعنى.

فعن أنس بن مالك: انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا
تقتلوا شيئا فانيا، ولا طفلا، ولا صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا
غنائكم، وأصلحوا {وأحسنوا إن الله يحب المحسنين} [البقرة: ١٩٥]^(١).

(١) تخریج سنن أبي داود، شعيب الأرنؤوط: ٢٦١٤. خلاصة حكم المحدث: حسن لغيره.

الزبير بن العوام

عظم شأن الأمانة في ديننا

ذكر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما سبب ديون أبيه، أن الرجل كان يأتيه بالمال، ويجعله وديعة، وأمانة عنده، فيقول الزبير: لا أقبضه وديعة، ولكنه قرض في الذمة، ولأنه كان يخشى عليه الضياع، وهذا أوثق لصاحب المال، وأبقى لمروءة الزبير رضي الله عنه.

ولأن الوديعة: وإنما تكون بهدف الحفظ والصون. وأن يد المودع لديه يد أمان. فلا يضمنه حال التعدي والإتلاف من الغير، وحال قيامه بعمل الرجل المعتاد، وإنما ترد بعينها. ويجوز أخذ الأجرة مقابلا عليها.

وأما القرض: فإن يد المقرض يد ضمان. وإنما يرد بمثله. ولأنه ومن سبب كثرة أموال الزبير وغناه يومه هذا، ولربما خشي اختلاط الأموال، فكان أدعى لحفظها.

الزبير كان غنيا

ولكن هذا الزبير كان غنيا ذا مال وفير، وقد بلغ نصيب كل امرأة من زوجاته الأربعة مليوناً ومائتي ألف دينار يومه هذا! وقد قدرت تركته، ومن بعد موته، وحين بلغت ما يقرب من ستين مليوناً دنانير! وهذا مبلغ ضخم، ومن حسابات الناس يومهم هذا، وإنما هذا شأن المسلم، وحين يمنحه ربه تعالى من فضله، وحين يعطي حق المال، زكاة، وإنفاقاً، وتصدقاً، وبذلاً، ولذوي القربى، وحين كان ذلك أدعى ديناً، وأوفر فقهاً، وإنما يثاب عليه،

ويؤجر، وحين عمله هذا، وإن المسلم وحين يمنحه ربه تعالى، ومن فضله، وكمثل الزبير هذا، أو غيره، ومن ذكر التاريخ عنهم ذلك، وإنما يكون ابتلاء، وحين يضع هذا الدنيا، وفي يده، وليست تتسرب إلى فؤاده تعلقا، ولا إلى قلبه تأثرا، وحين يعطي المال حقه؛ شكرا للمنع به، وهو الله تعالى، وحين ينفقه، وفي مظانه، ومن الحلال أيضا، ولما يخرج حق الله تعالى منه، وهو الزكاة، ومن مثل هذا الضوابط، وليس يخشى على مسلم كان هذا هو شأنه مع المال.

من أين جاء مال الزبير؟

وإنما جاء هذا المال الزبير بن العوام؛ ومن تجارته، وحين كان الرجل يتقلب في تجارته، ومن فيئه ومن غنيمته، ولما كان قد شارك النبي صلى الله عليه وسلم الغزوات، والوقائع، ولما لم يتخلف عن واحدة منها، وكما ذكر ذلك أهل السير والتاريخ، تاجا ووساما، ولمثل هذا الذي استحق يوما أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة، ومن مصاف أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ولما كان الله تعالى قد أنعم عليه فضلا، ورزقا حسنا.

ولعل هذا من تأويل قول الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولعل هذا أيضا، ومن قبيل أخذ المسلم بالأسباب، وإعمال صدق التوكل على الله تعالى، وحين كان من صدق هذا التفويض أخذا بالسبب، وتحريا

لمظان الرزق الحلال، وتقلبا في أنواع الارتزاق المختلفة، والمتعددة، والتي حبا الله تعالى كونه الواسع الفسيح الممتد بها.

علم نبوة ضاف

هذا، ولعل هذا الزبير، ويوم توقع مقتله يوم موقعة الجمل، وإنما قد وقع هذا، وحين كان توقعه ومن محله، ولما كان ظنه أنه لسوف يقتل مظلوما. ولأنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كان قد أوحى بهذا خبرا، وهو مما يعد علما على نبوته، وبرهانا على صدقه ويقين رسالته.

ولأنه: لما دنا علي وأصحابه من طلحة والزبير، ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج علي وهو على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى: ادعوا لي الزبير بن العوام فإني علي، فدعي له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال علي: يا زبير! نشدتك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: " يا زبير ألا تحب عليا؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟ فقال: يا زبير أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له؟ " فقال الزبير: بلى! والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك. فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: مالك؟ فقال: ذكرني علي حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعته يقول: " لتقاتلنه وأنت ظالم له " فقال: أو للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الامر، قال: قد حلفت أن لا أقاتله، قال: أعتق غلامك سرجس وقف حتى تصلح بين الناس. فأعتق غلامه ووقف، فلما

اختلف أمر الناس ذهب على فرسه، قالوا: فرجع الزبير إلى عائشة فذكر أنه قد آلى أن لا يقاتل عليا، فقال له ابنه عبد الله: إنك جمعت الناس، فلما تراءى بعضهم لبعض خرجت من بينهم، كفر عن يمينك واحضر. فأعتق غلاما، وقيل غلامه سرجس. وقد قيل إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عمارا مع علي وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: " تقتلك الفئة الباغية " فخشي أن يقتل عمار في هذا اليوم^(١).

وصية الزبير بن العوام

ويكأن الزبير ويوم توقع موته يوم الجمل، وكما أنف، وإنما أوصى ولده عبد الله بن الزبير، بإخراج ثلث ماله وصية، وكما هي سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ومن ثم أوصى بثلث هذا الثلث لأبناء ولده عبد الله بن الزبير؛ ولكثرتهم، وحتى لا يستغرق نصيب عبد الله من مال أبيه، ومن كمثله إخوته، ولربما كانوا أقل عيالا منه، وهو الظاهر، وإلا ما حمل فعل الزبير على محمله هذا، وهذا مسلك حسن، وحين اتبعه الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه، وإنما أبقي على حق ولده عبد الله بن الزبير من التركة؛ ولشأنه الخاص هذا الذي أنف منح أبناء عبد الله ثلث الثلث الموصى به، فجمع بين خيرين هما: عدم التعدي في الميراث، ومنح زيادة فائدة لأحفاده من ولده عبد الله، ومن ثلث ثلث الوصية، فقهها، وعلمها، وعملا حسنا.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٧ / ٢٦٩

ولما كان من شأنه أنه أوصى بقضاء دينه؛ ولعظم الدين في الإسلام أيضاً، ولما كان الناس قد علموا يومهم هذا من نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه يغفر للشهيد كل ذنبه، وإلا الدين، ونفس كل مؤمن مات، وإنما هي معلقة بدينه. وبه دل على عظم شأن الدين، ومن ديننا أيضاً.

ولكن هذا الزبير، وحين أبلى هذا البلاء الحسن، مع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن رفقته، وجهاده، وبذله، وحسن صنيعه معه.

الزبير بن العوام من العشرة

ولكن الزبير بن العوام هذا، وإنما كان ومن العشرة المبشرين بالجنة، وكما أنف، وإذ كان ومن أولاء الذين توفي عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض.

فعن عبدالله بن الزبير: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقممت إلى جنبه فقال: يا بني، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همي لديني، أفترى يبقي ديننا من مالنا شيئاً؟ فقال: يا بني بع مالنا، فاقض ديني. وأوصى بالثلث، وثلثه لبنيه -يعني بني عبد الله بن الزبير- يقول: ثلث الثلث، فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين شيء، فثلثه لولدك - قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير؛ خبيب وعباد، وله يومئذ تسعة بنين، وتسع بنات- قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بني إن عجزت عنه في شيء، فاستعن عليه مولاي، قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبة من مولاك؟ قال:

الله، قال: فوالله ما وقعت في كربة من دينه، إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه، فقتل الزبير رضي الله عنه، ولم يدع دينارا ولا درهما إلا أرضين، منها الغابة، وإحدى عشرة دارا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارا بالكوفة، ودارا بمصر، قال: وإنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال، فيستودعه إياه، فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف؛ فإني أخشى عليه الضيعة، وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج، ولا شيئا إلا أن يكون في غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو مع أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدين، فوجدته ألفي ألف ومئتي ألف، قال: فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن أخي، كم على أخي من الدين؟ فكتمه، فقال: مئة ألف، فقال حكيم: والله ما أرى أموالكم تسع لهذه، فقال له عبد الله: أفرأيتك إن كانت ألفي ألف ومئتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي، قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومئة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وست مئة ألف، ثم قام فقال: من كان له على الزبير حق، فليوافنا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربع مئة ألف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم، قال عبد الله: لا، قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم، فقال عبد الله: لا، قال: فاقطعوا لي قطعة، فقال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا، قال: فباع منها، فقضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية، وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن

الزبير، وابن زمعة، فقال له معاوية: كم قومت الغابة؟ قال: كل سهم مئة ألف، قال: كم بقي؟ قال: أربعة أسهم ونصف، قال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهما بمئة ألف، قال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهما بمئة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذت سهما بمئة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف، قال: قد أخذته بخمسين ومئة ألف، قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بست مئة ألف، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه، قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: لا، والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين، فليأتنا فلننقضه، قال: فجعل كل سنة ينادي بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم، قال: فكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومئتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف، ومئتا ألف^(١).

اكفر برب محمد، أدركك العذاب، فيقول الزبير: "لا أعود للكفر أبداً"

هذا صبر الزبير في الله تعالى، وحين كان عمه يذيقه من العذاب مكرها، ولما كان يحصره منه حصراً، وحين كان يلف الزبير في حصير، ويدخن عليه بالنار؛ حتى تزهق أنفاسه! وحتى يكفر بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا أنه واجه عمه مواجهة الصابر الجلد، وحين كان رده، ومن قوله هذا: لا أعود للكفر أبداً.

(١) صحيح البخاري: ٣١٢٩

ولعل هذا الموقف، وهكذا كان من شأنه، ومنضafa إلى مواقف آخر، أن الزبير بن العوام هذا، كان قد أثقلته الوقائع، ولما كان قد أصابته الحوادث، فناء قويا من دينه، عزيزا من إسلامه، وحين سهلت عليه هجرته إلى الحبشة؛ في الله تعالى، ولما كان هذا صبره، ويكأنه الله تعالى كان قد فتح عليه أبواب فضله؛ ومن وجوده، وكرمه، وإحسانه، ولما كان من أغنى الأغنياء، وحين سلك سبيل الأولياء، الحنفاء، الأنقياء، الأتقياء.

إني لأرجو أن أكون أنا، وطلحة، والزبير، وعثمان من الذين قال الله فيهم:
{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} [الحجر ٤٧].

هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، يوم استشهد الزبير بن العوام، يوم الجمل، ولما كان؛ ومن هكذا محبة في الله تعالى، وإذ ند نظيرها، وإن القوم، ولئن حدث بينهم حادث، وإنما يتبقى أصل إيمانهم، وما يحتويه من إلف، وولاء في الله تعالى، وهذا علي رضي الله تعالى، ولما عرف للزبير قدره، ويوم أن حباه النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمحبته أيضا، ويوم إعلامه له، وبما أنف من ذكر حسن لهذا الزبير رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولكن هذا هو الظن الحسن بالله تعالى، وأن ينعم على عبده بجنات الخلد، والنعيم المقيم، فضلا منه تعالى، ونعمة، وأجرا حسنا.

موجب المكانة وبرهان المنزلة؛ ولكن هذا الزبير، وإنما استحق مكانته؛ ومن جدارته، ويكأنه وإنما علا سموا؛ ومن مجاهدته، ومن مثابرتة، ومن مرابطته، ومن صبره، ومن مصابرتة، ومن هجرته، ومن مهاجرتة، وحين

قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

وعلى أن هذه الانسيابية المطردة في المحبة، وإنما أشعر بها قوله، ولما كان قد أعلم بها فعله، ويوم أن قال له قوله هذا: يا زبير! نشدتك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: "يا زبير ألا تحب عليا؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟ وحين كان هذا تذكير الصحاب، بينهم البين، وبما لهم، ومن هكذا وشائج المحبة، في ربهم تعالى، وحين كان هذا الدين هو جامعة الخير، والفضل، والإحسان، والمحبة، والولاء، والرضا، والاستكانة إلى موعود الله تعالى، ولما هذا الحب فيه تعالى، ومن أوثق عرى الإيمان؛ ومن قوله صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار^(١).

تولى الله تعالى بنفسه نزع غل قلوبهم! ويكأن الله تعالى، وقد تولى بنفسه الكريمة، نزع ما كان جبلة، ومن غل، ومن قلوب أولاء الجيل الفريد، ومن نوعه، وحين لم يحك لنا التاريخ مثلاً، أو قريباً منه، ليقصص علينا أقصوصة الولاء والمحبة، وكما هو بادٍ، ومن عبارة هذا الإمام علي بن أبي

(١) صحيح البخاري: ١٦

طالب رضي الله تعالى عنه، علما على المحبة، ودلالة على الإخاء، وبرهاننا على علو الهمم، وموجبا لسمو القمم.

خطر الغل وإحن الغَيْظ: ودل ذلك على ما لهذا الغل من خطر، ولما له من أسباب انزلاق العلاقات الاجتماعية، وإلى أسفل، ومن دنو، ومن هبوط، ومن نزول، ومن تردّد، وحين كان من موجه هذا التفرق، ولما كان من ثماره المرة، الصبر، العلقم، هو هذا التنافر المحموم، وعلى ما زينه إبليس الشيطان الرجيم.

إن لكل نبي حواريا، وحواري الزبير

هذه مناصرة الزبير، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم الأحزاب، وحين تجمع الناس يومهم هذا، وعلى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعصبته المؤمنة، ومن كل صوب وحذب، وحتى أحاطوا المدينة، ومن أنحائها، ومن أرجائها، ولما كان من يوم هذا شأنه، وإن ينتدب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ليلة باردة، مطيرة، بأسها شديد، أحدا ليأتيه بخبر القوم، وحين حكى الواقعة جابر بن عبد الله رضي الله تعالى مفصلة يوم الأحزاب هذا وعلى ما انف ذكره ومن سفرنا الموسوم ب: السيرة النبوية أحداث ودلالات، وها هو الزبير يتجشم، وها هو الزبير لا يتلعثم، مبادرا، مغوارا، شجاعا، مقداما، غير خائف، ولا وجل، ولا رجف!

﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]:

ومنه كان قوله صلى الله عليه وسلم هذا: إن لكل نبي حواريا، وحواري الزبير. وبرهاننا على النصرة، ومن أسمى معانيها، ومن أوثق مراميها، جيلا

قد هداه ربه، وأسناه، وأوعاه، وأعلاه، وبدينه هذا الإسلام الحنيف الخالد، ولما استوت هذه الدنيا، ومن أمام أعينهم، تراها ومدرها، وإلا رضوان الله تعالى ومحابه. وحين ما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: من يأتيني بخبر القوم؟ -يوم الأحزاب- قال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن لكل نبي حواريا، وحواري الزبير^(١).

(١) صحيح البخاري: ٢٨٤٦

خبر زيد بن ثابت

«يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي».

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت. وهذا الأمر إيجابي ولأن تعلم لغة القوم سبب للأمان من شرهم، ومن كذبهم، ومن بهتانهم، ويوم أن كذبوا على ربهم، وإنهم لكاذبون على غير نبيهم ومن باب الأولى. ومنه كان تعلم لغتهم أدعى للحيلولة دون ذلك، ما استطاع العبد الحذق إلى ذلك سبيلا، وأن أمرا إيجابيا آخر، وحين كان تعلم لغات الناس سببا من أسباب التواصل ونفعه أيضا؛ ولأنه لا تخلو علاقات الناس، ومن مثل هذه التداخلات البينية، دعوة، وتجارة، وعلاقات دبلوماسية، وما إلى ذلك، ومنه كان تعلم لغتهم أمرا حسنا.

ولكنك رأيت كيف كان اختيار النبي لواحد من أولاء الجهابذة، العلماء، الأصفياء، الأنقياء، الأوفياء؛ ولأن مثل هذه المهام، وإنما تسند، وإلى ذوي المهمة من دينهم، وإلى ذوي المروءة، والصدق، والأمانة فيهم، والحزم أيضا، ولأنه قد يقع العبد؛ ومن موجهه في المحذور، وبدل أن يكون للأمة ذراعا، فقد يكون داء وبالا عليها، ولذلك كان اختيار هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهكذا رجل فذ، هو زيد بن ثابت هذا، عملا إداريا عبقريا لمعيا؛ ولأنه أسند الأمر إلى أهله، أمانة، وقدرة، وقدوة حسنة أيضا.

وهذا الذي حدث، وحين كان زيد بن ثابت هذا رضي الله تعالى عنه، عند حسن ظن النبي صلى الله عليه وسلم به، ولما أتقن تعلم اليهودية، وفي خمسة

عشر يوما لا أكثر! وهذا عمل عبقري ألمعي أيضا، وحين يقاس على عمل الناس يومهم هذا، أو غير يومهم هذا!

وعلى أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم أسند، ولم يفعل، ولعله؛ ومن كثرة مشاغله؛ ولأنه ولأنفة أن يتعلم هكذا لغة الناس، ومن حيث وجد من كان لذلك أهلا. ولأنه ليس معقولا أن يحيط الوالي، وبكل لغات الناس، وفضلا أن يقوم بسائر الأعمال، وإلا كان فرضا مستحيلا. وعملا وببيلا.

ومنه فإنك تجد الرعاية يومهم هذا، وإنما وحين يتعلمون، وإنما يتعلمون عددا معروفا، ومن لغات الناس الرائجة، ومن السنة الناس السائدة، وكما يحصل التفاهم، وكما يتحقق التواصل.

وعلى أنه صلى الله عليه وسلم، وإنما ليس يأمن يهود، وهذا كلام وحي، وبه دل على سوء طوية الناس، ومن خداع، ومن غش، ومن تلبيس، ومن تدليس، ومن تغيير، ومن تبديل، وهذا الذي جاء به القرآن الحكيم أيضا؛ ولأن الناس كان ذا شأنهم، وحين ذكر التاريخ عنهم، ما يند منه جبين، وما يشذ عنه عاقل. وما منه ينم عن هكذا شين خلق الناس، وحين كان من إرثهم بعضهم بعضا، وما حكى عنه قرآننا، وما قد تنزل به فرقاننا، ومن قوله الله تعالى ﴿أَوْكَلَّمَا عَنْهُدَا عَنْهُ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ۖ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وكذا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ومنه قوله تعالى

أَيْضًا ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى
أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۚ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران: ٧٣]

وعلى أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما أقسم يمينه هذا؛
ولتعظيم شين يهود، ولسوء فعلهم، وتكذيبهم، وطويتهم، ويوم حكي
التاريخ عنهم سواتهم، ومن محاولات كيد شتى، قد أقاموا سوقها، ومن
كمائن نصبوا حبالها، حول هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته،
وما منه تزكم أنوف، وتئن قلوب. وما يوم الأحزاب عنا ببعيد، وما يوم سم
اليهودية عنا ببعيد أيضا، وكذا يوم الحشر، وما أدراك ما يوم سورة الحشر،
وما كان من خبر بني النضير، وغيرهم أيضا، وعلى ما أنف تفصيل ذكره،
ومن موسوعة: السيرة النبوية أحداث ودلالات.

ونكرر أن اختيار القائد الصائب، وحين كان ومن صدور أمر تعلم
كتاب يهود، ومن قوي أمين، وهو هذا زيد بن ثابت، وهذا شأن متواتر،
وحين كان من فعل نبينا هذا، ولما كان من نظام قرآننا أيضا، وحين قال الله
تعالى ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] .

ويكأن هذه هي عبقرية زيد، وحين كان عند حسن ظن النبي صلى الله
عليه وسلم به، ولما كان قد تعلمها، ومن خمسة عشر يوما، وكما أنف، ولما
كان منه الترجمة، من وإلى اليهودية، ومن هكذا سرعة بديهة، وحين ينقل

عنهم إلى النبي، أو أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وهذا ولا شك مدحة، وفضل، وثناء، وعمل حسن، ومن هكذا زيد بن ثابت هذا رضي الله تعالى عنه. وحين قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كتاب يهود قال إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم^(١).

ولكن مناسبة ذلك، وحين كان زيد بن ثابت، وإلى كتاب الله تعالى أسبق، ولما كان لحفظه أثبت، وحين أخبروه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن زيدا معه بضع عشرة سورة، ومن القرآن العظيم، الذكر، الحكيم، الفرقان، المبين.

وعلى أن ههنا فقها آخر ضافيا، وهو ذلكم المتعلق بالتخلية، من هوس الثقافات، وحين يثبت بقلب المؤمن، وبهذا الفرقان العظيم أولا، ومن ثم يمكن، وعند اطمئنان العبد، ومن نفسه، أو حين يرى القائد صلاحية معدنه، وثبات فؤاده، وصدق إيمانه، وأنه هو ذلكم الفرد الذي يكون العوبة في يد الناس يتقاذفونه هنا مرة وهناك الكرة، وإنما كان هذا الذي نجح فيه زيد بن ثابت هذا رضي الله تعالى عنه.

وعلى أن أهل الخير والتوثيق، وحينما كان لهم رأيهم الثاقب النافذ، وإنما كان حريا بالقائد الأمين أن يصدقهم، ومن خبرهم، ومن قولهم؛ ولأنه وحين كان من شأنهم العدالة والضبط، ومن شهادتهم، وبه تستقر أحوال

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٧١٥

الأمم، وحين يكون ومن بين أفرادها قوم أمناء، ينصحون، ويسدون الرشد، ومن رأيهم، ولإمامهم، وحين كان هذا الإمام أيضا، ومن قدر مسؤوليته، ومن أمانته أيضا، وأن يقرب أولي القسط من الناس، ومن مجلسه، وليستنير، ومن رأيهم، وليبني، وعلى سديد نصحهم، ورشيد نبأهم.

فعن خارجة بن زيد: أن أباه زيدا أخبراه أنه لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال زيد ذهب بي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاعجب بي فقالوا يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة فاعجب ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا زيد تعلم لي كتاب يهود فاني والله ما آمن يهود على كتابي قال زيد فتعلمت كتابهم ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته وكنت اقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب عنه إذا كتب^(١).

وهذا ذكاء مفرط جدا، وقد كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ من القراء كما ثبت في الصحيحين عن أنس.

ولعل هذا هو الذي حدا بنينا محمد صلى الله عليه وسلم، أن يقع عليه اختياره رضي الله تعالى عنه، وأن يكون من الأمناء، وعلى كتابة هذا الوحي المنزل، وهذا الفرقان الكريم، وهذا الذكر الحكيم، القرآن العظيم، وهذا أيضا، ومن رصيد الأمانة، وحين يتوج بها العبد، وإنما يكون له شرف السؤدد، وعلو المقام والمنزلة، ولما يقع عليه هكذا اختيار القائد، ولأنفس

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٥ / ١٨٦

المهام، ولأجدر الأعباء، ولأقوم الوظائف والأعمال، وإذ كان، ومن رأسها، وعمودها، وذروة سنامها، هو هذا القرآن العظيم.

وعلى أن هذا؛ ومن علو همة أولاء الأنصار، وحين كانوا هم كتبة وحي السماء، وعلى أن هذه هي عالمية هذا الدين، ويكأنها همته، وبسطه، واستشرافه، وهيمته، وحين النظر، وإلى الأحق، والأجدر ديناً، وأمانة، وخلقا، وحين وقع اختيار كتبة الوحي جميعهم، ومن الأنصار، ولما خلا منهم- ولو واحدا- من المهاجرين، دينا هذه نظرته إلى الناس- كل الناس- ولما كان أقربهم عند الله تعالى أتقاهم.

فعن أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة، كلهم من الأنصار: أبي، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت. قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي^(١).

وهذا الذي كان سببا، وحين كان اختيار أبي بكر له رضي الله تعالى عنه، وأن يجمع القرآن الحكيم، وهكذا كان زيد أمينا، ومن كل حياته، ومن هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحتى تبوأ هذه المنزلة، وحتى حاز هذه المكانة العالية، السامية، السامقة، الرفيعة، وإنما يعلو شأن العبد؛ ومن حمله هذا الكتاب، القرآن، الفرقان، منهج عمل، ونظام حياة. ولما كان متقلبا فيه، حفظا، وتلاوة، وتدبرا، وعملا بمقتضاه، ومعناه، وفحواه، ولازمه أيضا.

(١) صحيح البخاري: ٣٨١٠

وهذه عبقرية زيد، وهذه أمانته، ولما كان موضع الثقة عند الرجل الأول، وهو هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما اشتمل معه هذا الفضل، وحتى كان موضع الثقة، وعند الرجل الثاني أبي بكر أيضا.

فعن زيد بن ثابت: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعته حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف، والعصب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أحدهما مع أحد غيره: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم}

[التوبة: ١٢٨] إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر^(١).

وعن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت، قال: أرسل إلي أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة، فقال أبو بكر: يا زيد بن ثابت، إنك غلام شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه^(٢).

"لا، ولكن القرآن مقدّم، وزيد أكثر أخذاً منك للقرآن".

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لعُمارة بن حزم، يوم تبوك، وحين كانت معه راية بني النجار، وحين أخذها منه، وأعطاهها زيدا بن ثابت، ولدى سؤاله، وعما إذا كان قد بدر منه شيء يغضبه صلى الله عليه وسلم. وإلا أن هذا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، وحين كان ترياقاً، وربطاً على الأفئدة، وربتاً على الصدور، وإنما قد أجابه، ومن موجب فعله هذا؛ وكما تطمئن الرعية إلى مسلك راعيهم، وتعليل المواقف مطلوب؛ وكما يتوارى ما يمكن أن يرد على القلوب، ومن حق، أو شيء مما يوغر صدور أفراد الأمة، بعضهم بعضاً، وهذا فن إداري، عبقرى، ألمعي، نفيده، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبه تطمئن الرعية إلى عدل راعيها، وبه تسعد، وترقى، ومن تصرفات وأفعال واليها.

(١) صحيح البخاري: ٤٦٧٩

(٢) مسند أحمد: حديث رقم ٥٧

ولكن الذي حمل هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنما هو هذا الذي كان منه عظمة هذا القرآن، وحين أكرم زيدا، ومن موجهه، وسببه، وعلته أيضا. ولأن هذا القرآن تاج، وإنما يتوج به حامله، وقارئه، وعامل به، وقائل به، ومهتد به، وسالك به سبيل ربه تعالى، ومن أمر هذا القرآن، ومن نهيه معا.

وهذا التفاضل وحده آية! وحين لم ينظر القائد، وهو هنا هذا النبي العربي الأمي القرشي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى معيار آخر، ومن بعد معيار القرآن الحكيم، الذكر المبين. وإن الله تعالى ليرفع بهذا الكتاب أقواما، وإن الله تعالى ليضع به أقواما آخرين.

وكانت راية بني مالك بن النجار في تبوك مع عمارة بن حزم، فأدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها منه، فدفعها إلى زيد بن ثابت، فقال عمارة: يا رسول الله: بلغك عني شيء؟ قال: لا، ولكن القرآن يقدم، وكان زيد أكثر أخذًا منك للقرآن^(١).

وهذا سنن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في أمته أحياء أفرادا، أو أمواتا أيضا، وحين كان يقدم الأكثر قرآنا في لحدّه يوم بدر على غيره، وبه دل على فضل هذا القرآن، وعلى فضل حامله أيضا. ولحديث جابر بن عبد الله كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيهم أكثر أخذًا للقرآن، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في

(١) المستدرک، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٤٢١

اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم^(١).

ولكن هذا كان عمل الأمة، وحين كان من شأنها تقديم أهل هذا القرآن، وعما عداهم، ولكن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته أيضا، ولما كانوا به عاملين عاملين معا.

عن عمر بن الخطاب: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين^(٢).

إننا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا

وهذا هو الذي كان قد حمل الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعلى تفضيل زيد بن ثابت، وإكباره، وإعظامه ومن حقه؛ ولأنه كان حاملا لهذا الكتاب المجيد، القرآن العظيم، وحين كان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، يأخذ بركاب ركوبة زيد! أمة هذا تواضعها، وجيلا كان هذا حبه، وبذله، وتفانيه، وكرمه، وإجلاله لذوي الفضل.

(١) صحيح البخاري: ١٣٤٣

(٢) صحيح مسلم: ٨١٧

وعلى أن ابن عباس، ولما كان من ذوي الفضل أيضا، وإنما لم يمنعه فضله هذا أن يهب فضلا لزيد بن ثابت، كان حقا له، واجبا في أعناق هذه الأمة، ولما كان حافظا، عاملا، عالما بهذا القرآن، ولما كان أفرض الأمة أيضا، ومن علم الفرائض والمواريث.

وهذا أيضا، ومما يجده العبد القانت عليه واجبا، ولما كان حقا لإخوانه، ومن ذوي الفضل والإحسان أيضا.

فعن ابن عباس: أنه أخذ بركاب زيد بن ثابت فقال له تنح يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: **إنا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا^(١)**.

وكانوا يقولون: غلب زيد بن ثابت الناس على اثنين القرآن والفرائض^(٢).

يا أبا رقاد نمت حتى ذهب سلاحك

هذه دعاية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه، يوم الخندق، وحين أتى مشاركا، غازيا، مقاتلا، مجاهدا، وإذ كان عمره خمسة عشر عاما يومه هذا! ويوم أن رده هذا النبي يوم أحد؛ ولصغر سنه، ومن جملة كان هو خامسها، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(١) المستدرک، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٤٢٣

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٢ / ٥٣٩

وهذه وقفة أخرى، وحين تسابق أبناء أمتنا، وهم أولاء الأحداث، وما بين سني عمرهم، من تفاوت، وإلا أنه كان قد جمعهم الصغر، وبحيث لا يقوون على القتال، وهذا أولا، ومنه عدم مشروعية اقتتال الأحداث، أو التترس بهم؛ ورعاية لهم، واحتضاننا، وحنانا، ولما يكبروا فدونكم هم!

وهذا مقارنة بين جيل أمتنا الأول وبين جيل أمتنا يومنا هذا! وهذه اهتمامات جيل أمتنا الأول، وبين أيدينا هكذا اهتمامات جيل أمتنا الآن!

وهذا نهيه صلى الله عليه وسلم، وأن يروع مسلم مسلما، ومن جهة ما، ومن جهات الترويع، أو أسبابه، أو موجباته، أو مسبباته.

قال ابن عمرو: كان زيد بن ثابت يكتب الكتابين جميعا كتاب العربية وكتاب العبرانية وأول مشهد شاهده زيد بن ثابت مع رسول الله صلى الله عليه وآله الخندق وهو ابن خمسة عشر سنة وكان فيمن ينقل التراب يومئذ مع المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما إنه نعم الغلام وغلبته عيناه يومئذ فرقد فجاء عمارة بن حزم فأخذ سلاحه وهو لا يشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يا أبا رقاد نمت حتى ذهب سلاحك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله من له علم بسلاح هذا الغلام فقال عمارة بن حزم أنا يا رسول الله أخذته فردده فنهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يروع المؤمن وأن يؤخذ متاعه لاعبا وجدا^(١).

(١) المستدرک، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٤٢١

اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله

هذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لزيد بن ثابت، رضي الله تعالى؛ ولأنه كان كاتب وحيه صلى الله عليه وسلم، أمانة، وصدقا، وحين استرعه هذا الأداء، الرفيع، السامي، وليتوج به تاج الذكر الحسن، ووسام التاريخ الجميل.

ولكن هذا القول فيه استدعاء لدواخل النفس التقية، وأن تنهض من فراشها، ملبية نداء الجهاد، والبذل، والدفاع عن حرمة هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد وبيضته. ويكأنه، وإنك لتشتم منه رائحة الاستنهاض، ولهذه الطاقات الخلابة، والتي أودعها ربنا تعالى داخل هذه النفس البشرية، والتي كان من مكنتها هذا البذل، وهذا العطاء؛ فطرة، وجبلة، وهديا حسنا أيضا، ولكنه يتبقى وجود القائد الماهر، والذي يعمل على استنهاض هكذا قيم، ومن طاقات كامنة لدى المؤمنين، ويكأنها وعند الاستنهاض، والاستخراج، والاستدعاء، فقد رأيتها ملبية.

ولكن المثير دهشة، بل خلقا، عند هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يلبي نداء ربه تعالى، ومن فور النزول، وليأمر ثابتا أن يكتب، ولينشر هو، وكذا زيد، هذا الاستنهاض، ومنه يستنفر أولاء الصحب الكرام، وإلى عهدهم، ومع هذا القرآن العظيم؛ استجابة على الفور أيضا.

ويكأنك قد لاحظت أن القاعدين، ولعلمهم، ومن عذر، وها هم قد استووا، ومع إخوانهم المجاهدين، وحين نفروا، وحين استنفروا أيضا. وذلك على ذلكم بسط القرآن الحكيم صفة المؤمنين، على هؤلاء وعلى هؤلاء، وحين

قال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۖ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۖ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ۖ
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وعلى أن الناس قد رهبوا؛ وحين لم يستو هؤلاء وهؤلاء؛ ولأن الشأن في
المسلم هو هذا الإقدام، لا التأخر؛ ولأن الشأن في المسلم هو المسارعة في
الخيرات، ويدعو ربه تعالى رغبا ورهبا. وهذا هو الذي جعل أولي الضرر
يشكون ضررهم، ومن مثل ما حدث من عبد الله بن أم مكتوم رضي الله
تعالى، وحين راح إلى هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ يشكو ضرارته،
وهكذا، ولينزل الوحي، ومن توها، ومن فورها أيضا، وحسب الواقعة منجما،
وجراء الحادثة مفرقا، وليربت على قلوب أولي الأعذار، وحين نزل قوله تعالى:
«غير أولي الضرر».

وهذا أيضا، ومما يحسب لهذا الدين الفريد المجيد، وحين لم يلو على
أولي الأعذار، وإنما أفسح لهم، وأعذر لهم، وفتح أمامهم آفاقا رحبة أخرى،
وليقيموا، ومن ساعد العون، والجد، والمثابرة، وفيما يمكنهم القيام به، وهذا
الذي حدث مع عبد الله بن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه، وحين ولاه النبي
محمد صلى الله عليه وسلم إمارة المدينة غير مرة، وتفويضا، وتنفيذا، ويوم
غزوه صلى الله عليه وسلم، وهذا الذي يسمونه الإنابة في الأعمال، ومن قرارا
إداري، فذ، عال، رفيع، يفيدونه ذوا القيادة، ويعمله الرؤساء وأولو الريادة،

وحين يربتون على هكذا أول الضرر، وليعلموا أن من دينهم فسحة، وأن من إسلامهم يسرا.

فعن البراء بن عازب: لما نزلت: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين} قال النبي صلى الله عليه وسلم ادعوا فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح، أو الكتف، فقال: اكتب: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين} {والمجاهدون في سبيل الله} وخلف النبي صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله)^(١).

وعلى كل حال فغن هذا هو شان هذا القرآن المجيد وحين يتنزل لا على مرة واحدة وغنما حسب الوقائع والأحداث ولتكون غضة ندية وغذ تعالج موقف حدث وغذ ليس يتبقى من نفوس الناس ومن بعده شيء وهذه من لفتات هذا الفرقان، وهذه من لطائف هذا القرآن. وغذ وغن ولولا هذا التنجيم ولربما بيت في النفوس بقاياها وهو ما لم يرده هذا الكتاب البيان التبيان ولما كان ومن صفته ان هكذا بيان وتبيان وغلا ولربما فقد هذه الصفة ومنه يؤتى على إعجازه أيضا! وهذه أيضا وقفة ومن قفات الإعجاز وغمهاها بالي=بيان مفيد أجل إفادة. وهذا أيضا ومن مقتضى تنزل البيان وللحاجة وهذا أيضا ومن موجب عدم تأخيره وعن وقت الحاجة أيضا وينضاف هذا إلى إعجازه ويحسب هذا غلى إنفاذه وهذه مهارة للناس وألا يؤخروا بينا عن وقت حاجته وإلا أصبح فاترا لافتيا!

العلاء بن الحضرمي

يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا

هذا هدي نينا محمد صلى الله عليه وسلم للمهاجرين، وحين يقضون نسكهم، ومن الحج، وألا يقفوا بمكة أكثر من ثلاث ليال؛ ولأن أولاء المهاجرين، وإنما حازوا فضلهم، وامتازوا؛ من مناقبهم، وحين هاجروا لله تعالى، وبه كانت هجرتهم، ولما كانت لله تعالى ربهم الحق، وإنما يظنون على هذا الوصف، ذكرا، وثناء حسنا.

وهو من الأفضلية لهم، ومنه كان لهم أن يقيموا على هذا الوصف أبدا، وإن جاز أن يقيموا بمكة ثلاثا لا أكثر منها، ولربما وزيادة على فضل كونهم مهاجرين، وإنما ينضاف إلى ذلك ولعله؛ وحتى لا تتعلق بها قلوبهم، ومن حيث قد هاجروا منها، وكما يبقي سمتهم بالهجرة مصاحبا، وألا ينقطع عنهم يوما.

وإذا حدث وأرادوا البقاء والمكث في مكة، وهذا الذي تنبغي الإشارة إليه، ومن هدي هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت الهجرة هكذا، عهدا فاصلا في التاريخ البشري كله، والإسلامي منه وبوجه أخص، ولما كانت سببا في تغيير معالم الناس، وعلى مدار تاريخهم الطويل، ومن يوم الهجرة هذا.

فعن العلاء بن الحضرمي: يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه
ثلاثاً^(١).

وراه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عنه أيضاً وبلفظ: سمعت عمر
بن عبد العزيز يسأل السائب ابن أخت النمر: ما سمعت في سكنى
مكة؟ قال: سمعت العلاء بن الحضرمي قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: ثلاث للمهاجر بعد الصدر^(٢).

(١) صحيح مسلم: ١٣٥٢

(٢) صحيح البخاري: ٣٩٣٣

أبوسفيان عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

يا نبي الله ، ثلاث أعطينهن

هذا طلب أبي سفيان عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن نبينا صلى الله عليه وسلم أيضا.

لست أروح ما راح إليه الناس، وأن هذا كان طلبا من النبي صلى الله عليه وسلم؛ وليذهب به أبو سفيان وحشة كان قد لاقاها، ومن أولاء الصحب الكرام، ومما كان من شأن أبي سفيان هذا، يوم أن كان مشركا، وما لاقاه منه المسلمون، ولأن الناس يعلمون، وكما كانوا هم كذلك أيضا.

وأن الإسلام يجب ما قبله، وعلاوة على أن طلب أبي سفيان هذا، وأنه يمكن حمله، وعلى أنه ومن باب البذل، وأخذا بأسباب التعويض.

ولئن جاز هذا الفهم وعقله، وعن شيء، ومما كان قد فعله، وإنه لمن تلقاء نفسه، وليس من وحشة كان قد وجدها من الناس، وكما قيل. وإنما كان هذا الجيل، وحين يسلم، فإنه كان يركل الجاهلية، وأسبابها، وعيبتها، ويكأنه بشر يمشي على الأرض، ومن صورة ملك! يهدده هدا، ويسمو به سنه، وبالتالي فنحن نكرر ألا صحة ولمذهب راح إليه الناس، ومن قولهم ليذهب الوحشة!

وثمة أمر آخر جدير، وعلاوة على أن الإسلام يجب ما قبله، وإنه ولمن الممكن أن يكون أبو سفيان؛ ولأنه ومن بيت النبوة، ولأنه عم هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كان يمكن أن يعيش، ولو جانبا من

الحظوة النفسية، وعلى الأقل؛ ولأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم! وهذا أمر مشاهد، ولو من وجه، ولست أروح إلى هذا أيضا، ولكنه، ومن نفس الباب الذي قد ولجوا منه؛ ولأنه من نفس المعين الذي اغترفوا منه.

خلاصة: عن عرض أبي سفيان هذا: وإنما كان؛ ومن باب البذل والمصارعة في الخير، والمسابقة في المهمات العاليات وحسبنا.

وأن هذا أيضا، ومن باب حسن الظن الذي قد أمرنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكيفا يكون الصف سليم الصدر، وبعضه تجاه بعضه. هذا، وإذا كان أبو سفيان، ومن عليه قومه، ولما يطلب هذا الطلب، ومن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما أيضا؛ وكيفا يكون من أولاء المشاركين، ومن كمثل غيره، ومن ومنهم أيضا، وليس يقعه قربه، ومن دار النبوة.

وإذا وليس يثنيه ذلك، وعن أن يعلو؛ ومن إسلامه، بذلا، وإلا أن يسمو؛ ومن إيمانه، طاعة، وخيرا، وهديا حسنا أيضا.

وليكون ومن ذلك العبرة، ولما كان ومن ذلك العظة أيضا، وألا يحسب الناس، ومن حساباتهم، وأن قربهم ومن بيت القيادة مندوحة لهم، وأن يتواروا خلف القضبان، ومن جهاد.

وإلا أننا أيضا، وإنما نحسب لهذا النبي إجابته أبا سفيان طلبه ذلك! وأنه؛ ولمن سبيل العطاء، الفذ، العالي، السميق، الرفيع.

وإذ من هذا الذي يعرض الإمارة على جيش، وإلا أنه يعلم، ومن طلبه هذا، أنه ولسوف يكون أول المطلوبين، والمقصودين، ومن قتله.

وهذا، والحق يقال فضيلة، وإنما يثنى بها عليه؛ ومن أجلها، وإنما يبحث في قواميس التماس الأعذار، وأن نجد لكل تصرف عن أخ في الله تعالى مولانا الحق المبين، له تصريفا، وتأويلا حسنا، وبدل أن ندع شيئا لشحنة سلبية، وإنما لنجد أشياء، ولشحنة إيجابية، تجعل الصف منسجما، وتترك للقدوة الحسنة فرصتها، ولأن الله تعالى ربنا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعلى أن طلبه رضي الله تعالى أن يجعل معاوية، ومن كتابه، وإن هذا أيضا، ومن باب المشاركة في الخير، ولما يقدم ولده، ومن بين يدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم كاتباً؛ وليكون أقرب إلى التنزيل، وليتغلغل هذا التنزيل، ومن لبه؛ وليكون ويكأنه كان قرآنا يمشي بين الناس أيضا؛ ولأن ملازمة هذا الذكر، ومعالجته حيناً بعد حين، وإنما لتجعل العبد؛ ومن سببه عبدا قرآنيا، به يسمو، ويعلو.

وهذه منقبة لأبي سفيان، وحين أراد لولده، وأن يكون وهكذا، ومن مصاف القرآنيين.

ومنه فأبي شائبة نفاق يمكن تخيلها! ومن هذا الرجل، ومن بعد أن أسلم، وها هو نراه مقداما إلى ساحات الوغى، وحين تأخر عنه المنافقون،

ولما كان هذا هو تاريخهم به زاكما، ومن مثل ما أنف منه ذكرا، ومن عرضنا لسفر السيرة النبوية أحداث ودلالات. وكذا، وحين يقدم ولده؛ وليكون إلى نور التنزيل أقرب، ويكأنه؛ ومن سناه يسمو، ومن هداه يضيء!

وعلى أن عرضه لأم حبيبة أن يتزوجها؛ ولعله، ومن باب، وكما قيل إنها أضحت أرملة، وكما قيل إنها أيضا كانت مكناة بأم حبيبة، ولما كان اسمها عزة، وهذا تصريح.

وثمة تصريح آخر، وحين كان الناس، ومن شبهة جواز نكاح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولا سيما أن حديثا في هذا قد ورد، وظنوه خاصا به صلى الله عليه وسلم، واستثناء له، ومن آية تحريم الجمع بين المحارم. " فعن عائشة أم المؤمنين: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء^(١).

وعلى أن هذا تصريح ليس حسنا، ولأنه يخضع في ذلك إلى منهجه تعالى، وحين قد حرم الجمع بين المحارم، وليس يستثنى من هذا الأصل نبي أو من سواه.

وكذا يمكن حمل ذلك وعلى أنه استثناء خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن قوله تعالى {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ} ولا سيما ما راحت إليه أم حبيبة وحين عرضت اختها أم حبيبة عزة على زوجها النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٢١٦

وعن أم حبيبة بنت أبي سفيان أخبرتها أنها قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: أوتحبين ذلك؟! فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن ذلك لا يحل لي. قلت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم، فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي؛ إنها لابنة أخي من الرضاعة، أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوِيْبَةً، فَلَا تَعْرُضْ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ. قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب؛ كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حبيبة، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أنني سقيت في هذه بعثاقتي ثويبة^(١).

والحاصل ومن كل ما أنف هو صدق الرواية وعن الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى وهذا أولا: وإن هذا تأويل ما حدث؛ وليتوافق ومع ظنون الناس، وما حسبه استثناء، ولا سيما ومما يمكن أن يطرأ، ومن فهم، وعلى حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وفي هذا الصدد، ومما أنف ذكره أيضا.

فعن عبدالله بن عباس: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله، ثلاث أعطينهن، قال: نعم، قال: عندي أحسن العرب وأجمله؛ أم حبيبة بنت

(١) صحيح البخاري: ٥١٠١

أبي سفيان، أزوجكها، قال: نعم، قال: ومعاوية، تجعله كاتباً بين يديك، قال: نعم، قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم. قال أبو زميل: ولولا أنه طلب ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم ما أعطاه ذلك؛ لأنه لم يكن يسأل شيئاً إلا قال: نعم^(١).

وعلى كل حال فقد مر بنا ذكر أطراف وعن هذا أبي سفيان عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن خلال عرضنا لموسوعة: السيرة النبوية أحداث ودلالات. لكن هذا طرف منه أيضاً.

معيقب بن أبي فاطمة الدوسي مولى بني عبد شمس

لعل طرفا يذكر، ومن سير أولاء الصحب الكرام، ومقتضاه أنه وكيف كان منهم ومن أمثال معيقب هذا؟ وأن يطرحوا عن أنفسهم الذل والمهانة، وحيثما وجدوا هكذا نور الإسلام الكريم، وهو إذ يرفع من شأن الناس قاطبة، وحين كانت المفاضلة بينهم، وإنما على التقوى، والعمل الصالح، وحين كان من أولاء، ومن أمثالهم معيقب هذا، وها هم يتلوون قيظا وغيظا ومهانة؛ ومن عبوديتهم لهكذا نفر من المشركين، ولما كانوا قد أذاقوهم مر العذاب، وامتهانا لكرامة الإنسان، وحين خلقه ربه تعالى كريما، أبيا، عزيزا، أنفا، ومن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا الذي حدا بمعيقب هذا، وغيره، وأن ينسلخوا من هكذا عقدة الرق، وإلا أن يدخلوا في هذا الدين أفواجا، ولولا مساحة عظيمة من البر، فيه ما لا مس شغاف قلوبهم، ولكنه هو هذا النور، وحين أيقظ همم الناس، وحتى رفعهم به إلى القمم، وأسمى مدارج الأبهة، وأعلى سلالم التكريم.

ولكن معيقبيا هذا، ولما كان قد أسلم وإنما لاقى من قومه ما لاقى غيره، ومنه فقد كانت إلى الحبشة هجرته، وإلى المدينة أيضا؛ وفرارا من الكفر وأهله، وانضماما إلى هكذا صفة الأتقياء الحنفاء، وحين جعل الله تعالى

لكل مرید مأواه، ولما كان من شأن هذا الرب الكريم أن ينال من فضله كل سالك مبتغاه، وهداة، وسناه.

ولما كان الناس، وحين تحولوا ومن مذلة إلى عزة، وحين خالط هذا الدين شغاف قلوبهم، ولما لم يتركهم ربهم تعالى هملا، ولما كان ومن بعد ابتلاء وتمحيص أيضا؛ وليجعلهم ربهم تعالى، ومن بعد فقرهم أغنياء، ومن بعد ذلهم أعزاء، ومن بعد ضعفهم أقوياء، وحيناً راحوا إلى حظيرة دينهم، بها يتدثرون، ومنها ينعمون، وعلى ربهم يتوكلون، آيبون، تائبون، عابدون، حامدون، راکعون، ساجدون، أمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر.

ولكنه وحينما يتصبر العبد، وعلى طريق مولاه تعالى، وإنما يتحفه ربه بخير عميم دنياه، وبأجر وفير أخراه، ولما كان من شأن معيقيب هذا، وأن يتحول؛ ومن فضله تعالى، ومن رقيق، وإلى أمين بيت مال المسلمين! وفي عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما.

ولهذا فإن هذا الدين، وإنما يعز به ربنا تعالى أقواما؛ وحين وافقوه، وعالجوه، وتفاعلوا معه؛ بغية الاحتساب، والرضوان، والنعيم المقيم، في جنات النعيم. ولما كان قد أذل به أقواما آخرين، وحين رفضوه، وأبوه، وتركوه، واستدبروه.

علاج الجذام بالحنظل

وهذا عمل الناس يومهم هذا، وحين كانوا وعلى خبرة ودراية ودربة بعلاجاتهم، ومن أدوائهم ولما كان هذا معيقب قد أصيب بمرض الجذام، وليعالجه عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه وبهذا الحنظل، وهذه وكما أنف دراية ودربة القوم، وكيف كانوا يستنقذون ومن الطبيعة، وإن جاز التعبير علاجهم ودواءهم، ومن شفاء أسقامهم وأمراضهم وأوجاعهم.

وهذا الذي نلفت إليه الأنظار، وأن يعمل العباد على تحصيل معارفهم، ومن هذه الأعشاب؛ وقوفا على أسرارها وكعلاجات لسائر ما يشكون الناس ومن أمراض ومن أوصاب، ومنه يعيشون العيشة الهنية، ومنه يوفرون على خزائنهم هذه الأموال الطائلة، ولما كان يكفي ولعلاج أمراضهم، ومن كمثل هذا الحنظل لجذامهم، ومن كمثل الماء! ولما كان ترياقا لحماهم، وهذا نذر يسير للإشارة، وهذا قدر ضئيل تغنيه العبارة.

وكان قد أصابه الجذام، فأمر عمر بن الخطاب فدوي بالحنظل فتوقف المرض^(١).

وعلى أنه لا منافاة بين هذا وبين حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «فر من المجذوم فرارك من الأسد». لأنه ومن بعد احترازا، ولربما تؤخذ ولعلاج هذا المجذوم، وإلا كيف يترك سدى، وهو من أمانات الأمة بعضها على بعض. وثم قد حملوه وعلى قوة توكله صلى الله عليه وسلم

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٥ / ٣٧٧

ويقينه بربه تعالى. ومن أنه قال لذلك المجذوم - ووضع يده في القصعة :-
«كل ثقة بالله، وتوكلا عليه».

إن كنت فاعلا فواحدة

هذا سنن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاز للعبد المصلي أن يسوي من مكان سجوده، وألا يحصل له من ذلك من أذى، وألا يصرفه الانشغال، وحين عدم استواء مكان سجوده، وعن خشوعه وخضوعه لربه تعالى، وحين كان السجود، وهو الهيئة العظيمة التي كان منها أن تتجلى على العبد دالات الخضعان والخشعان لهذا الرب العزيز المنان القهار سبحانه، وبه دل أيضا على اهتمام الناس وبصلاتهم وبسجودهم وبخشوعهم أيضا.

وإلا أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ولما كان قد أجاز وإنما مرة واحدة؛ وكيفا لا يؤدي ذلكم عمل إلى العبث، ومن شأن الصلاة، وحين كان القيام فيها، وإن هو إلا من أعظم آيات الخضعان والخشعان لهذا الرب الكريم الوهاب سبحانه.

وبه دل على ألا يصرف الناس همهم كثيرا إلى تسوية مكان سجودهم؛ وكيفا لا يفوت العبد المقصود من هذه الصلاة، ولما كانت صلة ووقوفا بين يدي ربنا الرحمن سبحانه، ولما كانت الحركة غير مرة سببا لصرف العبد عن هذا الإخبات، وهو ما يجعله سببا من أسباب تفويت شأن الصلاة عن العبيد، وهو هذه الصلة، وهو هذا القنوت، والإخبات لله تعالى.

ومن طبع أن يستوي في ذلكم كل مصل ذكرنا كان أو أنثى؛ ولعموم الخطاب من شريعتنا وعلى كل مكلف به.

فعن معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد، قال: إن كنت فاعلا فواحدة^(١).

«ويل للأعقاب من النار».

هذا وعيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم للأعقاب من النار، والأعقاب هم أولاء الذين ليسوا يتمون غسل أعقابهم، وهي مؤخرة أقدامهم؛ ولأن الغلبة وحين يكون العبد من عجلة ألا يتنبه إلى هكذا شأن خطير؛ ولأنه به يفوت الوضوء، وكشرط من شروط الصلاة، وهذا حرص هذا النبي صلى الله عليه وسلم واهتمامه بعبادات الأمة، وهذا الشأن في الراعي، ولما كان مسؤولا عن مراعاة الناس ورعايتهم وحرصهم وتوجيههم، وألا يترك عنهم ما من شأنه يفوت مصالحهم، ومن معاشهم ومن معادهم أيضا، ولأن هذا هو المتوافق مع قوله صلى الله عليه وسلم: كلكم راع ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته. قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال: والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته^(٢).

(١) صحيح البخاري: ١٢٠٧

(٢) صحيح البخاري: ٢٤٠٩

وفيه الاهتمام بشأن الصلاة، ولما كان الوضوء شرطاً لها. وفيه الاهتمام بإسباغ الوضوء أيضاً؛ ولورود الحديث: ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط. وليس في حديث شعبة ذكر الرباط. وفي حديث مالك ثنتين فذلكم الرباط، فذلكم الرباط^(١).

وفيه الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتوقيره، وحين كانوا يدعونه بكنيته، أو صفته، لا باسمه صلى الله عليه وسلم، عهدا كانوا عليه، وسبيلا دعوا إليه.

وقال: سمعت أبا هريرة، وكان يمر بنا والناس يتوضئون من المطهرة، قال: أسبغوا الوضوء، فإن أبا القاسم صلى الله عليه وسلم قال: ويل للأعقاب من النار^(٢).

كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة

هذا وصف معيقيب رضي الله تعالى عنه لخاتم نبوة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وأنه كان من حديد، وفصه من فضة، ولما كان مكتوبا عليه: محمد- رسول- الله: وكل منها في سطر مستقل، وعلى ما رواه أهل السنن في هذا.

(١) صحيح مسلم: ٢٥١ |

(٢) صحيح البخاري: ١٦٥

وإنما كان صلى الله عليه وسلم قد اتخذ من الذهب يوماً ثم نفذه عنه، ولأنه كان قد حرم الذهب والحرير على رجال هذه الأمة؛ ولما فيهما ومن التمتع والترقق، وإذ ليس هذا من صفة الرجال، وإلا في الجنة، ولأنه قد أحل لهم ربهم كل ما طاب، ومن اللباس ومن الأكل ومن المشرب ومن المناكح ومن سائر ما يشتهون، ومن كل ما من شأنه به يتنعمون، ومن سرر عليها يتكؤون، ومن أكواب ومن ولدان مخلصين عليهم يطوفون ومن كافة المنافع والمشارب فضلاً من الله تعالى ورضواناً.

وعلى أن وجهاً في اتخاذه صلى الله عليه وسلم الخاتم من الذهب أول الأمر؛ ولعله لإظهار هيبة الدولة، ومنه حرص الناس على احترام خاتمهم الذي يعد بمثابة الناطق باسمها، ولما كان من مثابة شعارها.

ولأن هذا الدين يدور مع المصلحة حيث دارت، ويدراً مواضع الشبهات، ويسد ذرائع الشر، ومنه فقد كان نفذه صلى الله عليه وسلم خاتم الذهب واستبداله بخاتم من فضة.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اصطنع خاتماً من ذهب، فكان يجعل فمه في باطن كفه إذا لبسه، فصنع الناس، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه، فقال: إني كنت ألبس هذا الخاتم، وأجعل فمه من داخل، فرمى به، ثم قال: والله، لا ألبسه أبداً، فنبت الناس خواتيمهم ولفظ الحديث ليحيى. وفي

رواية : عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث في خاتم الذهب.
وزاد في حديث عقبة بن خالد، وجعله في يده اليمنى^(١).

وعلى أن لبس هكذا معيقب لخاتم النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛
ولعله كان ومن قبل أو من بعد أن يصيبه جذامه، أو لعله ومن قوة يقين
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتوكله واعتماده على مولاه تعالى الحق
المبين سبحانه. أو لعلهما معا أيضا، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو
الفضل العظيم.

وعلى أن هذا خاتم النبوة وإنما قد لبسه الخلفاء، ومن بعده صلى الله
عليه وسلم ولما جاء وقت سقوطه من يد عثمان رضي الله تعالى في بئر، وحين
التمسه ولما لم يجده.

وعن أنس بن مالك: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب
إلى الروم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابا إلا أن يكون مختوما، فاتخذ
خاتما من فضة، فكأنني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد
رسول الله^(٢).

وهذا الذي نفهده عملا وهديا حسنا، وحين استشعار القائد ضرورة
للتواصل، وأملتها أبجديات الناس، وفيما ليس يخالف هديا سماويا، أو سننا
نبويا، وإنما يعتد به.

(١) صحيح مسلم: ٢٠٩١

(٢) صحيح البخاري: ٢٩٣٨

وهذا الذي جرى عليه عمل الناس، ومن أخذهم أصول الإدارة والسياسة، ومن قوم آخرين، وحين لم يعدوا فيها مخالفة، ومن تحليل ما حرم ربنا تعالى أو تحريم ما أحله سبحانه، وكالإدارة المرورية والهيكل الإدارية والأنظمة التقنية المختلفة والتطبيب، وما لنا نحو ذلك. ونؤكد، وحين لم يعهد فيها مخالفة لديننا.

وعلى أنه يمكن القول: وبأنه وإذا وجد في هذه الأنظمة ما يخالف شرعنا، وأمكن تهذيبه وتعديله، وبحيث ليس يخرج، ومن حيث كان موافقا، ومن بعد إجراء هذه التعديلات فثمة أيضا.

وهذا الذي جري عليه عمل الناس، وإلى يومهم هذا، وحين نرى هذا الخاتم الجمهوري، أو هكذا الخاتم الرئاسي، أو آخر مما اصطنعه الناس، وليجري فيه على أساس أن عمل الناس ويكأنهم يعملون باسم الدولة، وحين يختتم عملهم بخاتمها، ولأنهم ومن وضعهم هذا فقد تناسب أيضا. ولأنهم نواب عاملون باسم الأمة، فكان خاتم الأمة متنفذا، ومسبغا عمل الشرعية، ودأب المشروعية أيضا.

وكان منه ألا يمسه أحد بتعديل، وألا يقربه أحد بتغيير، ومن حيث قد اتفقت الأمة عليه، ومن خلال نوابها، وأهل الحل والعقد فيها؛ ولما روى أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة،

ونقش فيه: محمد رسول الله، وقال: إني اتخذت خاتما من ورق،
ونقشت فيه محمد رسول الله، فلا ينقشن أحد على نقشه^(١).

وفيه صراحة النهي عن الإضافة أو التعديل أو التغيير، وعما اتفقت
عليه الأمة، ومن خاتمها وشعارها.

وعلى أن ثناء عطرا على هذه الأمة، وحين كان اتباعها لنبيها محمد
صلى الله عليه وسلم، ولما كان قد نزع خاتمته، فنزعوا هم أيضا، وتلك أمة
خير، وشاهدة حق، ونابية عن هوى، ولما كان هذا استئنانها، وحين كان هذا
هو اهتداؤها واقتداؤها وبنبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه رأى في يد رسول الله صلى
الله عليه وسلم خاتما من ورق يوما واحدا، ثم إن الناس اصطنعوا
الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم
خاتمته، فطرح الناس خواتيمهم» تابعه إبراهيم بن سعد وزياد
وشعيب عن الزهري، وقال ابن مسافر عن الزهري: أرى خاتما من
ورق^(٢).

وكونه كان مكونا من ثلاثة أسطر، ولما كان عهد الناس وإلى يومهم
هذا أيضا سننا وهديا حسنا.

(١) صحيح البخاري: ٥٨٧٧

(٢) صحيح البخاري: ٥٨٦٨

فعن أنس بن مالك: أن أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف بعثه إلى البحرين وكتب له هذا الكتاب وختمه بخاتم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر^(١).
وأما حديث: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه^(٢). فإنه ضعيف.

سيف النبي صلى الله عليه وسلم : علم نبوة ضاف

هذا علم من أعلام نبوة هذا النبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وحين كان قد تنفل سيفه ذا الفقار هذا ومن يوم بدر ومن السنة الثانية من هجرته صلى الله عليه وسلم. وحين كان من أمر يوم أحد، وما كان ومما أنف بيانه، وفي حينه ومن موسوعة: السيرة النبوية أحداث ودلالات. ويوم رأى النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن سيفه ذا الفقار هذا قد انكسر من وسطه، وكان من تأويله صلى الله عليه وسلم، وما حدث يوم أحد!

ولكن هذا السيف ذا الفقار وإنما اتخذه النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ وإشعارا بالقوة والعزة والأنفة، ويوم يكون الأمر مطلبه ذلك، وإذ كان هو نفسه هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أيضا، حلما حنونا رؤوفا رحима.

(١) صحيح البخاري: ٣١٠٦

(٢) سنن أبي داود، أبو داود: ١٩. خلاصة حكم المحدث: منكر.

فعن عبدالله بن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد^(١).

ويكأن هذا، ومن كون أن هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وحين كانت رؤياه وإنما تتفلق كفلق الصبح؛ ولأن هذا الذي حدث، وكما أنف، وبه كان علما من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم.

وعن ابن عباس، قال: تنفل رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، فقال: " رأيت في سيفي ذي الفقار فلا، فأولته: فلا يكون فيكم، ورأيت أني مردف كبشا، فأولته: كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها: المدينة، ورأيت بقرا تذبج، فبقر والله خير، فبقر والله خير^(٢)."

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١٥٦١

(٢) مسند أحمد ابن حنبل: ٢٣٧٦

هذه عزة أمة

وحين كان من شأنها الدفاع وعن حرمة سيف نبيها محمد صلى الله عليه وسلم. وكما أنف ولأنه شعار العزة ويكأنه دثار الأنفة، وهو هذا السيف، وحين كان شعارا للأمة، ومنضافا إليه وأنه شعار لنبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم، وبه فإن هذا سنن وهدي حسن، وحين يقف الناس أجمعون؛ ودفاعا مستميتا عن هذا الشعار؛ ولأن في سقوطه أو حتى النيل منه نيل من مهابة الأمة وعزتها أيضا.

وعلى أن هذا كان قسم الناس يومهم هذا، وإنما فيه استشعار بكيف كانت ثقتهم في ربهم سبحانه تعالى وأنه سيمضي قسمهم؟!

فعن علي بن الحسين بن علي: أنهم حين قدموا المدينة، من عند يزيد بن معاوية، مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، لقيه المسور بن مخرمة، فقال له: هل لك إلي من حاجة تأمرني بها؟ قال: فقلت له: لا، قال له: هل أنت معطي سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فإني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وإيم الله لئن أعطيتنيه لا يخلص إليه أبدا، حتى تبلغ نفسي، إن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل على فاطمة، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس في ذلك، على منبره هذا، وأنا يومئذ محتلم فقال: إن فاطمة مني، وإني أتخوف أن تفتن في دينها. قال: ثم ذكر صهرا له من بني عبد شمس، فأتني عليه في مصاهرته إياه فأحسن، قال حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالا ولا أحل حراما،

ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله مكانا واحدا أبدا^(١).

اهتداء واقتداء

هذا اقتداء الناس بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وحين رواوا عنه هيئته يوم دخل مكة فاتحا. وأن عليه عمامة سوداء، وقد أنف بيان أن هذه هي المناسبة الوحيدة التي رواوا عنه هيئته هذه. ومنه فلا يمنع من لبس العمامة سوداء أو بيضاء أو ما نحا نحوه، ومنه لون يليق بمعاشر الرجال.

والأمر واسع على كل حال، وحين يمكن قول آخر: إن هذه مرة، وليست عهدا بهذا النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه فلا مؤاخذه على تارك.

وإن حسن قولنا بموافقة العمل النبوي، ولما كان أهدى سبيلا أيضا. ولأن اللون الأسود، وقد تعارف الناس على قيمته ووقاره، ولعله وإذ يكون أجمل ومع الثوب الأبيض، وحين كان هذا من سننه صلى الله عليه وسلم أيضا، ومن قوله: البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكالكم الإثم: يجلو البصر، وينبت الشعر^(٢).

(١) صحيح مسلم: ٢٤٤٩

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٨٧٨

فعن جابر بن عبدالله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة وقال قتيبة: -وفي رواية: دخل يوم فتح مكة- وعليه عمامة سوداء بغير إحرام^(١).

وعلى أنهم رووا أنه صلى الله عليه وسلم وإنما كان يجعل طرفها بين كتفيه أيضا. وقد أرخى طرفها بين كتفيه - صلوات الله وسلامه عليه ولا منافاة بين هذا ولبسه المغفر يوم فتح مكة أيضا، وكون هذا أولا أو أنه هذا ثانيا، فلا منافاة أيضا.

والمغفر هو ما يستر الرأس وحين التأهب لملاقاة العدو. وفيه الأخذ بالأسباب والمنعة، ولا منافاة بينه وبين التوكل أيضا.

(١) صحيح مسلم: ١٣٥٨

أبو الحدر

هذه نعل النبي ﷺ

هذا قول بيانا لوصف نعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن واقع الحال والمعاهدة. وهذا اهتمام الناس يومهم هذا وبنعل هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ودل على هذا أكثر، وحين كان عند أبي الحدر، نعل مفردة ذكر أنها نعل النبي ﷺ، فسامها الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب منه بمال جزيل، فأبى أن يبيعهها، فاتفق موته بعد حين، فصارت إلى الملك الأشرف المذكور، فأخذها إليه وعظمها، ثم لما بنى دار الحديث الأشرافية إلى جانب القلعة، جعلها في خزانة منها، وجعل لها خادما، وقرر له من المعلوم كل شهر أربعون درهما، وهي موجودة إلى الآن في الدار المذكورة^(١).

فعن أنس بن مالك: أن نعل النبي صلى الله عليه وسلم كان لها قبالة^(٢).

كانت للنبي صلى الله عليه وسلم سكة يتطيب منها

هذا اهتمام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالطيب، وحين كانت سكة يتطيب منها. والسكة هي الطيب نفسه أو وعاء يوضع فيه الطيب. ولقوله: (باب في استحباب الطيب) (سُكَّة) بضم السين المهملة وتشديد الكاف نوع

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٦ / ٨

(٢) صحيح البخاري: ٥٨٥٧

من الطيب عزيز: وقيل الظاهر أن المراد بها ظرف فيها طيب ويشعر به قوله يتطيب منها لأنه لو أراد بها نفس الطيب لقال يتطيب بها^(١).

ودلنا على هذا الهدى الحسن الجميل أنه صلى الله عليه وسلم قال: **حُبُّ إِيٍّ مِنَ الدُّنْيَا، النِّسَاءِ، وَالتَّيِّبِ، وَجَعَلَ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**^(٢).

وعلى أنك ترى، وكَمَ كان اهتمامه صلى الله عليه وسلم بنسائه محبة وإلْفا ومودة ورحمة وشفقة. وهذا من علو الخلق ومن سمو الأدب ومن حسن السمات وجيد الفضائل الحسان أيضا.

وكما أنك قد لامست شغاف قلبك هذه الحفاوة بالطيب، وحين كان ومن زينة العبد ومجددا به نشاطه وسمته وهيئته أيضا؛ وكَيْما يكون طيبا من مجلسه ومن منامه ومن مشيته ومن جلسته أيضا، فيأنس به المجاور، ويبتهج من نيسمه المحاور.

فعن أنس بن مالك: كانت للنبي صلى الله عليه وسلم سكة يتطيب منها^(٣).

(١) عون المعبود: العظيم آبادي: ج ١١ / ١٤٧

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٣٩٤٩

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٤١٦٢

رأيت قدح النبي صلى الله عليه وسلم عند أنس بن مالك وكان قد انصدع

فأسأله بفضة

هذا وصف أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه لقدح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو كما ترى إعلان التواضع وإظهار التقشف، وهذا قدح نبي فتح الله تعالى به قلوبا غلغا وأعينا عميا وآذانا صما. وهذا هو النظر إلى الدنيا لما كان استدبارها عنوانا على صرف الهمم إلى الآخرة، وموجبا للنظر إلى معالي الأمور، ومن دعوة الناس والصبر على الأذى الذي يلحق المسلم ومن جراء هذا السنن، ومن تبعات هذا المنهج ومن آثار هذا الطريق. ولما كان نبينا الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا رأيناه ينصدع قدحه، وإذا يقوم بإصلاحه عيبه، ودون طرحه؛ ولأن كثيرا من الناس، وحين ينصدع عن أنيتهم من شيء وإنما يرمونها!

وهذا الذي رأيناه منه صلى الله عليه وسلم، وحين كان يرقع ثوبه أيضا.

ويكأن هذا هو حب الناس لنبينهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يحتفظ أنس بقدحه، ولما كان قد احتفظ. بنعله وهذا عنوانا على المحبة وبرهانا على الاتباع.

وعلى أن هذا هدي الناس أيضا، وحين كانوا يتبركون، ومن فعل نبينهم صلى الله عليه وسلم، ومن آثاره أيضا، ولما كانوا يسارعون في الشرب من هذا القدح أيضا.

وهذا هو حرص أنس بن مالك على إصلاح قدحه صلى الله عليه وسلم
وحين انصدع أي انكسر.

وهذا هو اقتداء الناس بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وحين تواصلوا
بينهم بالحق والنصح والتذكير والإرشاد وحين رأى بعضهم إصلاحه، ومن
ذهب وإلا أن آخر رأيناه سالكا هدي نبيهم؛ ولأنه هذا النبي صلى الله عليه
وسلم كان قد سن ألا يصلح من ذهب؛ ولأن هذا ومع أنه ومن باب الإسراف،
وإلا أنه ومن باب التمتع أيضا.

وكلا الأمرين وإنما جاء ديننا للنهي عنهما، وإذ كيف يكون قدح من
خشب، وهكذا يحرص الناس على إصلاحه وتزيينه من ذهب؟!

وعلى أنه جاز هذا الإصلاح، ومن فضة، وكما كان هدي نبيهم محمد
صلى الله عليه وسلم أيضا.

ولكن حجم هذا القدح، وحين وصفوه، وبأنه ودون الربع وأكثر من
نصفه؛ ولحديث: كنا عند أنس بن مالك، فدعا بإناء وفيه ثلاث ضباب حديد،
وحلقة من حديد، فأخرج من غلاف أسود، وهو دون الربع وفوق نصف
الربع، فأمر أنس بن مالك فجعل لنا فيه ماء، فأتينا به فشربنا وصببنا على
رؤوسنا ووجوهنا، وصلينا على النبي صلى الله عليه وسلم^(١).

والقدح هو مكيال شرعي إسلامي، وهو ثمن كيلة مصرية. فحجم
القدح: ٢٠٠٦٢٥ لترا.

(١) تخریج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٢٩٤٨. خلاصة حكم المحدث: إسناده قوي

والقدح من الآنية، بالتحريك: واد الأقداح التي للشرب، معروف، قال أبو عبيد: يروي الرجلين وليس لذلك وقت، وقيل: هو اسم يجمع صغارها وكبارها، والجمع أقداح، ومتخذها: قداح، وصناعته: القداحة^(١).

والقدح في اصطلاح الفقهاء من أجزاء الصّاع، قال الشّربيني: فالصّاع قدحان إلا سبعي مدّ، وكل خمسة عشر مدّاً سبعة أقداح .

وورد عن عائشة أنّها قالت: « كنت أغتسل أنا والنّبي صلى الله عليه وسلم في إناءٍ واحدٍ من قدحٍ يقال له الفرق »، قال أبو عبيد: وذلك اليوم نحو من خمسة أمداد.

« ما يناط بالقدح من الأحكام الشرعيّة »

يتعلّق بالقدح من الأحكام ما يتعلّق بالصّاع لأنّه جزء منه وقد يذكره بعض الفقهاء باسمه في تعيين بعض الأنصبه، من ذلك ما ذكره الشّربيني في نصاب الزّرع فقال: فالنّصاب على قول السبكيّ خمسمائة وستون قدحاً، وعلى قول القموليّ ستمائة، وقول القموليّ أوجه، وإن قال بعض المتأخّرين: إنّ قول السبكيّ أوجه، لأنّ الصّاع قدحان تقريباً .

فعن أنس بن مالك: رأيت قدح النبي صلى الله عليه وسلم عند أنس بن مالك وكان قد انصدع فسلسله بفضة، قال: وهو قدح جيد عريض من نضار، قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا القدح أكثر من كذا وكذا. قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقة من

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢ / ٥٥٤

حديد، فأراد أنس أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة، فقال له أبو طلحة: لا تغيرن شيئاً صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتركه^(١).

(١) صحيح البخاري: ٥٦٣٨

مصادر البحث

- ١- السنن الكبرى البيهقي.
- ٢- صحيح الجامع، الألباني.
- ٣- الأدب المفرد للبخاري.
- ٤- فتح القدير، الشوكاني.
- ٥- صحيح الترغيب، الألباني.
- ٦- صحيح البخاري.
- ٧- صحيح مسلم.
- ٨- شرح الطحاوية، الألباني.
- ٩- سير أعلام النبلاء، الذهبي.
- ١٠- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.
- ١١- لسان العرب، ابن منظور.
- ١٢- فتح الباري، ابن حجر.
- ١٣- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر.
- ١٤- تفسير ابن كثير، ابن كثير.
- ١٥- تخريج المسند لشعيب، شعيب الأرنؤوط.
- ١٦- البداية والنهاية، ابن كثير.
- ١٧- صحيح ابن ماجه، الألباني.
- ١٨- أسد الغابة: ابن الأثير.
- ١٩- الموسوعة الفقهية.
- ٢٠- ضعيف الجامع، الألباني.
- ٢١- الطب النبوي والعلم الحديث.
- ٢٢- والطب والشرعية، محمد خالد.
- ٢٣- المعجم السريري لارتفاع التوتر الشرياني.
- ٢٤- الطب النبوي في ضوء العلم الحديث، للدكتور غياث حسن.
- ٢٥- كتاب الحاوي في الطب، الرازي.

- ٢٦- صحيح أبي داود، الألباني.
- ٢٧- مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل.
- ٢٨- الثقات، ابن حبان.
- ٢٩- أسد الغابة، ابن الأثير.
- ٣٠- صحيح الترمذي، الألباني.
- ٣١- صحيح ابن ماجه، الألباني.
- ٣٢- صحيح مختصر الشماثل المحمدية، الألباني.
- ٣٣- المجموع، محيى الدين النووي.
- ٣٤- تفسير السمعاني.
- ٣٥- مجمع الزوائد، الهيثمى.
- ٣٦- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، السفاريني.
- ٣٧- صحيح ابن خزيمة، الألباني.
- ٣٨- تحفة الأحوذى، المباركفوري.
- ٣٩- فيض القدير، الشوكاني.
- ٤٠- ضعيف الجامع، الألباني.
- ٤١- إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري.
- ٤٢- صحيح النسائي، الألباني.
- ٤٣- صحيح الترغيب، الألباني.
- ٤٤- عمدة القاري، العيني.
- ٤٥- غاية المرام، الألباني.
- ٤٦- سير أعلام النبلاء، الذهبي.
- ٤٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري.
- ٤٨- تفسير الرازي، الرازي.
- ٤٩- البداية والنهاية، ابن كثير.
- ٥٠- إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري.
- ٥١- ضعيف النسائي، الألباني.
- ٥٢- جمع المفقود الكثير من معجم الطبراني الكبير، البيروتى.

- ٥٣- تاج العروس، الزبيدي.
- ٥٤- تخريج مشكل الآثار شعيب الأرناؤوط.
- ٥٥- السيرة النبوية، ابن كثير.
- ٥٦- تاج العروس، الزبيدي.
- ٥٧- الجامع الصغير، السيوطي.
- ٥٨- معرفة الصحابة، أبو نعيم الأصبهاني.
- ٥٩- عارضة الأحوزي، ابن العربي.
- ٦٠- عون المعبود، العظيم آبادي.
- ٦١- كتاب الأشباه والنظائر، السيوطي.
- ٦٢- السلسلة الصحيحة، الألباني.
- ٦٣- تذكرة الموضوعات، الفتني.
- ٦٤- غريب الحديث، ابن سلام.
- ٦٥- صحيح ابن حبان.
- ٦٦- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير.
- ٦٧- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن.
- ٦٨- إصلاح المساجد، الألباني.
- ٦٩- جامع البيان، ابن جرير الطبري.
- ٧٠- التعريفات، الشريف الجرجاني.
- ٧١- صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة.
- ٧٢- تخريج المسند لشاكر.
- ٧٣- تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرناؤوط.
- ٧٤- تخريج الإحياء، العراقي.
- ٧٥- السلسلة الضعيفة، الألباني.
- ٧٦- منهاج السنة، ابن تيمية.
- ٧٧- تفسير القرطبي.
- ٧٨- إرشاد الفقيه، ابن كثير.
- ٧٩- المحلى، ابن حزم.
- ٨٠- الدر المنثور، السيوطي.

- ٨١- الاستذكار، ابن عبد البر.
- ٨٢- نيل الأوطار، الشوكاني.
- ٨٣- السيرة النبوية، أحداث ودلالات: للمؤلف.
- ٨٤- الأذكار للنووي النووي.
- ٨٥- فتح الباري لابن رجب.
- ٨٦- تلخيص الحبير، ابن حجر.
- ٨٧- الآحاد والمثاني، الضحاك.
- ٨٨- تاريخ الطبري، الطبري.
- ٨٩- تخريج سنن أبي داود، شعيب الأرناؤوط.
- ٩٠- التفسير القيم، ابن القيم.
- ٩١- قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني.
- ٩٢- صحيح أبي داود، الألباني.
- ٩٣- تحفة الذاكرين، الشوكاني.

الفهارس

م	الموضوع	الصفحة
1	بطاقة الكتاب	
2	كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة	أ
3	التعريف بالمؤسسة	ب
4	تمهيد وتقديم	1
5	خادمة النبي ﷺ: أم أيمن	5
6	خولة خادم النبي ﷺ	23
7	صفية بنت حيي بن أخطب	25
8	فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها	37
9	فروة: ظئر النبي ﷺ	42
10	أنس بن مالك	45
11	هند بن أسماء بن حارثة بن هند الأسلمي	82
12	بكير بن شداخ الليثي	83
13	بلال بن أبي رباح	86
14	خادم نبينا محمد ﷺ: ربيعة بن كعب	99
15	الفصل العنصري وموقف الإسلام منه	109
16	خادم النبي ﷺ: عقبة بن عامر رضي الله عنه	188
17	قيس بن عباد الأنصاري الخزرجي	197
18	حارس النبي ﷺ: المغيرة بن شعبه	205

217	المغيرة بن شعبة المجاهد	19
224	المقداد بن عمرو بن الأسود	20
232	خادم النبي ﷺ: أبو السمح إياد	21
238	كاتب وحي النبي محمد ﷺ: أبان بن سعيد	22
250	كاتب الوحي: أبي بن كعب	23
257	البينة من سورة البينة	24
286	الأرقم بن أبي الأرقم	25
292	خطيب النبي ﷺ: ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري	26
305	حنظلة الكاتب	27
311	الزبير بن العوام	28
322	خبر زيد بن ثابت	29
337	العلاء بن الحضرمي	30
339	أبو سفيان عم نبينا محمد ﷺ	31
345	معقيب بن أبي فاطمة الدوسي مولى بني عبد شمس	32
360	أبو الحدر	33
366	مصادر البحث	34
370	محتوى الفهرس	35